342

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

جامعة وهران

معهد اللغة والأدب العربي — دائرة اللغة والأدب

معا نحو مكتبة للكلية الأدب العربي

رسالة موضوعها

# دلالات أسلوب القسم في السور المكية

مقدمة الى معهد اللغة والأدب العربي
لنيل شهادة الماجستير بفرع اللغة

إعداد الطالب :
ثلايلية العربي

إشراف الدكتور
سامي عوض

السنة الجامعية 1991 - 1992

# إهــداء

إلـى ذلـك الصّوت الذي يرافقني كلّما همت بالخروج من البيت «اللّه معك»

إنّه صوت أمّي .

## دلالات الرمـــــــــوز

| | |
|---|---|
| سورة مـد | مدنيـــة |
| ص . ج . ق | صدر جملة القسم . |
| ع . ج . ق | عجز جملة القسم . |
| ج | جملـــــــــة . |
| إس | إسنـــــــــاد . |
| ف | فضلة (أقل من عملية إسنادية ) |
| و . م | وحدة متممة (عملية إسنادية فأكثر ) . |
| أد | أداة . |
| ج ك | الجملة و الكلام و المطابقة بينهما . |
| // | علاقة التلازم في القسم و الشرط . |

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــــــة :

القسم من الأساليب اللّغوية ، ذات الدلالات المتعددة ولقد تـــــردد في السور المكية ، في سياقات متنوعة ، حسب حال المخاطبين والظروف التّي يجري فيها الخطاب ، لأنّ هذه السّور في معظمها تدعو إلى التوحيد ، وتربية العقيدة فـــي النفوس ، وإثبات البعث والجزاء وقد إستعملت في ذلك أساليب بلاغية رفيعـــة ، ومنها القسم ، تارة بوساطة ذكر الآيات الكونية ، والدعوة إلى تأملها ، تأملا عقليا ، وتارة بذكر القيامة وأهوالها ، والنار وعذابها ، ووصف الجنة ونعيمها ، وتارة ثالثـــة بذكر أحوال الأقوام السابقة وما أصابها من عذاب ، جزاء تكذيبها الرسل صلوات الله عليهم ، كل ذلك في أسلوب تصويري ملىء بالحركة والحسّ ، ينقل الصورة من عالـــم الغيب إلى عالم الحسّ والمشاهدة ، فتكون أبلغ في النفوس وأدعى إلى التأمـــل والتبصر ، وأقدر على تحقيق الإقناع لدى السامع ، والقسم في مثل هـذه المواضـع أنسب لإفادته التوكيد ، وتضمنه البينة والبرهان .

لقد درس القدماء من لغويين ونحويين أسلوب القسم ، وبيّنوا أدواتـــه وطرق أدائه وأقسامه ، ووقفوا على مواطن الحذف والإثبات فيه ، ويكادون يتفقون على أن الفائدة من القسم توكيد الخبر ، ونفي الشك والإنكار عن المخاطب ، ولم يلتفتوا كثيرًا إلى الدلالات المتعددة التّي يفيدها داخل السياق الكلامي الذي يرد فيـــه ، باستثناء بعض المفسرين الذين حتمت عليهم مهمتهم أن ينظروا إلى الآيات التي تضمنت أساليب قسمية متشابهة ، وإلى السياق الذي وردت فيه ، كأسباب النزول وأحـــوال المخاطبين ، للمقابلة بينها والوقوف على دلالاتها المتعددة .

انطلاقا من أن دراسة أسلوب القسم ، دراسة منفردة عما يسبقها أو يتلوها من كلام في النص اللغوي ، والسياق العام الذي يجري فيه الخطاب بما فيه حـــال

المخاطبين وظروفهم الاجتماعية والنفسية، تعتبر دراسة عقيمة، لا تقدم الفائدة المرجوة منها، وأن عملية الإقناع، لا تنشأ في ذهن السامع، إلا إذا كان الخطاب الموجه إليه مبنيا على أسس نفسية واجتماعية، ينبه العقل ويستثير النفس ويحرك الوجدان ﷺ، ولقد خاطب القرآن الكريم العرب وفق هذه الأسس، وتلك الأحوال والظروف، التي منها ما يتصل بالأمة الناطقة باللغة من جهة، ومنها ما يتصل باللغة نفسها، كطرق الأداء فيها، وطبيعة أساليبها، ووسائل إقناعها، باعتبارها المخزون الفكري للأمة الناطقة بها، من جهة ثانية، واعتمادا أيضا على النتائج التي توصلت إليها الدراسات اللغوية الحديثة، وخاصة علم الدلالة والنحو، وما يماثل كل ذلك عند القدماء أمثال الجاحظ وابن جني وعبد القاهر الجرجاني، فإني سوف أتناول موضوع القسم تناولا دلاليا وفق خطة تجمع بين النحو والدلالة والصوت مستوحاة من جهود القدماء في هذا المجال وخاصة عبد القاهر، في ضوء الدراسات الحديثة، حيث إن جهود علمائنا القدماء في مجال الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية لا تقل قيمة عما توصلت إليه المدارس اللغوية الحديثة، إلا أن الأمر يحتاج إلى تضافر الجهود، من أجل تطوير أعمالهم وبعثها بعثا منهجيا جديدا، ولعل بحثي هذا يمكن عده محاولة في هذا المجال، وسبب إختياري لهذا الموضوع هو ما استرعى انتباهي من كثرة أساليب القسم في القرآن الكريم، وخاصة السور المكية منه، لذلك إقتصرت عليها، وجعلتها محورا لهذه الدراسة، مع الالتفات أحيانا إلى بعض الآيات المدنية، استيفاء للفائدة وإكمالا للقصد.

والبحث مقسم إلى أربعة فصول:

في الفصل الأول: دراسة لغوية ونحوية، تتمثل في التعريف بأسلوب القسم، والوقوف على دلالات أفعاله وأدواته، وما يعتريها من حذف وإثبات.

وفي الفصل الثاني: دراسة دلالية بلاغية، لأساليب القسم الواردة في القرآن الكريم،

من حيث أفعال القسم وحروفه ، ثم دلالات كل من المقسم به والمقسم عليه .

وفي الفصل الثالث : محاولة إظهار ، أهمية الأسلوب القسمي في تحقيق عملية الإقناع لدى السامع ، وذلك بوساطة احتلاله محو الصور التعبيرية في النصوص القرآنية التي يرد فيها ، ثم الأبعاد الدلالية التي تعبر عنها تلك الصور .

وفي الفصل الرابع : محاولة للوصول إلى اتجاه لغوي عربي حديث تحلل على ضوئه النصوص اللغوية العربية ، وذلك بناء على النتائج التي توصلت إليها بعض المدارس اللسانية المعاصرة وانطلاقا من الجهود اللغوية العربية القديمة ، بحيث يمكن الجمع بين الحداثة المنهجية والأصالة اللغوية ، انطلاقا من النص باعتباره وحدة مترابطة الأجزاء ، تتآلف فيه المعاني الأساسية للألفاظ ، والمعاني السياقية لها داخل التراكيب ، والدلالات النحوية ، والدلالات البلاغية والصوتية ، بالإضافة إلى السياق بمفهومه العام ، ونظرا لطبيعة الموضوع ، المتصلة أساسا بالقرآن الكريم ، أوردت الكثير من الآيات القرآنية ، وتكرر بعضها في عدة مواضع من البحث ، وذلك حسب المراد منها إذ قد تستدعي الحاجة ذكر الآية أكثر من مرة ، هذا بالإضافة إلى أن هناك عددا قليلا جدا من الآيات لم يثبت بالفهرس نظرا لعدم اتصاله المباشر بالبحث ، أو لأنه تكرر كثيرا ، مما جعل الإشارة إليه في مواضع يغني عن عدم الإشارة إليه في مواضع أخرى .

كما أنني ملت أحيانا إلى الجانب التفسيري وذلك لإبراز الدلالات التي يؤديها أسلوب القسم بالنظر إلى ما يسبقه أو ما يتلوه من تراكيب .

وأخيرا أتمنى أن يكون هذا البحث محاولة موفقة لدراسة أسلوب القسم في ضوء المنهج الدلالي والنحوي الحديث .

وقد ذيلت هذا البحث بالفهارس التالية :

ـ الآيات القرآنية ، ـ الأبيات الشعرية ، ـ المصادر والمراجع ، ـ المواضيع .

## الفصـــــــــــــــل الأول :

أسلوب القسم : دراسة لغويـــة نحويـــــــــــــة .

أسلوب القسم من الأساليب المفيدة التوكيد ، الكثيرة التداول في اللغة العربية ، التي تهدف إلى توكيد الخبر واطمئنان السامع إلى ما يلقى علية ، أو نفي الشك والانكار عنه ، ومن طبيعة الانسان أن يؤكد وعدا قطعه على نفسه ، وهذا أمر شائع بين البشر جميعا ، فالأحلاف والمعاهدات والوعود ليست في الحقيقة إلا أقساما بين جماعة وجماعة أو بين حاكم ورعية ليكون بعضهم على ثقة من بعض .

فالحاجة إلى التأكيد والاطمئنان ، هي التي دعت إلى استنباط ( أسلوب القسم ) ، غير أنه لا يمكننا الوقوف على الحالات الاولى للقسم ، ولعلّ أصل اليمين هو مصافحة اليد اليمنى لليمنى تعبيرا عن الالتزام بالأمر المتفق عليه وتوكيده ، وهذا على ما يبدو أصل اليمين التي بمعنى القسم ، وسنعود إلى ذلك في هذا الفصل عند البحث في أفعال القسم .

## كيف عرف النحاة والبلاغيون القسم ؟

يعتبر كتاب سيبويه* الأساس الذي يرجع إليه النحاة والبلاغيون في شتى المسائل النحوية واللغوية ، وإذا تأملنا قول سيبويه : " أعلم أن القسم توكيد لكلامك فإذا حلفت على فعل غير منفي لم يقع لزمته اللام ولزمت اللاّمَ النّونُ الخفيفة أو الثقيلة في آخر الكلمة وذلك قولك (والله لأفعلن ) " (1) .

وجدنا أنه الأساس للتعريفات النحوية والبلاغية معا ، وذلك لأنه يذكر الفائدة من القسم التي هي توكيد الكلام ، وهذا الجانب هو الذي اعتنى به علماء البلاغة فيما بعد ، إذ اعتبروا أسلوب القسم من الأساليب البلاغيّة المفيدة التّوكيد .

فالكلام عند البلاغيين قسمان : خبر وإنشاء :

فالخبر ما احتمل التصديق أو التكذيب لذاته بغض النّظر عن قائله ، وأمّا

---

* هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر توفي سنة 180 هجرية .

1ـ الكتاب لسيبويه تحقيق وشرح عبد السلام هارون عالم الكتب بيروت ط 3/ 1983 . ج 3/ 104 .

الإنشاء ما لم يحتملهما : « فالجملة الإنشائية ليس القصد منها إفادة أنّ محتواها يطابق نسبتها الخارجية وإنما القصد إلى إنشائها . فقولك : ليت زيدًا يجيء فيه نسبة كلامية هي تمنّي المجيء ، وله نسبة خارجية هي قيام هذا التمنّي في النفس فإذا تطابقت النسبتان، يوصف الكلام بالصّدق وإذا لم تتطابق وصف بالكذب ، و لكن ليس المقصود من الجملة الإنشائية هو إنشاء هذا المعنى»(1). لذلك يقول البلاغيون: « الإنشاء ضربان طلب وغير طلب»(2) ، فالجملة الإنشائية هي التي يطلب بها إما حصول شيء أو عدم حصوله ،وإما إقراره والموافقة عليه أو عدم إقراره وهي قسمان :

إنشائية طلبية ويراد بها طلب حصول الشيء أو عدم حصوله ويتأخر تحقق وقوع معناها عن وجود لفظها ،وإنشائية غير طلبية وهي التي يتحقق مدلولها بمجرد النطق بها ، دون أن يكون طلبيا (3) ومن هذا القسم الأخير ( جملة القسم ) إذ اعتبرها البلاغيون إنشائية غير طلبية أمّا (جملة جواب القسم ) فإنها خبرية ويراد بجملة القسم توكيدها ، ولعلّ هذا هو المقصود بقول سيبويه السابق " إعلم أن القسم توكيد لكلامك ..... "

فهو عند البلاغيين يفيد الالتزام بفعل الشيء المحلوف عليه أو تركه ، وليس مجرد الاخبار عن ذلك الشيء ، يقول الزركشي ، " والقسم لفظه لفظ الخبر ومعناه الإنشاء والالتزام بفعل المحلوف عليه أو تركه ، وليس بإخبار عن شيء وقع أولا يقع ، وإنْ كان لفظه المضي أو الاستقبال (4) ، فقوله ( لفظه لفظ الخبر )المراد منه أن جملة القسم نحو قولنا (أقسم بالله ) تحمل نسبتين كما سبق : نسبة كلامية وهي (القسم بالله ) ونسبة خارجية وهي قيام هذا المعنى في النفس ، فإذا تطابقت النسبتان وصف الكلام بالصدق وإذا اختلفت

---

1ـ الأدوات المفيدة للتنبيه في كلام العرب د. فتح الله صالح المصرى ديوان المطبوعات الجامعية 14.

2ـ الايضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني . شرح وتعليق د . محمد عبد المنعم خفاجي الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة .ج 3/ 51 .

3ـ النحو الوافي .الأستاذ عباس حسن . دار المعارف بمصر ط4/ لسنة 1973 1/ 374

4ـ البرهان في علوم القرآن للامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي تحقيق محمد أبو فضل إبراهيم ط/ 2 دار المعرفة بيروت م 2/ 374 .

وصف بالكذب (لذلك قال لفظه لفظ الخبر) غير أن المقصود من القسم ليس تطابق النسبتين ، وإنما هو انشاء المعنى، والالتزام بما يُحلف به إيجابا أو نفيا، لذلك قال ابن هشام: "ولما اختص هذا النوع بأن إيجاد لفظه إيجاد لمعناه سمي إنشاء ، قال الله تعالى " إنَّا أنشأناهن إنشاء )* (1) .

وهذا ما أفاده قول الزركشي السابق ( ومعناه الإنشاء والالتزام) وأما الفائدة من القسم عند البلاغيين فهي توكيد الخبر وإزالة الشك والتردد لدى السامع (2) . أما قوله (وان كان لفظه المضي أو الاستقبال ) فالمقصود به أن لا عبرة في زمن الفعل الذي ترد به صيغة القسم كقولنا ( أقسمت أو أقسم ) إذ المقصود إنشاء معنى القسم كما سبق .

أما القسم الثاني من كلام سيبويه وهو : "فإذا حلفت على فعل غير منفي لم يقع ، لزمته اللام ولزمت اللام النون الخفيفة أو الثقيلة في آخر الكلمة وذلك قولك ( واللّهِ لأفعلن ...)وإن كان الفعل قد وقع وحلفت عليه لم تزد على اللام وذلك قولك ( والله لفعلت ...)وإذا حلفت على فعل منفي لم تغيره عن حاله التي كان عليها قبل أن تحلف وذلك قولك (والله لا أفعل ) (3) .

فيتبين منه أنَّهُ حالات لضبط جملة جواب القسم باعتبارها جملة خبرية لا بد من مراعاة دلالة زمن الأفعال فيها .

وهذا الجانب المختص بضبط التراكيب القسمية وفق ما سمع عن العرب هو أساس الدراسة عند النحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه ، فتناولوا في دراساتهم جملة القسم و جوابه وأفعال القسم ، يقول الزمخشري : وهو جملة فعلية أو اسمية تؤكد بها جملة مُوجَبة أو منفية نحو قولك ( حلفت بالله وأقسمت وآليت وعلم الله ويعلم الله ... ) (4).

---

1ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لجمال الدين ابن هشام الانصاري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ص 32 . * سورة الواقعة / 35.

2ـ ينظر البرهان في علوم القرآن م 2 / 374 .

3ـ الكتاب ج 3/ 104 و 105 .

4ـ المفصل في علم العربية لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ط/ 2 دار الجيل بيروت ص. 344 .

وإلى مثل هذا القول يذهب صاحب البرهان في علوم القرآن فيقول : "وهو عند النحويين جملة يؤكد بها الخبر" (1) .

يتبين مما سبق أن هناك فرقا بين النحاة والبلاغيين في دراستهم لأسلوب القسم ، فقد تناوله البلاغيون من حيث الوظيفة البلاغية التي يحققها القسم في السياق ألا وهي التوكيد ، وهذا الجانب نلمسه بصفة خاصة لدى المفسرين الذين أولوا كلا من المقسم به والمقسم عليه أي ( فعل القسم وجوابه ) العناية الفائقة ، ولعل الذي نبههم إلى ذلك هو كثرة الأقسام التي وردت في القرآن الكريم وخاصة في السور المكية ، حيث تشابهت فيها المقسمات بها والمقسمات عليها من حيث صيغها اللغوية التركيبية كما اختلفت من حيث دلالاتها السياقية ، فدعاهم ذلك إلى البحث عن العوامل والأسباب التي أوجبت هذه الاختلافات وهذا ما سنتناوله بالبحث في الفصل الثاني .

أما النحاة فقد تناولوا ظاهرة القسم من حيث تركيبتها اللغويّة ، حسبما وردت في كلام العرب ، والتغيرات التي تعتريها ، فحددوا وظائفها الإعرابية وضبطوا حالاتها حسب ما يقتضيه اللسان العربي ، ولم يحاولوا في الغالب أن يتعمقوا وراء ذلك ، إذ إنهم تركوا هذه المهمة للبلاغيين والمفسرين ، وقبل الشروع في دراسة دلالات أسلوب القسم ، لا بُدّ من الإشارة إلى أفعال القسم للتعرف على دلالاتها اللغوية والاصطلاحية المفيدة للقسم ، باعتباره أسلوبا بلاغيا وتركيبا لغويا له صيغ معينة و محددة في اللّسان العربي .

## أفعال القسم :

الأفعال المعبرة عن القسم كثيرة ، منها ، أقسمت وحلفت وآليت لذلك قال سيبويه : " وأعلم أن من الأفعال أشياء فيها معنى اليمين ، يجري الفعل بعدها مجراه بعد قولك (والله) وذلك قولك ( أقسم لأفعلن وأشهد لأفعلن وأقسمت بالله عليك لتفعلن ) " (2)

ليس للقسم فعل محدد أو صيغة معينة ، بل هناك أفعال وصيغ ، ولعل أصل القسم ـ كما سبق ـ وهو اليمين ، مصافحة اليد اليمنى لليمنى

---

1ـ البرهان في علوم القرآن م 3/ 40 .

2ـ الكتاب ج 3/ 104 .

وهذا ما يفهم من كلا سيبويه السابق ( فيها معنى اليمين )وإلى مثل هـذا يشير ابن جني عقب ذكر قوله تعالى " والسموات مطويات بيمينـه " * .

«إن شئت جعلت اليمين هنا الجارحة ... وذكرت اليمين هنا دور الشمـال لأنها أقوى اليدين ... وإن شئت جعلت اليمين هنا القوة» (1) .

ولعل تسمية القسم يمينا أساسها،أنه لما كان القسم توكيـداً للكلام عند السامع، فكأنه يمنحة قوة على التصديق به لأنّ اليمين قوة كمـا سبق ،وهناك معان أخرى لكلمة يمين (2)، وعبروا عن اليمين أيضا بغمـس أيديهم في عطر ونحوه ، كما كان الأمر في الجاهلية وإلى هذا أشار زهير بن أبي سلمى بقوله (3) :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما ـ تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم.

وربما عبروا عن اليمين بأن يصل أحدهم حبله بالآخر تعبيرا عن الذمـة والجوار وما يتطلبان من متانة ورعاية لتوثيق المودة ، وهذا ما جـاءت به الآية الكريمة (ضربت عليهم الذلة أين مَاثُقِفُوٓاْ إلا بحبل من الله وحبل من الناس)«أي (4) إلا في حالة تمسكهم بعهد الله وعهد المسلمين ،وقد عبـروا عن اليمين بأمور أخرى منها عدم مسّ الطّيب ،وعدم ترجيل الشعر إلـى أنْ يصلوا هدفهم ،وسموا هذا (نَذْرًا) وهو لون من ألوان القسم ،وربما كفـوا عن شيء من غير شرط وسموه (أَلِيَّة ) كما جاء في القرآن الكريم ( لِلَّذِيـن يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) (5) ، ثم تُوسِّع في استعمال الأَلِيَّةِ ، فصارت آليت بمعنى أقسمت (6)».

---

*سورة الزمـر / 67 .

1ـ الخصائص لابن جني تحقيق محمد على النجار، دارالكتاب العربي بيروت ط/1957ج 3/ 249.

2ـ لسان العرب المحيط لابن منظور إعداد وتصنيف يوسف الخياط، دارلسان العرب بيروت المجلد الثالث ص: 1016 ـ 1019 .

3ـ شرح المعلقات السبع للزوزني ط/ 3 دار الفكر بيروت ص: 104 .

4ـ سورة آل عمران / 112 .

5ـ سورة البقـرة / 226 .

6ـ التعبير الفني في القرآن د. بكري شيخ أمين ط 4/ 1980 دارالشرق ص238.

«والأَلّوة والإِلْوة والأَلِيّة كلها بمعنى اليمين والجمع ألايا "

قال الشاعر :

قليل الألايا حافظ ليمينه ولن سبقت منه الأَلِيّة بَرَّتِ .

وفي الحديث (من يَتألّ على الله يكذبه ) أي من حكم عليه وحلف كقولك : "والله ليدخلن الله فلانا النار، وينجحن الله سعي فلان ، وفي الحديث أيضا "ويل للمتألين من أمتي " يعني الذين يحكمون على الله ويقولون فلان في الجنة وفلان في النار »(1) .

وأما الحَلْف والحَلِفُ فمعناهما القسم قال أمرؤ القيس (2) :

حلفتُ لها بالله حَلْفَة فاجر - لناموا فما إنْ من حديث ولا صَالي

وأصل (الحَلِف ) العقد بالعزم والنية ، والحِلْفُ بالكسر العهد يكون بين القوم وقد حالفه أي عاهده ، وأما القسم فهو من (القسامة ) وهي اجتماع أولياء القتيل على الأخذ بثأره أو المطالبة بديته .

فالقسم والحلف ، معناهما متقارب ، يدور حول القطع والحدة، "يقال (سنان حليف ) أى قاطع ولسان حليف ، أي حديد ذلق ويقال : قسم الشيء وقَسَّمَه إذا قطعه ، والقطع يستعمل لنفي الرَّيب والشبهة ، وللقول الفصل الذي يفصل بين الحق وضده»(3) لذلك يبدو أن الصيغتين الأصليتين للقسم هما : (أقسمت وحلفت ) وأما باقي الأفعال والصيغ الأخرى فقد استعملت في القسم على سبيل التوسع والمجاز كصيغة (آليت ) لقرب معناها من أقسمت وحلفت أو أنها حُمّلت معنى القسم كالأفعال : ( شهد ، وعلم ، وجرم).

فالصيغة الأساسية للقسم إذن : تتألف من ثلاث أمور هي : فعل القسم، والمقسم به الذي يتعدى إليه الفعل بالباء ثم المقسم عليه وغالبا ما يكون فعلا مضارعا مصدرا بلام تسمى لام جواب القسم ، ومختوما بنون التوكيد الثقيلة أو الخفيفة كقولنا ( أقسم بالله لأعملن الصالحات ) .

فعل القسم والمقسم به يسميان في اصطلاح النحاة جملة القسم ، وأما المقسم عليه فيسمى عندهم جملة جواب القسم ..

---

1ـ لسان العرب م 1/90 ولم يسم قائل البيت .

2ـ ديوان امرؤ القيس دار بيروت للطباعة والنشر ص . 141

3ـ التعبير الفني في القرآن ص : 238 بتصرف..

ولما كان القسم كثيرا في كلام العرب إختصر وصار فعل القسم يحذف وتستبدل به الباء في القسم الاستعطافي الذي سيأتي بيانه أو الواو وتستعمل في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى : "والليل إذا يغشى" (1) أو التاء وقد اختصت بلفظ الجلالة كقوله تعالى : وتالله لأكيدن أصنامكم" (2) .
وهناك أحرف أخرى سيأتي بيانها ، والتقسيم الذي سنعتمده في هذه الدراسة لأسلوب القسم : له وجهان ، وجه تركيبي لغوي، ووجه دلالي بلاغي .

فبالنسبة إلى الوجه الأول : فإن أسلوب القسم يتألف من شقين

أ: صدر جملة القسم : ب ـ عجز جملة القسم : وكلاهما متمم للآخر بحيث يُكوّنان معًا (جملة القسم)إذن :

أسلوب القسم ⟸ جملة قسمية { أ ـ صدر جملة القسم . ب ـ عجز جملة القسم . }

أما الوجه الدلالي البلاغي فيقتضي أن يراعى في أسلوب القسم العناصر التالية : الحالف والمحلوف به والمحلوف عليه والمحلوف له وسبب الحلف ثم صيغة الحلف التي تجمع كل هذه العناصر ، تحقيقًا أو تقديرًا حسب الصياغة اللغوية ومقتضي التراكيب ، وهذه العناصر ذات أهمية بالغة في هذه الدراسة التي يكون فيها الاعتماد منصبا على دلالات أسلوب القسم ، وهذا ما يتطلب النظر إلى السياقات العامة التي ترد فيها تلك الأساليب ، وهذا ما سندرسه في الفصل الثاني .

## الجملة القسمية أو التركيب القسمي :

إن دراسة النحاة الجملة العربية ،كان أساسها العلاقة الإسنادية التي تربط الكلام بعضه ببعض ، لذلك إتجهت دراستهم إلى العامل الذي هو السبب في أحداث الحركة الإعرابية في أواخر الكلمات .
ويوضح سيبويه المقصود بالمسند والمسند إليه بقوله «وهما مالا يَغْنَي واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بُدًّا فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك (عبد الله أخوك) ، وهذا أخوك ، ومثل ذلك ( يذهب عبد الله ) ،

1ـ سورة الليل / 1 .
2ـ سورة الأنبياء / 57 .

فلا بد للفعل من اسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء" (1) - ويتناول المبرد هذه العلاقة بين المسند والمسند إليه بشيء من التفصيل فيقول : "وهما مالا يستغني كل واحد من صاحبه فمن ذلك قام زيد ، والابتداء وخبره وما دخل عليه نحو (كان) و (إن) وأفعال الشك والعلم والمجازاة . فالابتداء نحو قولك (زيد) فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع ليتوقع ما تخبره به عنه فإذا قلت (منطلق) أو ما أشبهه ، صح معنى الكلام وكانت الفائدة للسامع في الخبر لأنه قد كان يعرف زيداً كما تعرفه ولولا ذلك لم نقل له (زيد) ولكنت قائلا له : (رجل يقال له زيد) ، فلما كان يعرف زيدا ويجهل ما تخبره به عنه أفدته الخبر فَصَحَّ الكلام لأن اللفظة الواحدة من الاسم والفعل لا تفيد شيئا وإذا قرنتهما بما يصلح حدث معنى واستغنى الكلام" (2) .

والحقيقة أن كلا من سيبويه والمبرد يفسران (الإسناد الأصلي) وهو المتمثل أساسا في الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره، وهناك من يرى فرقا بين الجملة والكلام ، إذ يرى أن الكلام ما تضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودا لذاته ، أما الجملة فهي ما تضمن الإسناد الأصلي سواء كان مقصودا لذاته أولا (3) ، إذ إن الكثير من الجمل تتضمن حسب هذا الرأي (الإسناد الأصلي) وليست مقصودة لذاتها ، و يزيد ابن هشام هذا الرأي توضيحا عندما يفرق بين الكلام والجملة : فيرى أن الكلام هو القول المفيد إفادة يحسن السكوت عندها ، وأما الجملة فهي عبارة عن الفعل وفاعله كقام زيد ، والمبتدأ وخبره كزيد قام ، وبهذا يظهر لك أنهما ليسا بمترادفين كما توهمه كثير من الناس وهو ظاهر قول صاحب المفصل (4) .

---

1- الكتاب ج 1/ 23 .

2- المقتضب للمبرد تحقيق، محمد عبد الخالق عضيمة ط/ 65 القاهرة ج 4/ 126 .

3- الجملة : دراسة لغوية ونحوية .د . ابراهيم عبادة ط/ 1988 الاسكندرية ص: 30 بتصرف نقلا عن شرح الرضي على الكافية ج 1/ 8 .

4- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب لجمال الدين بن هشام الانصاري تحقيق . د .مازن المبارك ومحمد على حمد الله .دار الفكر ط2/ 1969ج 2/ 419 .

وحسب التعريف السابق لكل من الجملة والكلام ، الكلام ما تضمن إسنادًا وأفاد إفادة يحسن السكوت عندها كقولنا : (العلم مفيد) وهو في الوقت نفسه جملة ، أما قولنا : (العلم مفيد لإتقانه) فـ (مفيد لإتقانه) لا يُعد كلاما لأنه لم يقصد لذاته؛ إذ ليس الإخبار متجها إلى (إتقان العلم) وإنما المقصود هو الإخبار عن (العلم) ، ومن ثم يتبين أن المركب الإسنادي الأصلي إذا كان جزءًا من تركيب أكبر يسمى جملة ولا يسمى كلاما، وإشارة المبرد وهي قوله ( صَحَّ معنى الكلام ...) يفهم منها أن لا فرق بين الكلام والجملة ، كما أن ابن جني حين يعرض للجملة والكلام والقول ، يذهب إلى المطابقة بينهما (أي الجملة والكلام ) فهو بعد أن يفرق بين القول والكلام، وأن الكلام لا يكون إلا أصواتا تامة مفيدة ، لذلك قالوا : القرآن كلام الله ولم يقولوا للقرآن قول الله وأن القول قد يكون أصواتًا غير مفيدة ، وهو أعم من الكلام ، ويستشهد لذلك بمثال من عند سيبويه نحو : قلت :زيد منطلق ألا ترى أنه يحسن أن تقول (زيد منطلق) ، يقول : "فتمثيله بهذا (أي المثال السابق ) يعلم منه أن الكلام عنده ما كان من الألفاظ قائما برأسه ، مستقلا بمعناه وأن القول عنده بخلاف ذلك ، إذ لو كانت حال القول عنده حال الكلام لما قدم الفصل بينهما ، ولما أراك فيه أن الكلام هو الجمل المستقلة بأنفسها ، ، الغانية عن غيرها ، وأن القول لا يستحق هذه الصفة ، من حيث كانت الكلمة الواحدة قولا ، وإن لم تكن كلاما ، فعلى هذا يكون قولنا (قام زيد) كلامًا ، فإن قلت شارطا (إن قام زيد) فزدت عليه (إن ) رجع بالزيادة إلى النقصان فصار قولا لا كلاما ، ألا تراه ناقصا ، ومنتظرا للتمام بجواب الشرط ، وكذلك لو قلت في حكاية القسم : (حلفت بالله ) أي كان قسمي هذا، لكان كلامًا ، لكونه مستقلا ولو أردت به صَريح القسم لكان قولا من حيث كان ناقصًا لاحتياجه إلى جوابه ، فهذا ونحوه من البيان ما تراه ." (1)

---

1ـ الخصائص ج 1/ 19 .

يتبين من هذا النص أن ابن جني يؤكد على التطابق بين الكلام والجملة، ويفرق بينهما وبين القول : كما يؤكد أن النحويين إنما يسمون الكلام المفيد المستقل بنفسه (جملا) ويذكر لذلك أمثلة متعددة ، ومثله في المطابقة بين الكلام والجملة الزمخشري في كتابه المفصل (1) .

وواضح من النصوص السابقة أن أساس البحث عندهم كان العلاقة بين طرفي الإسناد : المسند والمسند إليه، ففريق رأى أن التركيب اللغوي المتضمن الإسناد الأصلي إنما يسمى جملة وقد يسمى أيضا كلاما إذا أفاد إفادة يحسن السكوت عندها ، فالكلام شرطه الإفادة لذاته .

وفريق يرى أنه لا فرق بين الجملة والكلام ويمثله قديما ابن جني وكان اعتماده كما رأينا على كلام سيبويه ، وكذلك الزمخشري ومن المحدثين عباس حسن الذي يقول : "الكلام أو الجملة هو ما تركب من كلمتين أو أكثر وله معنى مفيد مستقل . . . فلا بُدَّ في الكلام من أمرين مَعًا هما التركيب والإفادة المستقلة" (2)

ولعل الرأي الجدير بالاهتمام هو رأي هذا الفريق الثاني : لأن الجملة أو الكلام تركيب لغوي يفيد معنى مستقلا لذاته يحسن السكوت عليه فهو وحدة نحوية تتضمن علاقة إسنادية أساسية قابلة للتحليل اللغوي ، فهناك "الفعل ومتعلقاته والاسم و توابعه المذكورة في النص تمثل الجملة ، وليس الفعل و الفاعل أونائبه ، أو المبتدأ أوالخبر وحدهما" (3)

ولعل هذا التعريف للجملة والكلام والمطابقة بينهما هو الذي يرضي البلاغيين والمفسرين ، لأنه يفتح لهم المجال واسعا للنظر في ما تدل عليه الأداة والصيغة والتركيب من معان سياقية تستفاد من علاقة ألفاظ التركيب اللغوي ببعضها، لترتبط بالمعنى المعجمي الخاص بها فتؤدي المعاني التي وظفت الكلمات من أجلها في أثناء التأليف، يقول الدكتور مصطفى جمال الدين

---

1ـ المصدر نفسه : ج 1/ 17 والمفصل في علم التربية ص 6 .

2ـ النحو الوافي : ج 1/ 15 .

3ـ الجملة دراسة لغوية و نحوية : ص 41 .

وهو يتحدث عن النحو عند الأصوليين : « وهذا هو النحو عندهم ترتيب العرب لكلامهم الذي نزل به القرآن وبه يفهم معاني الكلام التي يعبر عنها باختلاف الحركات وبناء الألفاظ » (1) .

والحقيقة أن الانطلاقة الأولى للنحو العربي على يد الخليل وسيبويه كانت انطلاقة رائعة ، الهدف منها دراسة التركيب اللغوي ومعرفة عناصره ومكوناته للوصول إلى معرفة سر البلاغة في اللغة العربية ، لذلك يقول ابن جنى في تعريفه للنحو : « هو انتحاء سمت كلام العرب ، في تصرفه من إعرابه وغيره ، كالتثنية والجمع والتحقير ، والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذ بعضهم عنها رُدَّ به إليها » (2)

فابن جنى ينظر إلى النحو على أنه دراسة للتراكيب والأساليب العربية ومعرفة خصائصها ودقائقها ووجوه البلاغة والفصاحة فيها ، فالتعريف إذن شامل ، وما الإعراب إلا جزء من النحو ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابن السراج فهو يقول : النحو إنما أريد به أن ينحو المتكلم إذا تعلمه كلام العرب وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب ، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة » (3) .

فاستقراء كلام العرب إذن غير مقتصر على الإعراب وحده لأن الإعراب هو الإبانة والوضوح ، واصطلاحا هو حركات تدل على المعاني وتبين عنها ، « وليس كل من عرف الإعراب من وجوه رفع ونصب وخفض وجزم ، أحاط باللغة وفهمها ، ولا كل من فهم من اللغة قطعة ولم يَرُضْ نفسه في تعلم الإعراب ، عرف الإعراب » (4) وإنما استقراء كلام العرب يتطلب الوقوف على مناحي القول عندهم ، وما يعتري التراكيب اللغوية من حذف وإثبات ،

---

1ـ البحث النحوي عند الاصوليين د . مصطفى جمال الدين ط/ 1980 دار الرشيد ص : 297 .

2ـ الخصائص ج 1/ 34 .

3ـ الأصول في النحو لابن السراج ، تحقيق د . عبد الحسين الفتلي ط/ 1 سنة 1985 مؤسسة الرسالة بيروت ج 1/ 35 .

4ـ الإيضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي ، تحقيق د . مازن المبارك ط/ 4 1982 دار النفائس بيروت ص : 93 .

وتقديم وتأخير، وفصل وتوكيد، والوقوف على أسباب هذه الأمور للوصول إلى دقائقها، وهذه الموضوعات اعتنى بها البلاغيون والمفسرون وعلماء الأصول وجعلوها محل دراستهم في الوصول إلى معرفة البيان العربي الذي خصه الله تبارك وتعالى بالذكر في القرآن الكريم وأمر بتعلمه ضمنا، حين وصف الإنسان به في قوله تعالى: "الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان"(1) أو صراحة كما في قوله تعالى: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم"(2).

لذلك كانت بحوث البلاغيين العرب منصبة على دراسة الأسلوب العربي منذ عصر الرواد الأوائل، كالجاحظ الذي يمثل علماء القرنين: الثاني والثالث الهجريين في هذا المجال، ثم أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفي 471 هـ وهو أحد أئمة العربية والنحو، ويعتبر مؤسس البلاغة العربية وله في ذلك كتابان مشهوران هما: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لا يستغني عنهما طالب البلاغة والبيان، ثم سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن محمد السكاكي المتوفي سنة 626 هـ، أحد أعلام القرن السابع وكان جل اعتماده في تقسيماته علم البلاغة والبيان والمعاني والبديع على من سبقوه وخاصة عبد القاهر الجرجاني.

وكذلك كان للمفسرين والأصوليين أثر بالغ في النهوض بالبلاغة العربية وذلك من أجل استنباط الأحكام الدينية وأصول التشريع الإسلامي من نصوص القرآن والسنة، إذ الأمر يتطلب النظر والتأمل في أساليب القرآن البيانية وألفاظه ودلالاتها، وفي طرائق التعبير ومراميها، فالبلاغيون يعدون القرآن مرجعهم الأول الذي يستمدون منه أمثلتهم، والمفسرون إذا كانوا في أول الأمر: "يتخذون من البلاغة وسيلة لفهم معاني القرآن الكريم، فإنهم فيما بعد كانوا يشرحون ما في الآيات من بلاغة ونحو وصرف على أنه جزء من التفسير أو مدخل إليه"(3).

---

1- سورة الرحمن: الآيتان 1 و 2.

2- سورة العلق: الآيات 1، 2، 3، 4، 5.

3- في تاريخ البلاغة العربية د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية بيروت ص: 32.

وكذلك الأمر بالنّسبة إلى كثير من نحاة القرون: الثاني والثالث والرابع الهجرية، فقد ألفوا في البلاغة ولم يُقْصِرُوا نشاطهم العلمي على النحو وحده، منهم يونس بن حبيب، والأخفش الأوسط (أبو الحسن سعيد بن مسعدة)، وأبو حاتم السجستاني وابن السراج وغيرهم ... (1)

ولعل أشهر من حاول أن يربط بين النحو والبلاغة هو عبد القاهر الجرجاني وذلك بعد أن رأى أن النحو أخذ ينحو منحى يبتعد به عن الهدف الذي أنشئ من أجله على يد بعض الذين حصروه في الإعراب وأرادوا أن يوقفوه عن تلك الحركات الإعرابية الدالة عن المعاني النحوية كالفاعلية والمفعولية وغير ذلك.. (2)

وكان منطلق عبد القاهر الجرجاني هو أن الإعجاز يكون في اللفظ والمعنى مَعًا أي في نظم الكلام، وهذا النظم هو الأسلوب، لذلك بدأ بحثه من الجملة التي هي أكبر وحدة نحوية تقبل التحليل اللغوي كما سبق، وإنها مطابقة للكلام بالمعنى الذي تقدم في أقوال النحاة، يقول: «واعلم أن مثل واضع الكلام مثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة، وذلك أنك إذا قلت، ضرب زيد عمرًا يوم الجمعة ضربًا شديدًا تأديبا له، فإنك تحصل من مجموع الكلم كلها على مفهوم هو معنى واحد لا عِدَّة معان كما يتوهم الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيده أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتفيدَ وجوه التعليق التي بين الفعل الذي هو ضرب وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعليق (ثم يقول) وثبت أن المفهوم من مجموع الكلم، معنى واحد لا عدة معان، وهو إثباتك زيدا فاعلا ضربا لعمر وفي وقت كذا وعلى صفة كذا ولغرض كذا، ولهذا المعنى نقول: إنه كلام واحد» (3).

---

1 ـ في تاريخ البلاغة العربية د. عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية بيروت ص: 43.

2 ـ البحث النحوي عند الأصوليين ص: 25.

3 ـ دلائل الاعجاز في علم المعاني لبعد القاهر الجرجاني، تصحيح محمد عبده ط/ 1978 دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ص: 316.

يتضمن هذا المثال الذى جاء به عبد القاهر الأمور التالية :

أ ـ معنى واحداً لا عدة معان .

ب ـ الكلمات ليست مقصودة لذاتها (لمعانيها المعجمية ) .

ج ـ المعاني المقصودة منها تستفاد من السياق الذي وردت فيه .

د ـ المعنى الكلي المستفاد من السياق ناشئ عن الفعل ومتعلقاته .

هـ ـ الحكم الذي يستخلص من هذه الجملة ناتج عن العلاقة القائمة بين مكوناتها .

إذن فالجملة هي الكلام المفيد ، المركب في سلاسل كلامية وفق ما يقتضية نظام اللغة وطبيعة وضع ألفاظها بحيث تُراعى فيها العلاقة الإسنادية التي لابد للمتكلم منها كما سبق ، وسائر أدوات الربط في تأليف بين معاني الألفاظ المعجمية ومعانيها السياقية في أثناء تركيبها، وما يطرأ على كل ذلك من تقديم وتأخير إلخ..

وهذا المفهوم للجملة والكلام هو الذي يقرب علم النحو من علم البلاغة ، ويعطي للنحو الغرض الذي من أجله كان ، بحيث يصبح نحو دلالة لا نحو إعراب ، وعلى هذا المنوال سار الزمخشري في كتابه (الكشاف ) الذي ارتضى من خلاله أن يطبق ما قاله أستاذه عبد القاهر الجرجاني ، فكان تفسيره زاخراً بإظهار المسائل النحوية والبلاغية واللغوية لأنه يرى أن المفسر لا بدّ أن يجمع بين اللغة والنحو والبلاغة والفقه ، يقول في مقدمة كتابه الكشاف: «إلا رجلا (أي الذي يتصدى للتفسير ) قد برع في علمين مختصين في القرآن وهما علم المعاني وعلم البيان ... فارسا في علم الإعراب ... ذا دربة بأساليب النظم والنثر ... قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف»(1)

فهذه الأوصاف التي إشترطها الزمخشري نلمس الكثير منها عند صاحب الكتاب ، المنظر للنحو العربي : إذ كان جل اعتماده على استقصاء لغة العرب والسماع إلى الأعراب الفصحاء للوقوف على دقائق هذه اللغة .

---

1ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري / دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت م 1/ 16 ـ 17 .

وبعد فإن اعتمادي كان كبيرا على الكشاف في معرفة دلالات أساليب القسم في القرآن الكريم للاعتبارات السابقة، ولذلك رأيت أن أسلوب القسم يتكون من جملة واحدة هي : الجملة القسمية بشقيها كما سبق الصدر والعجز.

أ- صدر جملة القسم :

إعتمادا على الرأي القائل بالمطابقة بين الجملة والكلام فإنه ابتداء من الآن سوف نقصد بالجملة القسمية كل التركيب القسمي، المكون من جملة القسم وجملة الجواب، وذلك أن جملتي القسم وجوابه كجملتي الشرط وجوابه، بحيث تتنزلان معًا منزلة الجملة الواحدة عند أكثر النحاة.

يقول الزمخشري : "من شأن الجملتين أن تتنزلا منزلة جملة واحدة كجملتي الشرط والجزاء "(1)، وذلك لأنّ الكلام أو الجملة هو ما أفاد معنى يحسن السكوت عنده و يحدده السياق، وهذا لا يتعين في التركيب القسمي إلا بذكر فعل القسم والمقسم به ثم المقسم عليه، وكما أن العلاقة في أسلوب الشرط تعليقية لأن الحكم في أسلوب الشرط هو ما يتضمنه عجز جملة الشرط(أي جواب الشّرْط) فهو الجزاء المعلق تحقيقه على تحقيق الشرط، فكذلك الأمر بالنسبة إلى القسم : فعلاقته توكيدية وهي تتمثل في النسبة القائمة بين تركيبين إنْ فصلا عن بعضهما فَقَدا معناهما، لذلك لا يمكن استغناء أحد طرفي التركيب القسمي عن الآخر، وإلا تَغَيَّر معناهما، قال ابن السراج : "القسم في كلامك إنما تجيء به للتوكيد وهو وحده لا معنى له لَوْ قلت: والله و سكت أو بالله ووقفت لم يكن لذلك معنى حتى تقسم على أمر من الأمور، وكذلك إذا أظهرت الفعل وأنت تريد القسم فقلت: أشهد بالله وأقسم بالله فلفظه لفظ الخبر إلا أنه مضمر بما يؤكده ...."(2).

يتضح مما سبق أن صدر جملة القسم، سواء صرح فيه بما هو أصلا للقسم كـ(حلف) و (أقسم) أو بأحد الأفعال المحتملة للقسم كـ( شهد وعلم ) لا معنى

1- المفصل في علم العربية ص : 344.

2- الأصول في النحوج 1/ 431.

له حتى يكتمل بما يراد القسم عليه (أي جواب القسم ) وكذا الأمر بالنسبة إلى بقية الأحرف النائبة عن الأفعال كقولنا : (والله ) ونحن نريد القسم ، فلا معنى له إلا إذا ذكرنا المقسم عليه .

ضوابط صدر جملة القسم :

أقول: إنَّ الأصل في صدر جملة القسم أن يكون مركبا فعليا لإنشاء صيغة الحلف، ويكون بأحد الأفعال الموضوعة أساسا للقسم (أحلف وأقسم ) ومن الفعل وفاعله ومتعلق الفعل (أي الجار والمجرور ) يتألف صدر جملة القسم ، وقد يرد القسم بأفعال أخرى تتضمن معنى القسم فتحتاج إلى قرينة تبين دلالتها على القسم ، ولقد ورد في القرآن الكريم مجموعة من الصيغ القسمية عبر عنها بالفعل (أقسم ) كما في قوله تعالى: "فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم " (1) ،

وذلك للدلالة على عظمة القسم والمقسم به والمقسم عليه في آن واحد ، كما أقسم الله تعالى بالفعل (حلف ) في عدة مواضع من القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : "و يحلفون بالله إنهم منكم وماهم منكم ولكنهم قوم يَفْرَقُونَ " (2) ، والملاحظ أنَّ الفعل (حلف ) جاء مسنداً إلى ضمير الجماعة في أغلب الصيغ التي ورد فيها ، وسوف يبسط القول في هذين الفعلين بالفصل الثاني .

الحروف النائبة عن الأفعال .

الحروف النائبة عن الأفعال و المشهورة هي ( الواو ، الباء ، التاء ، اللام ) وأكثرها استعمالا الواو والباء ، ويرى أغلب النحاة القدماء أن الباء هي الأصل والواو عوض عنها والتاء عوض عن الواو ( 3)، غير أن الواو أكثر استعمالا وذلك لأنها تجتمع مع الفعل بخلاف الباء التي تأتي مع الفعل وبدونه .

ولقد عللوا كثرة إستعمال الواو واستقلالها عن الفعل بغلبة الفرع واشتهاره على الأصل ، كما إستدلوا على أصالة الباء في القسم بأمور ثلاثة : ( 4)

1- سورة الواقعة : الآيات : 78 ، 79 ، 80 .

2- سورة التوبة (مدنية) الآية : 56 .

3- البرهان في علم القرآن ج 3/ 44 والأصول في النحو ج1 / 430 .

4- المفصل في علم العربية ص : 346 ، 347

أ ـ دخول الباء على الضمير كقول الشاعر :(1)

ألا نادت أمامة باحتمال ـ لِتحزُنَني فلا، بِكِ ما أبالي

ب ـ ظهور الفعل معها كقولك "حلفت بالله" .

ج ـ الحلف على سبيل الاستعطاف كقول الشاعر ابن هرمة :(2)

بالله ربّك إنْ دخلت فقل له ـ هذا ابن هرمة واقفاً بالباب

أما ابن هشام فجعل القسم من معاني حرف الجر الباء واعتبرها أصلية فيه أي (القسم) مستدلا على أصالتها بالأدلة الثلاثة السابقة (3) ، يمكننا الوقوف عند هذه الآراء لمناقشتها :

من معاني حرف الجر (الباء) التعدية ، أي تعدية الفعل القاصر إلى المفعول به ، فقولنا : "أقسم بالله" يشبه من الناحية التركيبية قولنا : "أذهب بزيد" فكلا الجملتين مكونة من :

فعل + فاعل + (جار ومجرور) .

وأمّا الاختلاف فمن جهة المعنى وما عدا ذلك فلا فرق بين كون الباء للقسم في الجملة الأولى، وكونها للجر في الثانية ، وشأنها في تعدية الفعل إلى المفعول به كشأن أغلب حروف الجر ، وأما اختصاصها بالقسم الاستعطافي فعلى سبيل تقدير فعل مناسب للقسم يؤدي المعنى المراد وبالتالي تصبح الجملة مكونة من (فعل وفاعل وجار ومجرور) ، كما أنّ حذف الفعل في القسم الاستعطافي ونيابة الباء عنه ، راجع إلى أن أفعال القسم محدودة ، بحيث لا يؤدي حذفها إلى تغيير المعنى وإخراجه عن دائرة القسم ، بخلاف حذف الفعل من تركيب لغوي آخر مكون من : (فعل وفاعل وجارّ ومجرور) ، والإبقاء فقط على (الجار والمجرور) ، فإنه لا يمكننا تقدير الفعل المناسب للمعنى المقصود .

بناء على ما سبق يمكننا القول: إن الباء حرف من حروف الجر استعير لتأدية القسم لملاءمته الفعلين الأصليين في القسم (أقسم وأحلف) التعدية إلى المقسم به وفق ما يتطلبه التركيب اللغوي في مجال التعدية بالباء من حيث

---

1 ـ المصدر السّابق ص : 347

2 ـ المصدر السّابق ص : 347

3 ـ المغني ج 1/106 و 112

البنية السطحية للعبارة العربية ، وليس لأصالة هذا الحرف في القسم .

أمّا الأستاذ عباس حسن فيرى أن الباء أصلية في القسم دون سائر الحروف الأخرى فيقول : « وهذا من أكثر استعمالاتها وهي أصلية فيه دون حروفه السابقة »(1) ويقول في موضع آخر : "والصحيح أن الواو والتاء أصيلان في القسم ، وليسا نائبين فيه عن "الباء" وليست "الباء" بعدهما مقدرة تجر الاسم لأن هذا تعقيد لا داعي له "(2) ، فهو مرة يثبت أصالة الباء ، دون بقية الحروف ، ومرة يثبت تلك الأصالة (للواو والتاء ) .

والذي يتجلى من استقراء نصوص القرآن الكريم التي هي أعلى درجات الفصاحة والبلاغة ، أن الباء لا تجيء إلا مع فعل القسم المتعدي إلى ما بعده أي (المقسم به ) أي أنّه لا تجيء الباء والفعل محذوف إلا قليلا وقد حمل عليه بعضهم قوله تعالى : "يابني لا تشرك بالله "*(3) .

وكأنّ شأن الفعل السابق المتعدي بالباء ، شأن الأفعال الأخرى التي لاتتعدى إلى المفعول بنفسها وهذا التشابه طبعاً من حيث البنية الظاهرية للجملة العربية حين تكون مكونة من فعل + فاعل + جار ومجرور (قائم مقام المفعول ) ، ولعلّ هذه الفكرة قد راودت ذهن سيبويه حين نقل عن الخليل قوله : « إنّما تجيء بهذه الحروف لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به كما تضيف مررت به بالباء إلاّ أنّ الفعل يجيء مُضْمَرًا »(4) فقوله هذا يدل على الشبه القائم بين (أقسم بالله ) مثلا و (ذهبت بالطالب ) من حيث العناصر النحوية المكونة للجملة .

وكما ينصب المجرور في كلام العرب على نزع الخافض فكذلك نصبوا المقسم به أحيانا على تقدير فعل القسم المحذوف ، بالتعدية مباشرة وذلك قولهم في بيت امرئ القيس (5) :

---

1 ـ النحو الوافي ج 2/ 497 .

2 ـ المرجع السابق ج 2/ 489 .

3 ـ البرهان في علوم القرآن م 3/ 43 ـ 44 . * سورة لقمان / 13 .

4 ـ الكتاب ج 3/ 497 .

5 ـ شرح المعلقات السبع للزوزني ص: 24 .

فقالت يمينَ الله مالك حيلة ـ وما إنْ أرى عنك الغواية تنجلي

أصله: «أحلف بيمين الله، فلما حذف الباء وصل فعل القسم إليه بنفسه ثم حذف فعل القسم وبقي منصوبا»[1].

فحذف الباء في القسم مثل حذفها في المواضع الأخرى وانتصاب مجرورها على نزع الخافض، كما يغلب حذف على (الجارة) للمقسم به مع الفعل (آلي) وانتصابه على نزع الخافض، وهذا ما قد يرجح كون الباء في كلام العرب للجر أساسا ثم استعيرت لتأدية القسم.

أما الواو: فإنها حين تستعمل في القسم تقوم بنفسها وتستغني عن الفعل، ولقد جاءت أغلب صيغ القسم في القرآن الكريم بالواو، دون الفعل والواو لا تؤدي وظيفة الجَرِّ إلا إذا كانت للقسم ولم يرها البصريون تجر غيره، بخلاف الباء التي تستعمل في القسم وفي عامة الجر...

لذلك جعلوا الجر في مثل قول الشاعر أمرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ـ علي أنواع الهموم ليبتلي[2]

"رب" المحذوفة وليس للواو ولم يخالفهم إلا المبرد، كما أن دخول الواو العاطفة على واو القسم كما في قول الشاعر:[3]

ووالله لولا تمره ما حبيته ـ ولا كان أدنى من عبيد ومشرق

لدليل على أن الواولاتجر إلا في القسم بخلاف الباء التي تجر في غير القسم.

أما التاء: فتختص بلفظ الجلالة (الله)، «وربما قالوا تربي وترب الكعبة وتالرحمن وفيها زيادة معنى التعجب كما في قوله تعالى (و تالله لأكيدن أصنامكم)[4]، وكأنه تعجب من تسهيل الكيد وتأتيه على يده مع عتو نمرود وقهره»[5]

كما أن التاء تستعمل أيضا في الإشارة والتنبيه والنداء وهذه كلها لا تخلو من مبالغة و تأكيد وقد قال الشاعر(6)

---

1ـ الأصول في النحو: ج 1/ 434.

2ـ شرح المعلقات السبع: ص 34.

3ـ مغني اللبيب ج 1/ 400 وذكر نسبته الى عيلان بن شجاع.

4ـ سورة الانبياء / 57.

5ـ المغني ج 1/ 123 والكشاف م 2/ 576.

6ـ المفصل في علم العربية ص: 307.

ها إِنَّ تَاعِذْرَةً إِلاَّ تكن نفعت – فإن صاحبها قد تاه في البلـــد

غير أن إستعمال التاء في القسم قد بقي محدوداً ، وإختصاصها بالنداء والإشارة أوسع من استعمالها في القسم .

أما اللام الجـارة :

فإنها تدل على القسم والتعجب معاً، وضابط حالاتها : هو أن يحذف فعل القسم وأن يكون المقسم به هو لفظ الجلالة كقولهم : "للّه لا ينحو من الأيام حذر، يقال هذا في معرض الحديث عن رجل حريص يتوقى أسباب الضرر جهد استطاعته ولكنه بالرغم من ذلك يصاب" (1)

وقول الشاعر : (2)

للّه يبقى على الأيام ذوحِيَدٍ – بمشمخرّ به الظّيان والآس .

ولا بد من وجود قرينة تدل على معنى التعجب والقسم مجتمعين في الـــلام، وبغيرها لا يتضح مدلولها على التعجب، والفرق بينها وبين التاء هو أن التـاء لا تجر إلا في القسم وتفيد التعجب غالبا ، أما اللام فتجر و تفيد التعجـب في غير القسم ، أما إفادتها الجر في غير القسم فمعلومة، وأما إفادتها التعجب فذلك عند وقوعها بَعْدَ النداء نحو "يا للأصيل وما به من روعة" بشرط وجـود القرينة الدالة .

فهذه هي الحروف المشهورة في القسم ، وغيرها نادر الاستعمال وهو ( مـن الجارة والهمزة وهاء التنبيه ) :

مُـن : تستعمل بكسر الميم أو ضمها يقول سيبويه : "ولا يدخلونها في غير ربي.. ولا تدخل الضمة في (من) إلا ها هنا" (3) وضابط حالاتها أن يحـذف فعل القسم وفاعله وجوبا فيقال (من الله لأناصرن النزيـه ) (4) .

ويمكن أن تكون (اللام ومن ) من حروف الجر التي أُلحقت بالقسم (5) لإفادة الأولى أن القسم من الله ، والثانية أن القسم لله ، وكأنّ في الحالتيـن

1ـ النحو الوافـي ج 2/ 477 .

2ـ المفصل في علم العربية ص : 345 ولم ينسب البيت إلى قائل معين .

3ـ الكتاب م 3/ 499 .

4ـ النحو الوافـي ج 2/ 477 .

5ـ المفصـــل ص : / 345 .

اعترافاً ضمنيًّا من المُقسِم على أن الأمر المقسم عليه عهد في الذّمّة لا يجوز مخالفته ، فهو من عهد الله أو كله لله، وقد تكون (من) لغة في أيمن [1] فتصبح اسما بمعنى اليمين، وأقل من (من) استعمالا في القسم همزة الاستفهام وهاء التنبيه .

أ ـ همزة الا ستفهام : نحو (أالله ليفعلن) فإنها عوض من الواو ، بدليل، أننا لا نقول: (أوالله ) أما في قولنا: (أفالله لتفعلن) فإنّها تثبت [2] ومفاد ذلك أن هذه الهمزة أصلا للاستفهام ،

وقد تستعمل لنداء القريب مقصورة أو نداء البعيد ممدودة [3]، وذلك لأن النّداء لا يخلو من تنبيه المنادى ، والهمزة صالحة لإفادة التنبيه ، وقد تكون استعارتهم إياها لإفادة القسم، لأن القسم في حد ذاته يفيد التنبيه كما سبق، لذلك اعتبروها نائبة عن الواو المختصة في القسم ، وعلتهم في ذلك أنها لا تجتمع مع الواو، أما اجتماعها مع الفاء في قولنا ( أفالله) فلأن الفاء ليست من حروف القسم ، وأما عدم اجتماعها مع الواو في قولنا (أفوالله) فبسبب وجود الواو المختصة بالقسم، فلا داعي إلى المعوّض ، أما عدم استقامة قولنا (أوالله) فلأنه لا يجتمع حرفا قسم على مقسم به واحد ، مثلما لا تجتمع الباء مع الواو في قولنا (بوالله) [4] .

ب ـ هاء التنبيه : فتختص باسم الله تعالى في القسم مثل قولنا : "(هالله) قال سيبويه: "ولا يكون في المقسم به ها هنا إلا الجر، لأن قولهم (ها) صار عوضا من اللفظ بالواو، فحذفت تخفيفا على اللسان ألا ترى أن الواو لا تظهرها هنا ، و يقولون : (إِي ها اللّهِ ذا) ، فأما قولهم (ذا) فزعم الخليل: انه المحلوف عليه كأنه قال (إِي وَاللّهِ لَلْأَمْرُ هذا) ، فحذف الأمر لكثرة استعمالهم هذا في كلامهم ،

---

1ـ الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين لعبد الرحمن ابن محمد بن أبي سعيد الأنباري تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة التجارية بمصر : ج 1/ 409.

2ـ الأصول في النحو ج 1/ 432 .

3ـ الأدوات المقيدة للتنبيه ص : 60 و 25 .

4ـ الكتاب ج 3 / 500 والأصول في النحو ج 1/ 432 .

وقُدِّمَ (ها) كما قَدَّم قوم ( هاهو ذا وها أنذا ) ، قال زهير :

تَعَلَّمَنْ ها لعمر الله ذا قسما — فَاقْصِدْ بِذَرْعِكَ وَانْظُرْ أَيْنَ تنسلك (1)

هذا رأى البصريين كما يمثلهم سيبويه وابن السراج، وكذلك يقول بهذا الرأي ابن هشام ، أما الكوفيون فقد جوزوا الخفض بالحرف المضمر ، من غير عوض ، ولقد استعرض ابن الأنباري حجج الفريقين ورجّح رأي البصريين (2) ، ويظهر لي في هذه المسالة رأي : وهو أنّه من الناحية الصوتية نجد "الهاء" و"الهمزة" كليهما حرفاً حلقياً ، إلا أنّ "الهاء" مهموسة، و"الهمزة" مجهورة ، و"الهمزة" تفيد النداء والتنبيه ، وقد يقسم بها " والهاء" تفيد أيضا التنبيه وقد يقسم بها ". (3)

واتحاد الهاء مع الهمزة في المخرج سهل النطق بهما متتاليتين : (هأ...) ولذلك اجتمعتا في القسم كما في قولنا "هاالله " إذ لهذه الصّيغة أربع حالات : (4)

1ـ قطع الهمزة وإثبات ألف هـا .

2ـ قطع الهمزة وعدم إثبات ألف هـا .

3ـ وصل الهمزة وإثبات ألف هـا .

4ـ وصل الهمزة وعدم إثبات ألف هـا .

ولقد مرّ بنا أن الهاء للتنبيه، والقسم لا يخلو من تنبيه ، قال الشيخ خالد الأزهري : "وقد تحذف واو القسم في قولنا (لاهاالله ذا) أصله لا والله ، فحذف الواو وعوض عنه (ها) التنبيه" (لأن القسم باب مبالغة وتأكيد، وفي "ها" التنبيه أيضا مبالغة وتأكيد) فصلح أن يستعمل (ها) التنبيه مقام حرف القسم" (5) ، واضح من الأمثلة السابقة أن كلا من الهمزة والهاء لا تثبتان مع الواو ومما يدل على أنهما عوض منهما ، أما اجتماعهما في القسم فجائز كما في حال قولنا "هاالله" وإذا علمنا أن

---

1ـ الأصول في النحو ج 1/ 243 وذكر أنه في الكتاب ج 2/ 145 والديوان ص 175 ، ولقد صححت النّص من الطبعات المعتمدة ، ج 3/ 499-500

2ـ الإنصاف في مسائل الخلاف ج 1/ 393 ـ 399 .

3ـ لسان العرب م 3 ص : 757 ـ 758 .

4ـ المغني ج 1/ 386 .

5ـ الأدوات المغيدة للتنبيه : ص / 173 .

الإبدال كثير بين الهاء والهمزة في كلام العرب ، يقول الزمخشري : " ويحذفون الألف من أما فيقولون أم والله وفي كلام هجرس بن كليب : أم وسيفي ورزيه ورمحي ونصليه ، وفرسي وأذنيه ، لا يدع الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه ، ويبدل بعضهم من همزته هاء فيقول هما والله وهم والله وبعضهم عينا،فيقول عما والله وعم والله »[1]، أمكننا أن نقول أن الواو قد عوضت كلا من الهمزة والهاء في القسم .

وانطلاقاً من أن اللغة تخضع لعملية التطور قصد الإيفاء بحاجات المجتمع، سواء في دلالات ألفاظها أو في طرق إنشاء أساليبها وتنوعها، نقول إنّ للباحثين في هذا المجال آراء مختلفة،منها ما أورده الدكتور حسن ظاظا: من أن المقاطع اللّغوية الأولى أصوات ملحنة تهدف إلى غرض كلي جماعي هو توقيت الجهد العضلي للجماعة المتعاونة وتنسيقه على إيقاع صوتي معين ، ثم جاء بعد ذلك الدور التحليلي وهو تسمية الأشياء بأسمائها ، وكان على صورة جمل كاملة الألفاظ لأن الفكر الإنساني لم يبدأ بإدراك المفردات مجردة بل موضوعة في ملابسات لاحظها فعبر عنها" (2) .

ومنها ما ذكره الدكتور حسام سعيد النعيمي من النظريات ،وخرج منه بالنتيجة التالية : وهي أن الإنسان بدأ بمحاكاة الأصوات الطبيعية أول الأمر وكانت تلك بداية انتباهه إلى استعمال جهازه الصوتي ... ثم حاول أن يطور إستفادته من جهازه الصوتي ليعبر عن أمور الحياة الأخرى التي لا علاقة لها بالأصوات الطبيعية بحسب تجدد حاجته إلى التعبير ونمو قدراته العقلية بما استجد عنده من تجارب (3) .

ولا يمكننا أن نخوض في هذا المجال ،والذي يهمنا من خلال تأملنا أحرف القسم وخاصة منها (الهاء والهمزة) ، لاتحادهما في المخرج ،

---

1ـ المفصل في علم العربية ص : 309 ، وينظر كتاب الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني د. حسام سعيد النعيمي ط/ 1980 دار الرشيد للنشر ص/ 117

2ـ كلام العرب من قضايا اللغة العربية د. حسن ظاظا ط/ 1976 دار النهضة العربية بيروت ص/ 41 .

3ـ ينظر الدراسات اللهجية والصوتية ص: / 272 ـ 273 .

ولدلالتهما على التعجب والإشارة والتنبيه ، وهما أقرب إلى الأصوات الطبيعية، ونحن نلحظ ذلك عند الأطفال في سن معينة ، هو أن هذين الحرفين (الهاء والهمزة ) قد استعملا في الدلالة على عدة معان كالتعجب والإشارة والقسم و ... في فترة من فترات تطور اللغة قبل أن يخصص لكل أسلوب صيغة معينة،وعلى هذا الأساس يمكننا تصور المراحل التي مر بها أسلوب القسم كمايلي :

المرحلة الأولى : المرحلة العادية البسيطة التي تناسب بساطة المجتمع،لم تكن اللغة قد اكتملت واتسعت بعد ، بحيث لم يكن لكل أسلوب صيغة خاصة به، نجد في هذه المرحلة أن عدة أساليب كالقسم والاستفهام والتعجب والنداء وغيرها ، تكاد تشترك في أدوات معينة كالهاء والهمزة والتاء واللام ، لاشتراك هذه الأدوات جميعا في الدلالة على التعجب والتنبيه والتوكيد والمبالغة ...

وتجدر الإشارة إلى أن التعبير عن تلك المعاني كان مرفوقا بالإشارة باليد أو بالوجه أو بالعينين ، وربما كان استعمال الإشارة باليد إلى عنصرنا هذا من بقايا تلك المرحلة،التي لم تكن اللغة فيها قد اكتملت وأوفت بالقصد المراد ،ولا زالت الإشارة تستعمل في القسم إلى هذا العصر بحيث يطلب من المُقْسِم رفع اليد اليمنى أثناء تأدية القسم .

المرحلة الثانية : مرحلة التخصص والميل نحو التوسع واستقلال الأساليب بعضها عن بعض شيئا فشيئا، بحيث خصصت (الواو للقسم ) كما خصصت التاء للإشارة ) والهمزة للاستفهام والنداء ... .

وأما رأي النحاة بأن الواو نائبة عن الأفعال في القسم فباعتبارها آلة إليه أسلوب القسم في مرحلة النّضج والاكتمال اللغويّين، حسب رأيي، كما أن جعلهم صدر جملة القسم المفتتح بالواو مركبا فعليا محذوف الفعل يمكن أن يكون حِفاظاً على أطراد القاعدة النحوية فقط .

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة النضج والاستقرار التي يعتمدها الدارسون في دراساتهم اللغة وأساليبها التي وصلتنا مضبوطة دقيقة ، وما دمنا بصدد دراسة أساليب القسم ، نقول : في هذه المرحلة خصصت أفعال خاصة بالقسم ، كأقسم وحلف وآلى ، ولوضوح دلالة الفعل أقسم على القطع والوحدة أكثر من الفعل (حلف) سمي به أسلوب القسم .

ولما كان نظام التراكيب اللغوية في هذه المرحلة التي هي مرحلة النضج والاكتمال كما سبق ، قد اقتضى بأن تخضع هذه التراكيب إلى العملية الإسنادية المكونة أساسًا من ( المسند والمسند إليه والفضلة ) أو من المسند إليه والمسند والفضلة ) بحيث يمكننا أن نقسم الجملة التالية إلى أربعة أجزاء : "كتب الطالب بالقلم الدرس" :

أ ـ فعل وهو (كتب) .

ب ـ فاعل وهو (الطالب) .

ج ـ مكتوب به وهو (القلم) .

د ـ ما وقع عليه الفعل وهو (الدرس) .

فكذلك الشأن في أسلوب القسم ، من ذلك قولنا (أقسم الطالب بالله على الاجتهاد ) يمكن تقسيمه إلى أربعة أجزاء :

أ ـ فعل وهو (أقسم) ،

ب ـ فاعل وهو (الطالب) ،

ج ـ مقسم به وهو (الله) *

د ـ ما وقع عليه القسم أو أقسم عليه وهو (الاجتهاد) .

ومن هنا أخذت الصيغة القسمية الاسم الخاص بصدر جملة القسم وهو (المقسم به) والاسم الخاص بعجز جملة القسم وهو ( المقسم عليه ) هكذا : أسلوب القسم = المقسم به + المقسم عليه .

---

* إن الباء الجارة للمقسم به ليست كباء التعدية في الأفعال الأخرى ، وسوف نرى ذلك في الفصل الرابع .

والذي نلاحظه هنا هوأن الصيغة القسمية هي تركيب خبري كسائر التراكيب الخبرية الأخرى، سواء كانت فعلية كما رأينا أواسمية ، كما في قولنا (في ذمتي عهد على الاجتهاد) مما يبعث على الظن أن التراكيب الخبرية هي الأصل وذلك لاحتمالها الصدق والكذب اللذين لا يخلو منهما الخبر أساسا .

ثم ازدادت الصّيغة القسمية في هذه المرحلة تخصصًا وتميزًا عن بقية التراكيب اللغوية الأخرى ، فاختفى متعلق الفعل (على مجرورها) ليعوض به تركيب فعلي ذو علاقة إسنادية مستقلة عن صدر جملة القسم ويكون في الغالب فعلا مضارعًا مصدرا باللام ومختوما بالنون الدالة على التوكيد، وباختفاء متعلق الفعل هذا ، واستقلال شِقَّيْ القسم أحدهما عن الآخر انتقلت الصيغة القسمية من كونها تركيبا خبريا ذا علاقة إسنادية واحدة إلى تركيبين مختلفين أولهما: إنشائي وهو صدر جملة القسم، وثانيهما خبري وهو عجز جملة القسم ، لكل منهما علاقة إسنادية مستقلة، ولعل استقلال شِقَّيْ أسلوب القسم هو السبب في كون جملة جواب القسم لا محلّ لها من الإعراب .

ومما يؤيد ذلك أن متعلق الفعل لا يزال يظهر عند حكاية القسم في مثل قولنا (أقسم فلان بالله على الاجتهاد في العمل ) حيث تعود إلى ما كانت عليه من قبل (أي إلى علاقة إسنادية واحدة ) ولو أردنا القسم لقلنا: "أقسم بالله لأجتهدن في العمل " مثلا .

وينبغي أن نشير إلى أن تصور المراحل الثلاثة السابقة لتطور أسلوب القسم كان الاعتماد فيه على ما وصلنا من النصوص المنقولة عن العرب كالشعر، وما جاء في القرآن الكريم لكونه يمثل مرحلة النضج اللغوي واكتمال أساليب اللغة .

وقد جاءت أغلب أساليب القسم فيه بالواو، والفعل، وقليل منها بالتاء ، وليس من المعقول في تعاقب المراحل الثلاثة السابقة أن يختفي فجأة كل ما كان مستعملا في مرحلة معينة ليحل محله ما جاء في المرحلة الموالية ، إذ إن طبيعة التطور والتغيير تقتضي أن يكون ذلك شيئا فشيئًا، كما أن المصادر التي تتحدث عن تطور اللغة من حيث الألفاظ والصيغ والأساليب، غير متوفرة أمام الباحثين

في هذا المجال ، غير أن هذا لا يمنع الباحث من إبداء رأيه على ضوء ما توفر له من المصادر والمراجع .

كما أن هذه المرحلة الثالثة شهدت توسعا في الاستعمال، فصاروا يضمرون الفعل ويُبقون على الحرف كما في قولنا (بالله لأجتهدن) وربما أجروا أفعالا أخرى مجرى القسم مثل (جرم وعلم وظن ...) .

كما قد يحذف الحرف ويبقى المقسم به إما منصوبا على تقدير الفعل المحذوف، وإما مجرورا على تقدير حرف الجر (الواو) المحذوف، من ذلك قول الشاعر :(1)

ألا رُبَّ مِنْ قلبي له اللّهَ ناصِحٌ ـــ وَمَنْ قلبُهُ لي في الظباءِ السَّوانح

وكأن التقدير هو (أقسم باللّه أو أحلف باللّه)، فحُذف الجارّ وبَقِيَ اسم اللّه منصوبًا لمّا أوصل إليه الفعل مباشرة أي (أقسم اللّهَ) ثم حذف الفعل وبقي المقسم به منصوبا ، أو أن المقسم به مجرور بحرف الجر المضمر .

وإذا رجحنا رأي البصريين السابق في أن حرف الجر لا يعمل الجر محذوفا بدون عوض ، جاز لنا أن نقول هنا : أن انتصاب المقسم به كان بسبب تقدير الفعل المحذوف مباشرة ، دون اللجوء إلى ما فيه تعقيد في التأويل ..

رأينا إلى حد الآن صدر جملة القسم حين يكون مركبا فعليا ، ثم رأينا الحروف النائبة عن الأفعال، المشهور منها والنادر .

أما حين يكون صدر الجملة القسم مركبا إسميا مكونا من مبتدأ وخبر، فإنه تعتريه ثلاث حالات إعرابية هي :

أ ـ حذف الخبر وجوبا : وذلك عندما يكون لفظ المبتدأ نصا في القسم بحيث يغلب إستعماله في القسم ، فيدرك السامع أنه قسم قبل أن يسمع المقسم عليه من ذلك مثلا : "لعمر الله ، لأمانة الله ، لأيم الله ، لأيمن الله *"

---

1 ـ ديوان ذي الرمة ط/ 1919 نشر كمبريج ، طبع بيروت ص 664 .

* ـ فيها أكثر من عشر لغات : أَيْمن ولِيمُن ولِيمُ وأَيْمُ وأَمُ ومَ ومِ ولَيْمُنْ ومُنْ ومِنْ ومُنْ ومعناها جمع يمين ، أو أنها إسم مفرد من اليمين ، ينظر في ذلك كتاب الأنصاف في مسائل الخلاف ج 1/ 419 وكتاب المغني ج 1/ 106 .

والجواب مقدر ( قسمي ) أو ( المقسم به )، وهناك سبب آخر يحتم أن يكون المحذوف هو الخبر، هو وجود لام الابتداء في أول كل اسم، لأن الغالب عليها أن تدخل على المبتدأ الذي لَهُ الصدارة في الجملة الاسمية أصلا (1).

ب- حذف المبتدأ وجوبا: وذلك عندما يكون الخبر صريحا في القسم، وصراحته تتأتى من كونه معلوما لدى السامع أنه ( يمين ) من ذلك مثلا: ( في ذمتي بحياتي ) فيكون تقدير المبتدأ هو ( يمين أو عهد أو ميثاق )، وذلك لأن ألفاظ ( ذمتي، حياتي، رقبتي ) هي أساسا مما يتعلق به مضمون اليمين أو القسم، كما أن حذف المبتدأ واجب لأنه واجب التأخير بسبب تنكيره (2)

ج- حذف الخبر جوازًا: وذلك مع الألفاظ التي ليست خاصة بالقسم ولم تدخل عليها لام الابتداء، وذلك مثل: (عهد الله، وأمر الدين) بحيث يجوز ذكر الخبر وحذفه، ومثلها ألفاظ أخرى (كالشهادة والميثاق والوعد وما إلى ذلك ...).

وفي الحالات الثلاث: جاء صدر جملة القسم مركبا إسميا مكونا من (مبتدأ وخبر) وهو أسلوب خبري يفيد الإنشاء، وضمن معنى القسم كما يجدر بنا أن نضيف هنا، أن صدر جملة القسم يحتمل أن يكون مركبا اسميا أو فعليا وذلك حسب التقدير الذي يؤول إليه من ذلك قول أمرئ القيس (3)

فقلت يمينُ الله أبرح قاعدًا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي.

فيرفع (يمينُ الله) على الابتداء والخبر محذوفٌ جوازًا، وقد يُنصب على حذف فعل القسم ..

---

1- النحو الوافي ج 1/ 519 وما بعدها .

2- المرجع السابق ج 1/ 513 بتصرف .

3- ديوان أمرئ القيس ص: 141. وقد حذفت (لا) النافية من جواب القسم لكونه مضارعا منفيا .

يمكننا الآن أن نمثل كلاًّ من تطور أساليب القسم ، وحالات صدر جملة القسم كما يلي :

المخطط رقم 1:

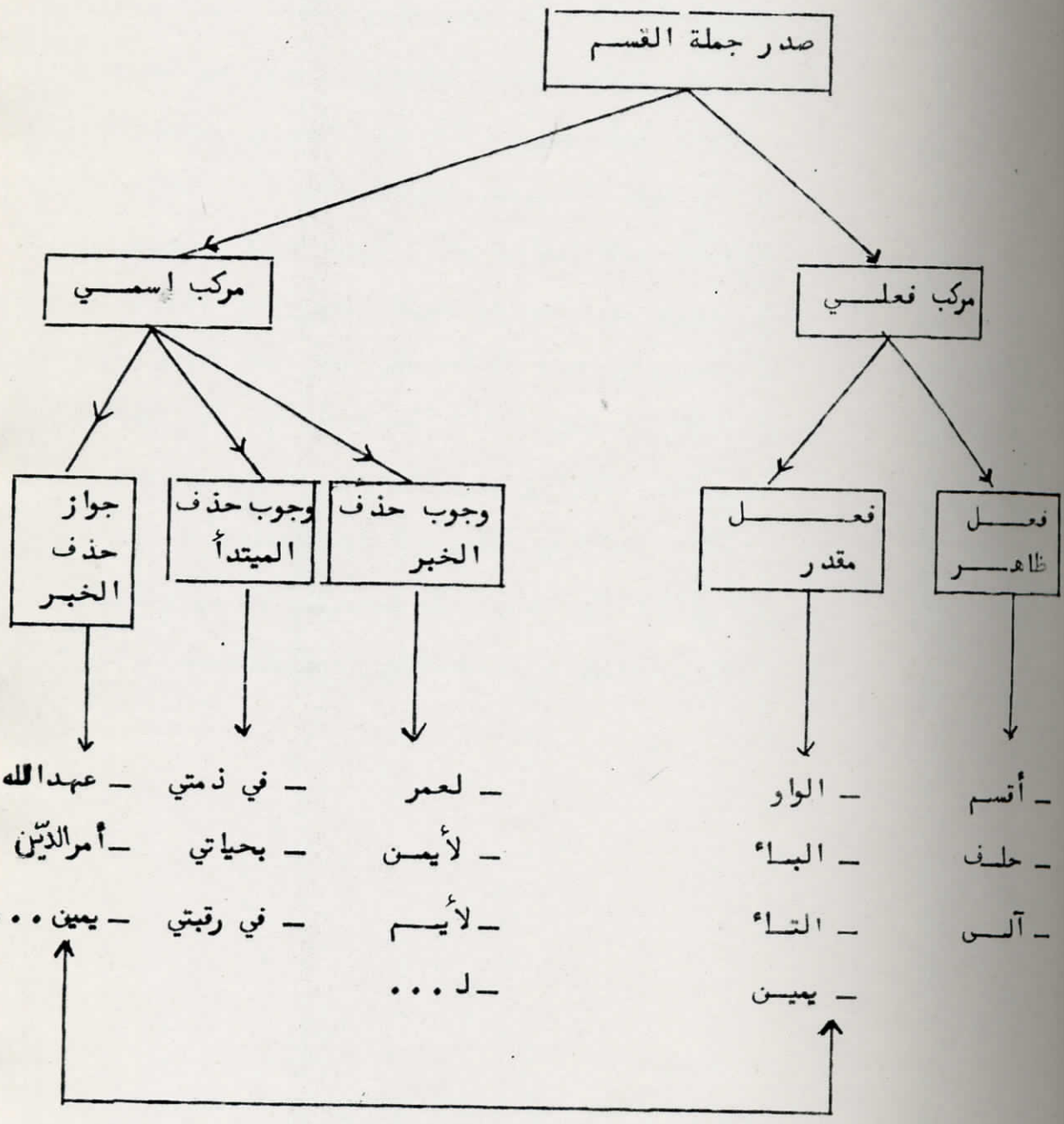
تطور صيغ القسم

1- مرحلة البساطة اللغوية
- اشتراك عدّة صيغ :
- التعجب ، النداء ، الإشارة ، القسم في :
- الهاء ، الهمزة ، اللام ، التاء .

2- مرحلة التمييز والتخصيص
- تخصيص الواو للقسم
- (التقليل من استعمال هـ ، أ ، ل ) في القسم .
- الابقاء على التاء في القسم .

3- مرحلة الارتقاء والتوسع
- الإبقاء على الواو (اختفاء ، هـ ، أ ، ل)
- التقليل من استعمال التاء .
- إحداث أساليب خبرية .
- إحداث أساليب إنشائية .
- التوسع في الاستعمال .

المخـــــطط رقم 2:



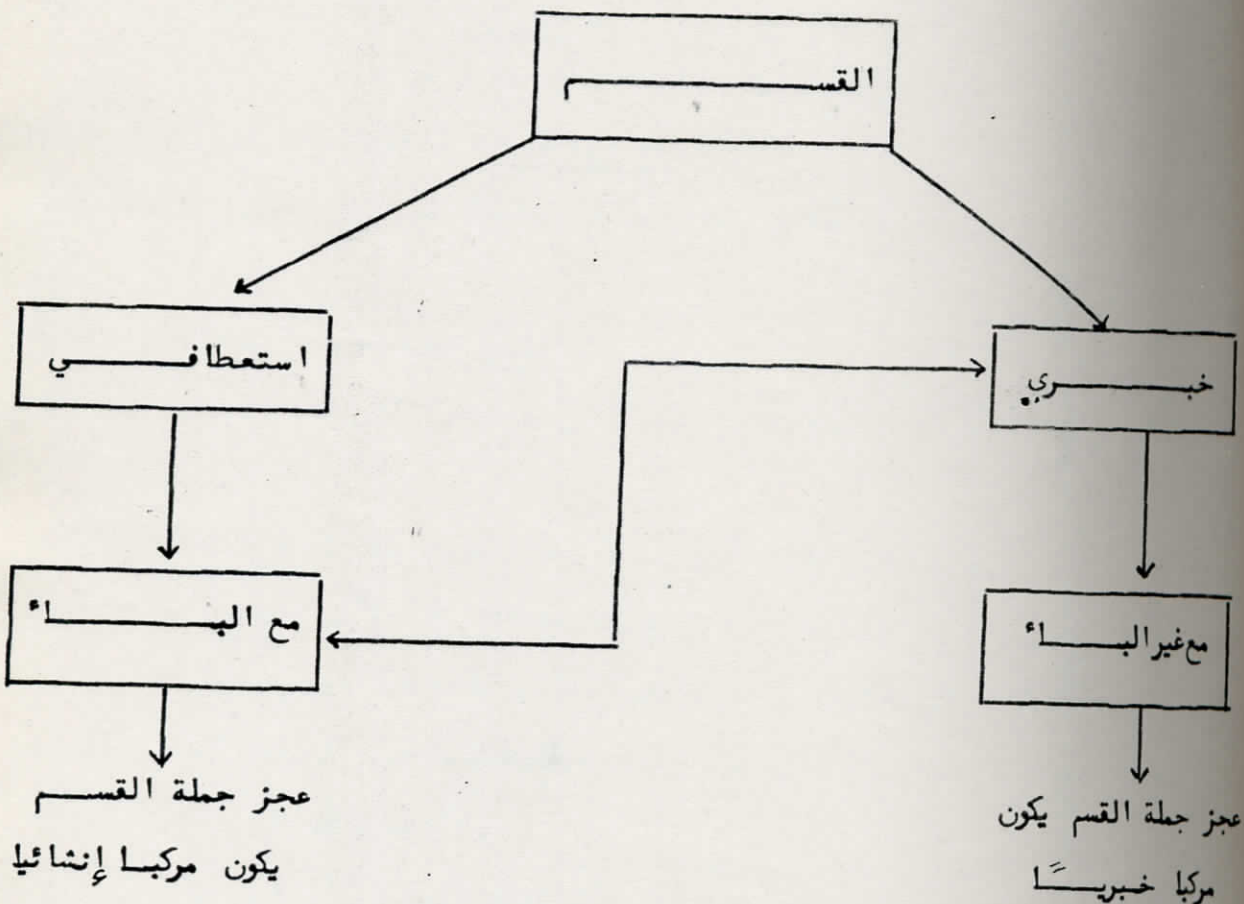
ب- عجز جملة القسم :

إذا كان الغرض من صدر القسم، هو توكيد المراد من جواب القسم نفياً أو إيجاباً ، وإزالة الشك لدى السامع أو نقله من حالة التردد إلى حالة اليقين ، فإنه يشترط في عجز جملة القسم أن يكون خبريا وذلك أن القسم إنشاء وفائدته توكيد الجملة الخبرية وتحقيقها عند السامع، وأن يكون غير تعجبي ويسمى القسم في هذه الحالة قسماً خبرياً ، لأنه هو الأصل في صيغة القسم ، وهذا ما جاءت عليه أغلب أساليب القسم عند العرب ، وهو الأصل الذي بني عليه النحاة تعريفهم بالقسم، بأنه جملة إنشائية جاءت لتوكيد جملة خبرية بعدها .

وقد يكون المراد من القسم، هو تحريك النفس وإثارة الشعور والإحساس بالعطف على المُقْسِم وفي هذه الحالة يكون عجز جملة القسم مركبا إنشائيا والغالب في مثل ذلك أن تكون الأداة المستعملة في القسم هي (الباء) نحو قولنا "بربك هل تصدقت على الفقراء" ويسمى القسم حينئذ استعطافيا أو غير خبري ، كما قد تستعمل الأداة (الباء) في القسم ولا يفيد الاستعطاف مثل قولنا : "بالله لأسافرن غدا" وذلك لأن الغرض منه ليس إثارة الشعور والعواطف.

يمكننا توضيح الفرق بين القسم الخبري و الاستعطافي بالمخطط التالي :

المخـــــطط رقـــم 3 :



## - ضوابط عجز جملة القسم -

حين يكون خبريا :

أ- مركب فعلي : فعله ماض : متصرف : مثبت مقترن باللام وقد ، نحو (والله لقد أفاد الاعتدال) أو بأحدهما أو يجرد عنهما .

- غير متصرف : الغالب اقترانه باللام فقط نحو (والله لنعم الخلق العفو) إلاّ الفعل "ليس" لا يقترن بشيء نحو (والله لست خجولا) .

- غير مثبت : يزاد عليه أحد حروف النفي وهي (ما ، ولا وإنْ) مثل (والله ما مدحت أثيما )*.

ب) فعله مضارع : مثبت : فالغالب اقترانه باللام ونون التوكيد معا نحو (والله لأبذلنّ مجهودا في مزاولة الدراسة) ويمكن الاقتصار على أحدهما .

- منفي : يزاد عليه أحد الأحرف الثلاثة النافية وهي : (ما ، لا ، إنْ) نحو (والله لأكلّ من تعب الدراسة) ، وقد يضاف إليها الحرف (لَنْ) .

وقد يقدر حرف النفي "لا" مع المضارع كما في قوله تعالى "تالله تفتأ تذكر يوسف (1) والتقدير (لا تفتأ وإنما حذفت "لا" لأمن اللبس ، وذلك أن المضارع المثبت وجب تأكيده باللام والنون معا أو بأحدهما ، وعدم توكيده دليل على أنه منفي بأداة مقدرة وكما في قول الشاعر: آليتَ حَبَّ العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس (2)

---

*تلغى "لا" من بين أخواتها فتقول والله أقوم إليك أبدًا تريد لا أقوم فإذا قلت والله لا قمت إليك أبدًا ، تريد أقوم جاز ولن أردت المضي كان خطأ .

1- سورة يوسف / 85 .

2- المغني ج 1/ 103 .

وأما تقديرها قبل الماض فلإفادة الاستقبال نحو قول الشاعر:

فإن شئتِ آليتُ بين المقام ـ والركن والحجر الأسود
نسيتكِ ما دام عقلي معي ـ أُمَدُّ به أمد السرمد (1)

فيكون التقدير: "لا أنساك"

ب ـ مركب اسمي:

1ـ مثبت: فالأحسن اقترانه بحرفين معا هما: إنَّ ولام الابتداء في خبرها نحو (واللَّه إنَّ الغدر لأقبح الطِّباع) ويجوز الاقتصار على أحدهما ويمكن التجرد منهما إذا طال الكلام وفصل بين المقسم به والمقسم عليه بكلام كثير. وإذا صدر المركب الاسمي بناسخ من أخوات (إنّ) فلا داعي لاقترانه بأن مثل قولنا: (والله لكأن الجهل ظلام).

وقولنا: (والله لكأن الحق نور ساطع).

2ـ منفي: لم يزد عليه إلا أداة النفي (ما) أو (لا) أو (إنْ) مثل قولنا (والله إنْ هذه الدنيا بدار قرار).

## علاقة الاستثناء المفرغ بالقسم*

من أساليب اللغة الشائعة في الاستعمال: هناك أسلوب قسمي ظاهره مثبت، ومعناه منفي، وجوابه مركب فعلي ماض لفظا ومستقبل معنى مصدر بإلا نحو (سألتك بالله إلاَّ نصرت المظلوم).

وقد يصدر الجواب بـ (لَمَّا) وهي التي تماثل (إلاَّ) في الحرفية والدلالة على الاستثناء يقول ابن هشام في معنى (لما): "أن تكون حرف استثناء فتدخل على الجملة الاسمية نحو (إنْ كُلُّ نفس لَمَّا عليها حافظ) فيمن شدد الميم، وعلى الماضي لفظا لا معنى نحو (أنشدك الله لما فعلت) أي ما أسالك إلاَّ فعلك" (2)

وذلك تطبيقا لما تقرر من أن الماضي الذي يليها يكون ماضيا في لفظه مستقبلا في معناه. (3)

---

1ـ المغني ج 2 / 709.

* سمي مفرغاً لأن ما قبل إلا تفرغ للعمل الإعرابي فيما بعدها ولم يشتغل بالعمل في غيره وهذا رأي أغلب النحاة فيه.

2ـ المغني ج 1/ 311-312

3ـ النحو الوافي ج 2/ 327.

قد يقع القسم في السياق الكلامي بين أداتي نفي كقولنا: (لا والله لا أنسى فضل أصدقائي علي) ودلالة القسم في هذه الحالة تأكيد الجواب المنفي وقد تتكرر أداة القسم ومعها مجرورها مبالغة في التأكيد بعد استيفاء الجملة الأولى جوابها نحو (بالله لأطيعن الوالدين ، والله لأطيعنهما) وهذه الثانية توكيد لفظي للأولى .

ظاهرة الحذف في القسم :

ظاهرة الحذف شائعة في اللغة العربية : وذلك أن العرب اعتمدت الحذف من الألفاظ في الكلام ، حسب ما يتفق مع طبيعة اللغة وما لا يتنافى مع الفطرة اللغوية السليمة ، حيث يُمكن الوقوف عليه ومعرفته ، ولعل نزعة العرب إلى الحرية، تلك النزعة التي ترتبط بطبيعة البيئة التي عاشوا فيها، هي التي جعلتهم ينزعون إلى هذه الظاهرة ، فتصرفوا في لغتهم تصرفا واسعا من تقديم وتأخير وحذف وإثبات ،

لذلك كانت جميع الأساليب اللغوية عندهم صعبة الانضباط وربما حملت الدارس إلى اللجوء الى التأويلات الكثيرة .

ولعل هذا ما جعل علماء اللغة والبلاغة يفتشون عن علل وأسباب الحذف والتقديم والتأخير، للوقوف على دلالتها البلاغية عبر الأساليب المختلفة ، كما جعل علماء النحو يختلفون في تخريجاتهم الإعرابية ، وربّما كان عندهم في المواطن التي يؤمن فيها اللبس، وهذا النوع هو المشهور، وربما حذفوا الشيء إذا علم وشهر موقعه ، بحيث لم يبالوا إذا أسقطوه ، يقول الزمخشري "فلأنّ الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوفاً ومأنوسا به لم يبال بإسقاطه عند اللفظ استغناء"(1) .

وما دمنا بصدد دراسة ضوابط التراكيب القسمية فسنركز هنا على الجوانب النحوية لظاهرة الحذف المتعلقة بظاهرة صياغة التراكيب اللغوية ، على أن نرجئ الجوانب الدلالية للحذف إلى الفصل الثاني، عند الحديث عن دلالات كل من المقسم به والمقسم عليه .

نقول هنا : إن التركيب القسمي يعتريه الحذف، سواء في صدر جملة القسم أو في عجزها ، فأمّا ما يعتري صدر جملة القسم فيتمثل في حذف الفعل وجوبًا

1- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د .محمد حمد أبو موسى ط2/ 1988 دار التضامن القاهرة ص : 404 .

إذا كانت الأداة هي الواو، أو الباء في القسم الاستعطافي، أما مع البـــاء في غير القسم الاستعطافي فحذف الفعل جائز، كما يجوز أن تحذف أداة القسم وحدها مع بقاء الاسم المجرور بها على حاله بشرط أن يكون الاسم لفظ الجلالة (الله) وهذا رأي سيبويه وأغلب البصريين : مثل قولنا : "الله لأساعدنَّ الضَّعيف" كما يجوز أن يحذف الفعل والأداة، مع ( لقد ، لئن ، المضارع المبدوء باللام والمختوم بنون التوكيد الثقيلة أو الخفيفة ، كما في قوله تعالى "لأعذبنه عذابا شديدا" (1) وقوله "لئن أخرجوا لا يخرجون معهم" (2) وقوله "ولقد صدقكم الله وعده" (3) . وقد تحذف الأداة والمقسم به للعلم بهما لدى السامع كما في قولنا "أقسم أن الحق يعلو ولا يعلى عليه" .

وإذا كان صدر جملة القسم مركبا إسميا، فإن الخبر يحذف وجوبا كما في قولنا: «لعمر الله لأجتهدن» فالمحذوف هو الخبر وذلك لاتصال المبتدأ (لعمر) باللام المسماة لام الابتداء لأنها داخلة على المبتدأ ومن حقها الصَّدارة في الجملة أما في قولنا "يمين الله لأجتهدن" يجوز أن يقدر المحذوف مبتـــدأ كما يجوز أن يقدر خبرًا ، ويعلل ابن جني للحذف في الصُّورتين السَّابقتين بأن سببه طول الكلام بجواب القسم الذي صار عوضا من الخبر، وأصلهما لو خرج خبراهما : لعمرك ما أقسم به لأقومن ولأيمن الله ما أحلف به لأنطلقنَّ (4) أما عجز جملة القسم فكثيرًا ما يحذف مثل حذف جواب "لو" إذا دل عليه السياق وأمن اللَّبس وهناك حالات يحذف فيها عجز جملة القسم وجوبًا تجنبا للتكرار في الكلام، وهذه الحالات هي :

أ- إذا تأخر القسم وتقدمَ عليه ما يغني عن الجواب نحو «زيد قائم والله» .

ب- إذا اكتنفه ما يُغْنِي عن الجواب نحو «زيد واللهِ قائم» ، أما في نحو

---

1- سورة النمل / 21 .

2- سورة الحشر / 12 .

3- سورة ال عمران / 152 .

4- الخصائص ج 1/ 393 بتصرف .

(زيد والله إنّه قائم أو لقائم)، احتمل كون المتأخر عن القسم خبرًا عن المتقدم عليه واحتمل كونه جوابا ، وجملة القسم وجوابه الخبر»[1] ولعل السبب في احتمال كون المتأخر عن القسم جوابا له هو مجيئه مؤكدًا بإنّ واللام أو بأحدهما وهما مختصان بجواب القسم .

ج - إذا تأخر القسم عن الشرط يكون الجواب للشرط [2] .

لقد رأينا من خلال ما سبق أن اللغة العربية تتميز بظاهرة التوسع في الاستعمال، لذلك تعددت الأساليب من حيث بناها السطحية، ومنها أسلوب القسم فاستعملوا فيه الأفعال المشهورة لديهم لتأدية القسم ، كما استعملوا حروفا نائبة عن الأفعال وأجروا ألفاظا بعينها مجرى أفعال القسم أيضا، كما رأينا، أن أسلوب القسم يعتريه الكثير من الحذف سواء في صدر جملة القسم أو في عجزها ، والضابط الأساسي لظاهرة الحذف هو أن يقوم عليها دليل سواء كان هذا الدليل لفظيا أو معنويا .

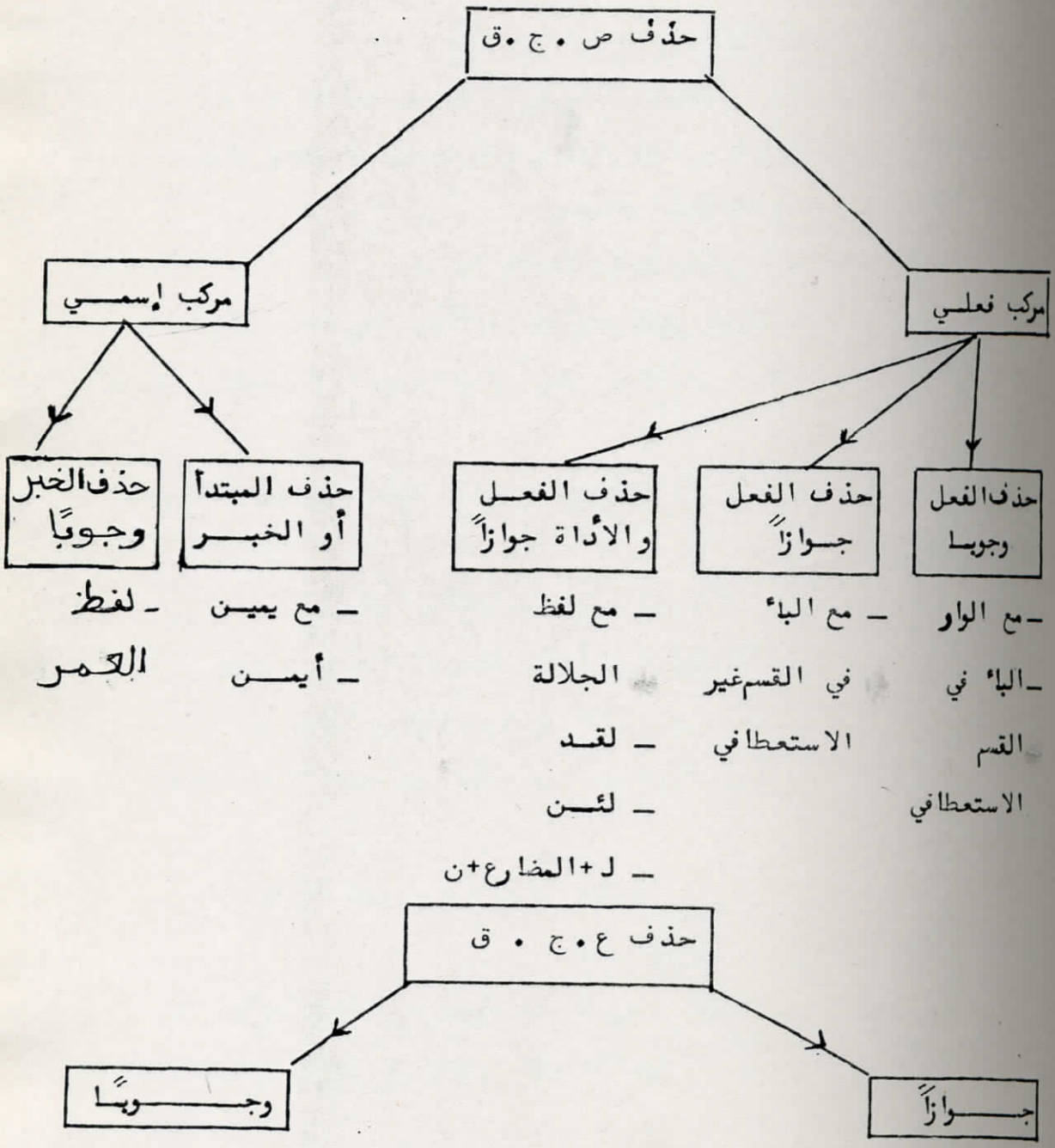
وفيما يلي توضيح لحالات الحذف بالمخطط التالي :

---

1- المغني ج 2/ 718 بتصرف .

2- سيبحث لاحقا عند الكلام عن اجتماع الشرط بالقسم .

المخـــــطط رقم 4 :




- إذا دل عليه السياق

في الحالات التالية :

1- أن يتأخر القسم و يتقدم ما يغني عن عن جوابه .

2- أن تحيط بالقسم جملة تغني عن الجـواب .

3- أن يتأخر القسم ويتقدم عليه الشرط

قد يلتقي القسم مع الشرط و يتداخلان ، فيحتاج الأسلوب الذي يتضمن شرطا و قسما إلى شيء من التفكير للتمييز بينهما و ترجيح أحدهما على الآخر ليكون الجوابُ المذكورُ له ، فما علاقة الشرط بالقسم ؟

علاقة الشرط بالقسم :

قد يتداخل الأسلوبان الشرطي و القسمي تداخلاً شديداً بحيث يصعب التفريق بينهما أحيانا و ذلك لعدة عوامل، منها ما يتصل بالبنية التركيبية لكل من الأسلوبين و منها ما يتصل بالمعنى .

فأما الذي يتصل بالبنية التركيبية فيمكن إجماله فيما يلي :

1- إنّ كلا من الأسلوبين يتطلب مركبين : الأول هو فعل الشرط و ما يتصل به أو فعل القسم و ما يتصل به، والثاني هو جواب الشرط و ما يتعلق به أو جواب القسم و ما يتعلق به .

2- قد يحذف كلٌّ من جواب الشرط و جواب القسم من حيث البنية التركيبية الظاهرة .

3- قد يحذف جواب أحدهما لحلول جواب الآخر مكانه .

4- قد تدخل أداة الشرط على أداة القسم في التركيب الواحد .

5- قد يأتي كل منهما معترضا الآخر في التركيب الواحد .

هذا من حيث البنية التركيبية السطحية لهما ، أما من حيث المعنى فيمكن أن نسجل مايلي :

1- إن كلا منهما يقوم مقام الجملة الواحدة من حيث الفائدة التي يؤديها إذ لا يكتمل معناه إلا بوجود الطرفين معا .

2- إن حذف أحد الطرفين في كلا الأسلوبين من حيث التركيب السطحي لا يستقيم إلا إذا وجد ما يدل على المحذوف و هذا ما يعرف بالقرينة اللفظية أو المعنوية التي تستفاد من السياق .

3- إن نيابة جواب أحدهما عن الآخر غالبا ما يحدد ها السياق الذي يرد فيه أسلوب الشرط أو القسم ، فإذا كان الاهتمام موجها إلى القسم فإن الجواب يكون له ، وأما إن كان موجها إلى الشرط فإن الجواب هو جواب الشرط.

ولعل هذا ما دعا جمهور النحاة إلى إقرار القاعدة التالية : " إذا اجتمع شرط وقسم فالغالب أن يكون الجواب للمتقدم منهما ، فيستغنى به عن جواب الآخر ... " غير أن هذه القاعدة لها بعض الاستثناءات سوف نراها فيما بعد .

4ـ "إختار أصحاب المعاني وأهل العربية أن الحكم هو الجزاء وحده والشرط قيد له حتى أن الجزاء إن كان خبرا فالشرطية خبرية ، وإن كان إنشاء فإنشائية" (1) .

وكذلك الأمر بالنسبة للقسم فإنه يشبه الشرط من هذه الجهة وخاصة عندما يكون القسم استعطافيا حيث يرد جوابه إنشائيا وأما إن كان الجزاء خبريًا وهو الأصل فإنَّهُ يشبه جواب القسم الذي هو خبري الأصل .

أمّا مواطن الاختلاف بينهما . فمنها :

1ـ الأصل في فعل الشرط وجزائه الجزم حسبما نطقت به العرب وجاءنا في النصوص الفصيحة إلا إذا كان الجواب غير قابل لظهور علامة الجزم عليه فيكون في محل جزم ، أما جواب القسم فلا يكون له محل من الإعراب ، وذلك لأن صدر جملة القسم إنشائي وعجزها خبري وليس الثاني معمولا لشيء من الأول كما هي الحال في أسلوب الشرط، وإنما الأول جيء به فقط لتوكيد الثاني ، ويمكن الاستغناء عنه ولا يفقد الثاني معناه الأصلي ، غير أن ظاهرة التوكيد تزول ، إلا أن القسم وجوابه قد يكون لهما محل من الإعراب كما هي الحال في الشرط والجزاء ، وسوف نتعرض لذلك ...

2ـ الحكم في الأسلوب الشرطي تتضمنه النسبة التعليقية التامة ، وهذا الحكم هو الجزاء ، والشرط قيد له ، فإذا انتفى القيد ، انتفى الحكم ، أما في الأسلوب القسمي فليس هناك حكم يتضمنه جواب القسم مقيد بفعل القسم مثلا ، وإنما صدر القسم أفاد التوكيد والمبالغة فقط ، وانتفاؤهما لا ينفي مضمون جملة الجواب ، فالعلاقة إذن توكيدية ، لأن جملة القسم من شأنها توكيد جواب القسم

---

1ـ البحث النحوي عند الأصوليين ص : 281 .

ولعلّ ابن جني كان صائبا عندما قال: "يجوز أن يسمى الشرط يمينا لأن كل واحد منهما مذكور لما بعده، هو جملة مَضْمُومة إلى أخرى، وقد جرت الجملتان مجرى الجملة الواحدة، فمن هنا يجوز أن يسمى الشرط يمينا. ألا ترى كل واحد منها مذكور لما بعده". (1)

يتضح من هذا النص أن ابن جني ينظر إلى الأساليب اللغوية من خلال الدلالات التي تؤديها في السياق اللغوى، والمعاني التي أفادتها في الاستعمالات الفصيحة، شأنه في ذلك شأن سيبويه الذي اعتمد في تعليلاته على طرق الاستعمالات اللغوية عند العرب، ولم ينظر ابن جني ولا سيبويه الى أساليب اللغة نظرة منفردة عن السياق أو النص، وإنّما الذين فعلوا ذلك هم جل النحاة الذين جاؤوا بعدهما، حيث أقاموا دراساتهم النحوية في الغالب على الأساليب منفردة عن النصوص ومن هنا توسعت الدراسات النحوية حتى غدت مقصودة لذاتها في أحيان كثيرة، ولقد شعر البلاغيون والمفسرون بهذا الانحراف، وحاولوا العودة إلى النصوص لفهم الأساليب والصيغ، ومنهم الامام الزمخشري الذى عولت على كشافه كثيرا في الوقوف على الدلالات التي يؤديها أسلوب القسم، وكذلك عبد القاهر الجرجاني الذي يعد بحق صاحب نظرة صائبة إلى اللغة العربية تنمّ عن ذوق سليم وإدراك عميق لخصائص الأسلوب العربي، لذلك رأى أن العبرة في النظم وتآلف الألفاظ إلى جانب بعضها، لأحداث المعاني، وهذا التآلف في الظاهر بين الألفاظ إنما هو في الحقيقة حسب ترتيب الأفكار في الذهن. (2)

لذلك فإن إبن جني عندما رأى بأن الشرط يمكن تسميته (يمينا) فإنه قد نظر إليه من جهة المعنى الذي يؤديه في السياق، وقوله: (كل واحد منها مذكور لما بعده وهو جملة مضمومة الى أخرى) إنما يعني أن الفائدة في كل من الشرط والقسم لا تتم إلا إذا ذكر الجزء المتم للشرط الذي هو الجزاء، والجزء المتم للقسم الذى هو الجواب، لأن المعنى القائم

---

1- البرهان في علوم القرآن ج 2/ 374 نقلا عن كتاب (القد) لابن جني.

2- ينظر في ذلك أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص: (2) وما بعدها وسوف تبسط آراؤه في الفصل الثاني من هذا البحث.

في ذهن المتكلم منصرف إلى إتمام الفائدة واستيفاء القصد من الكلام، وهذا لا يتحقق إلا بذكر جواب كل منهما، لذلك قال ابن جني نفسه "فإن قلت شارطا، (إن قام زيد) فزدت عليه (إنْ) رجع بالزيادة إلي النقصان، فصار قولا لا كلاما، ألا تراه ناقصاً ومنتظرا للتمام .. بجواب الشرط، ولذلك لو قلت في حكاية القسم: حلفت بالله، أي كان قسمي هذا لكان كلاما، لكونه مستقلا، ولو أردت به صريح القسم لكان قولا من حيث كان ناقصا لاحتياجه إلى جوابه، فهذا ونحوه من البيان ما تراه" (1) ولقد سبق أن ذكر هذا النص للتفريق بين القول والكلام* وإنما أعيد هنا لإثبات المشابهة بين الأسلوبين الشرطي والقسمي من حيث احتياج كل منهما إلى جواب لاستيفاء الفائدة كما سبق.

أما قوله (يجوز أن يسمى الشرط يمينا) فانه يرى اليمين من القوة وعلى هذا فسر قول الله تعالى "مما عملت أيد ينا" (2) حيث قال «الأيدي هنا جمع اليد التي هي القوة فكأنه قال: مما عملته قوانا: أي القوى التي أعطيناها الأشياء ... ونحوه، قولهم في القسم لعمر الله إنما هو حياة الله أي والحياة التي آتانيها الله، لا أن القديم سبحانه محل للحياة كسائر الحيوانات. (3)

والقسم الذي هو اليمين يفيد معنى القوة، هذه القوة التي تمنح المعنى توكيدا وتزيده مبالغة وتحقيقا؛ وهذا ما نلمحه أيضا في أسلوب الشرط فلو مثلنا لذلك بجملة بسيطة هكذا: (المجتهد يفوز في الامتحان) فهذه الجملة مكونة من مبتدأ وخبر أي (مسند إليه ومسند) هما: المجتهد والفوز، وأدت معنى يقوم في ذهن المستمع وهو اتصاف المجتهد بالفوز، وهذا المعنى المنقول إلى الذهن خال من أي وسيلة من وسائل التأكيد فإذا أردنا أن ننقل هذا المعنى من صورته البسيطة الأولية لنؤكده مثلا قلنا: (والله المجتهد يفوز في الامتحان) جئنا بالمركب الفعلي (والله )

---

1- الخصائص ج 1 / 19 .

* الصفحة 13 من هذا الفصل .

2- سورة يس / 71 .

3- الخصائص الجزء الثالث ص : 248.

الذي هو صدر جملة القسم لتأكيد مضمون العبارة فالمركب (والله ) إنما جيء به لغرض التوكيد ، فأعطى للعبارة (المجتهد يفوز في الامتحان) معنى زائداً هو تأكيد الفوز بالنسبة إلى المجتهد، وكأننا بذلك قلنا (والله المجتهد يفوز في الامتحان، وغير المجتهد لا يفوز ) وهذا الاختصاص والتقوية المُسْتَمَدّ إن من القسم غير ملحوظين في العبارة قبل القسم ، بل العكس هو الملحوظ أي (وغير المجتهد قد يفوز) .

أما صدر جملة القسم (والله) منفرداً لا يفيد معنى ولا يسمى كلاما كما يرى ابن جني اللهم إلّا إذا قصد منه حكاية القسم .

وكذلك إذا نقلنا العبارة السابقة إلى أسلوب شرطي وقلنا: (إن يجتهد يفز في الامتحان) أصبح الفوز مقيداً بالاجتهاد ،ولايتحقق إلا إذا تحقق الاجتهاد كما أنه إذا انتفى القيد الذي هو الاجتهاد ،انتفى المقيد الذي هو الفوز ، إذ إنّ الفوز مشروط ، وارتسمت من هذا الأسلوب الشرطي صورة في ذهن السامع تنفي أن يكون هناك فوز من غير إجتهاد ، وصح العطف على هذا الأسلوب بالنفي أي (وإن لم يجتهد لم يفز) وفي هذا معنى من معاني التوكيد والقوة ولَعَلّ هو المقصود بقول ابن جني السابق: ( يجوز أن يسمى الشرط يمينا ) لأنه يرى أن اليمين قوة كما سبق ذلك .

لهذه الأسباب تداخل الأسلوبان ،ودخلت أداة الشرط على أداة القسم وهذا ما نبينه من خلال دراسة الأمثلة التالية المأخوذة من الكلام الفصيح وتبيان حالاتها انطلاقا من القاعدة السابقة (إذا إجتمع شرط وقسم فإن الجواب للمتقدم منهما ) وهذه القاعدة غالبا ما تتحقق عندما يكون الشرط غير امتناعي أي عندما لا تكون أدواته دالة على الامتناع وهي (لو ، لولا ، لوما ) ،

وضوابط هذه الحالات هي :

1- إذا تأخر الشرط عن القسم كان الجواب للقسم مثل قولنا ( والله من يجتهد ينجحْ ) وأدلته من الكلام الفصيح قول الشاعر : (1)

لئن ساءني أنْ نِلْتَني بمساءة - لقد سَرَّني أنّي خَطَرتُ ببالكا

فاقتران الجواب (بلقد) دليل على أنه جواب القسم المتقدم الذي دلت عليه اللام في (لئن) هذه اللام المسماة اللام الموطئة للقسم ، ولو كان جوابا للشرط لما اقترن (بلقد)، وعليه فجواب الشرط محذوف وكذلك في قول الشاعر : (1)

لئن كنت محتاجا إلى الحلم إنني - إلى الجهل في بعض الأحايين أحوجُ

فالجملة الاسمية المصدرة بإنّ مما يتلقّى به القسم ، ولو كانت جوابا للشرط لاقترنت بالفاء .

2- إذا تقدم الشرطَ أو القسمَ ما يتطلب خبرًا كالمبتدأ فإنّ الجواب للشرط سواء كان هو المتقدم أو المتأخر عن القسم ، وأما جواب القسم فمحذوف ، في مثل هذه الحالة ، والجملتان من الشرط وجوابه ، والقسم وجوابه المحذوف في محل رفع خبر ، وذلك مثل قولنا : (العلم والله إن تتقنه تفز) أو (العلم إن تتقنه والله تفز) .

3- أما عند تقدم الشرط فالشائع أن يكون الجواب له ، وجواب القسم محذوف كقولنا : (من يراقب الله في أعماله والله يسعدْ) والشائع عند النحاة أن القسم قد لا يظهر في بعض الأحيان وإنما يستدلّ عليه من السياق ومن ذلك قوله تعالى "وإن أطعتموهم إنكم لمشركون" (2) فالجواب للقسم وليس الشرط ، وذلك على تقدير القسم المحذوف ، ولو كانت جوابا للشرط ، لاتصلت بها الفاء التي تصلح في مثل هذا الموضع للاتصال بجواب الشرط ، ومن النحاة من يجعله جوابا للشرط وقدر الفاء محذوفة كما في قول الشاعر : من يفعل الحسنات الله يشكرها - والشّر بالشر عند الله مثلان

---

1- النحو الوافي ج 4/ 486 .

2- سورة الأنعام / 121 .

وقد روي البيت: "من يفعل الخير فالرحمان يشكره" ولا شاهد فيه حينئذ وقد رده ابن هشام لأنه من ضرورات الشعر[1] ولا يمكن أن يقاس عليه القرآن.

وعليه: (إنكم لمشركون) جواب للقسم المقدر مقدما وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب القسم.

4- قد يتأخر القسم ويبقى الجواب له رغم تقدم الشرط عليه، وذلك عندما تسبقه الفاء كما في قولنا السابق "من يراقب الله في أعماله فوالله يسعد" فالفعل "يسعد" مرفوع وجملته هي جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم كلها في محل جزم جواب الشرط المتقدم.

ولعل السبب في ذلك هو أن هذه "الفاء" ملحوظ فيها نظيرتها الواقعة في جواب الشرط عندما يكون جملة اسمية وَمِنْ ثَمَّ كانت جملة القسم في محل جزم جواب الشرط مثل بقية الجمل التي ترتبط بالفاء عندما تكون جوابا للشرط، ونلاحظ أن كلا من الشرط والقسم استوفى جوابه، فجواب الشرط هو جملة القسم وأما جواب القسم فهو المركب الفعلي (يسعد) إذ ليس له ما ينازعه فيه. وكأن القاعدة السابقة لم تخالف إلا من جهة واحدة وهي الاكتفاء بجواب واحد.

وهناك حالات أخرى ورد فيها الجواب للشرط سواء كان متقدما أو متأخرًا فظاهرها مخالف للقاعدة المعروفة، واستدل على ذلك من الكلام الفصيح بقول الشاعر: (2)

لئن مُنِيتَ بنا عن غِبِّ معركة ـــ لا تُلْفِنَا عن دماء القوم ننتفل

وقول الآخر: (3)

لئن كان ما حُدِّثْتُهُ اليوم صادقًا ـــ أَصُمْ في نهار القيظ للشمس باديًا

ورود الفعلين (تلفنا وأصم) مجزومين دليل على أنهما جوابا الشرط،

والبصريون يحكمون على هذا وأمثاله بالشذوذ أو بزيادة اللام، وأنها ليست للقسم فلا تحتاج إلى جواب، والأحسن أن تبقى اللام للقسم، وجوابه

---

1- المغني ج 1/260، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ج 4/210 وذكر أنه من شواهد سيبويه.

2- أورد الأستاذ عباس حسن هذا البيت للاستشهاد على أن الجواب للشرط رغم تقدم القسم، النحو الوافي ج 4/87.

3- المغني ج 1/261 ولم يُسمّ قائل البيت.

هو أداة الشرط وما دخلت عليه من جملتيهما، وفي هذا الرأي تأويل لطيف بحيث يُبقي القاعدة سالمة ويُخرج الشاهدين السابقين من الشذوذ. (1)

أما صاحب المغني فيرى أن اللام زائدة وليست للقسم ومنه قول الشاعر:

لئن كانت الدنيا علي كما أرى — تباريح من ليلى فللموت أروح

لذلك أُجيبَ الشرط بالجملة المقرونة بالفاء، وفي الشاهدين السابقين بالفعلين المجزومين كما رأينا، فلو كانت اللام للتوطئة لم يُجب إلا القسم، وكذلك في قول الشاعر:

أَلَمِمْ بزينب إنَّ البَيْنَ قد أفدا — قَلَّ الثَّواءُ لئن كان الرحيل غدا

فجواب الشرط قد حذف مدلولا عليه (بما قبل إنْ) فلو كان ثم قسم مقدر للزم الإجحاف بحذف جوابين. (2)

يستخلص مما سبق أنه عند اجتماع شرط وقسم يُكتفي بجواب واحد يكون في الشائع للمتقدم منهما، أما المتأخر فإنَّ جوابه محذوف دل عليه أو سَدَّ مَسَدَّهُ الجواب المذكور.

غير أنه يعرض لهذه القاعدة ما يخالفها وهو حالتان:

الأولى: عندما يكون فيها القسم مبدوءا بالفاء فإنَّ الجواب يكون له، سواء تقدم أو تأخر كما مَرَّ في المثال السابق، حيث خولفت القاعدة من جهة الاكتفاء بجواب واحد، ولم تخالف من جهة أن المتقدم استوفى جوابه.

الثانية: أن يكون الجواب فيها للشرط رغم تأخره عن القسم وذلك عند ما يتقدمه ما يحتاج إلى الخبر كما مر من قبل.

أما الحالة الأخيرة التي لوحظ فيها زيادة اللام وأنها لا تفيد القسم فيمكن أن تكون هذه اللام موطئة للقسم، وأن أداة الشرط بعدها وما دخلت عليه من الجملتين كلها جواب للقسم وعليه يكون التأويل في البيت السابق:*

(والله لئن كان الرحيل غدًا، قَلَّ الثواء) فجملة (قل الثواء) جواب للشرط وجملتا الشرط وجزائه جواب للقسم المقدر، وهذا لايمتنع مادام التأويل لا يجحف

---

1ـ النحو الوافي ج 4/ 487 الهامش رقم (3).

2ـ المغني ج 1/ 361 البيت الأول منقول عن ديوان ذى الرمة: ص 86 والبيت الثاني منقول عن ديوان عمر بن أبي ربيعة: 86.

* ألمم بزينب... الموجود أعلاه.

بالمعنى، أما حين يتصل الجواب بالفاء فقد ترجح كونه للشرط واعتبرت اللام زائدة .

أما حين يتصل بالفعل المضارع نون التوكيد فإنه يترجح كونه جوابا للقسم و ذلك أن الأصل في جواب القسم عندما يكون فعلا مضارعا أن يؤكد بالنون .

ولقد وردت على هذا المنوال مجموعة من الآيات القرآنية، في سياقات مختلفة منها ما هو مَبْدُوءٌ بإنْ الجازمة كما في قوله تعالى: "وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم" (1) "وإن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين" (2) .

في مثل هذه المواضع تقدر اللام الموطئة قبل "إنْ" فيكون الفعلان (يمسنّ) و (نكوننّ) جوابي قسم مقدر، دَلَّت عليه اللام التي هي لام الجواب و نون التوكيد المتصلة بالفعلين ، وأما جواب الشرط في مثل هذه الحالات فقد استغنيَ عنه؛ ويرى صاحب المغني أن التقدير في الآية الأولى "والله ليمسن لئن لم ينتهوا يمسن وهذا لا يكون إلا جوابا للقسم" (3) ومنها ما هو مَبْدُوءٌ بمبتدأ كما في قوله تعالى:

"والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين" (4)

"والذين آمنوا وعملوا الصّالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ من الجنة غرفاً" (5)

"الذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا" (6)

يقول صاحب المغني "إن المبتدأ في ذلك كله ضُمن معنى الشرط وخبره منزل منزلة الجواب، فإذا قدر قبله قسم كان الجواب له وكان خبر المبتدأ المشبه جواب الشرط محذوفاً، للاستغناء بجواب القسم المقدر قبله" (7)، والذي حمله على هذا التأويل هو أن المضارع الواقع بين اللام مَبْدَءًا والنون ختاماً لا يقع

---

1- سورة المائدة الآية 73 (مد) .

2- سورة الأعراف / 23 .

3- المغني ج 2/ 454 وج 1/ 261 .

4- سورة العنكبوت / 9 .

5- سورة العنكبوت / 58 .

6- سورة العنكبوت / 69 .

7- المغني ج 2/ 454 .

إلاَّ جوابا للقسم، لذلك فإن تقدير قسم محذوف أقرب إلى الصَّواب، وأما قوله (للاستغناء بجواب القسم المقدر قبله) فلأن القسم والشرط إن اجتمعا استغنى عن جواب أحدهما بوجود الآخر، ولمَّا لم يذكر الشرط مقدما اعتبر الجواب للقسم المقدر، فالشرط محتمل، والقسم مُقَدَّرٌ، القسم وُجد ما يدل عليه (وهو اللام والنون) لفظا، وأما الشرط فالدلالة عليه ضمنيّة.

لذلك اعتبر الجواب للقسم لكونه أقوى تقديراً والسياق يقبله إذ المقام قابل للتوكيد القسمي، بل لا بُدَّ من التوكيد على أنَّ الله تعالى يدخل الصَّالحين الجنة ويهدي المجاهدين العاملين سُبل الخير والفلاح في الدنيا والآخرة، لأن حكمته قضت بذلك ...

أما إذا كان الشرط امتناعيا وهو (لو، لولا، لوما) وتقدم، فحكمه في الغالب كحكم الشرط غير الامتناعي من أن يكون الجواب له وذلك مثل قولنا: "لولا العلم والله لما تقدمت البشرية".

أما إذا تقدم القسم على الشرط، فالأرجح أن يبقى الجواب دائما للشرط والشرط وجوابه، جواب القسم مثل قولنا: "والله لولا العلم لما تقدمت البشرية".

يتضح مما سبق أن الشرط في الحالتين: سواء تقدم أو تأخر لابد له من الجواب وأما القسم في حالة تأخره فإن جواب الشرط يغني عن جوابه ويسد محله، وفي حالة تقدم القسم، فالشرط أيضا يجاب، ويكون هو وجوابه جوابا للقسم المتقدم.

قبل أن نتعرض إلى دلالات الأساليب القسمية الواردة في القرآن الكريم وخاصة في السور المكية منه التي هي موضوع هذه الدراسة، لا بد من معرفة الفرق بين قسم الخالق وبين قسم المخلوق، والهدف من القسم القرآني والأسباب المؤدية إليه:

لا بد أن يكون هناك فرق بين قسم المخلوق، وقسم الخالق، وذلك من جهات ثلاث:

- أولها: إن المخلوق يقسم بالشيء الذي يعظمه ويجدله في نفسه جبروتا وقهرا، يخشى إنْ هو خالفه وحنث في يمينه أن يصيبه مكروه من ذلك المقسم به، هذا هو الأصل في اليمين عند المخلوق، وقد يقسم بالشيء على وجه

الاستدلال و الاستشهاد وكأنّه يشهد تلك الأمور التي أوردها مورد المقسمات بها على صدق ما يقول .

أما الخالق حين يقسم بشيء من مخلوقاته أو يقسم بذاته الجليلة فليس من تلك الأسباب السابقة لأنه هو الذي خلقها ، فليس من الحكمة أن يخلق شيئا وهو يخشاه أو يعظمه على الطريقة المعهودة لدى البشر ..

ـ ثانيا : إن المخلوق حين يقسم على شيء لم يقع، إنما ليلزم نفسه فعل أمر لم يكن قد فُعل من قبل فيتعهد بفعله بعد القسم عليه ، في الحال أو الاستقبال حسب القرينة المصاحبة للكلام ..

كما قد يقسم على شيء وقع بالفعل في الزمن الماضي قبل القسم عليه ليؤكد حقيقته ، و ينقل إلى السامع أن هذا الشيء قد وقع بالفعل، و ينفي عنه الشك الذى يراود النفس في وقوعه، وفي الحالتين لا بد أن يكون المقسم به مما تخشى مخالفته إنْ حنث المُقْسِمُ في يمينه كما سبق .

وأساليب القسم التي وردت في القرآن الكريم ليس ملحوظ فيها هذا الاختصاص بالزمن والتقيد به .

ـ ثالثها : إنّ إثبات الحقيقة يتطلب أمرين : إما البنية وإما اليمين، فالذي يدعي دعوى ضد شخص آخر لا بُدّ عليه من الإتيان بالبينة على صدق دعواه والذي ينكر هذه الدعوى و يكذبها لا بد عليه من اللجوء إلى اليمين لإبطال دعوى المدعي ، لذلك يقال "البينة لمن ادعى واليمين على من أنكر" هذا في حق البشر حين يقسمون، ولعل في قصة الأعرابي الذي سمع قوله تعالى : "فورب السماء والأرض إنه لحق" (1) فقال : "من الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين ؟، قالها ثلاثا ثم مات (2) ، ما يشير إلى شيء من هذا، وذلك من جانبين : أولا : إن هذا الأعرابي قد استشعر عظمة الخالق في قلبه ، واستشنع فعل المكذب بالدّين الجديد فكان هذا سببَ موته إن صحت هذه الرواية ، ثانيا : إن هذا الأعرابي كان يعظم القسم ـ وتلك طبيعة العرب ـ ويراه دليلا

---

1ـ سورة الذّاريات 23 .

2ـ البرهان في علوم القرآن ج 3 / 41.

على إظهار الحقيقة عندما يطلب من المنكر اللجوء إليه ؛ لذلك إستغرب أن يكون الله تعالى قد أرغم على القسم ( أي اليمين) ، وكأنه بذلك قد نظر إلى القسم من الله تعالى بمثل ما يُنظر إليه عند ما يكون صادرًا من البشر .

يمكننا الآن أن نطرح السؤال التالي : ما سِرُّ القسم منه تعالى ؟

للجواب عن هذا السؤال نقول : إن القسم من الخالق لا ينبغي أن يُفهم كالقسم من المخلوق ، وذلك من عدة وجوه .

- أولها : إن الخالق عند ما يقسم بنفسه ، فذلك لأنها عظيمة ومقدسة عندما وعنده ، لذلك أمرنا أن نقسم بذاته على لسان رسوله (ص) الذي يقول " من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت " (1) .

أما حين يقسم بمخلوقاته ، فذلك لاعتبارات منها : أنه يشعرنا وينبهنا إلى أن تلك المخلوقات - التي نعظمها وربما عبدها الإنسان على مَرِّ العصور وأضفى عليها صفات الألوهية ، كالشمس والقمر ... — مخلوقة له وليست محل العبادة والتقديس . لذلك بَيَّنَ ما يعتريها من تغيير وتبديل وربما الزوال ، وأن المعبود ليست هذه صفاته .

كما يلفت انتباهنا في أساليب قسمية أخرى إلى أن الأمور المقسم بها من مخلوقاته . قد لا نعطيها إهتماما ولا نتبين وجة العظمة فيها ، فجاء القسم بها دليلا ومرشدًا إلى ما فيها من سر دالٍّ على عظمة الذي أنشأها وأوجدها وذلك كالقسم ببعض النباتات وبعض الحيوانات ، وكذا الرياح والسماء والبحر أو ما إرتبط بأمر عظيم من أمور الرسالات والعبادات كالقسم ببعض الأماكن وبعض الأوقات .

- ثانيها : إذا كان قسم المخلوق ملحوظًا فيه الدلالة على الزمن بإعتبار ما كان أو ما يكون تحقيقا للخبر عند السامع أو التزاما بفعل الشيء مستقبلا ، فإن قسم الخالق تكاد تتقارب فيه الأزمنة من ماض وحال واستقبال وتتّحِدُ حتى لكأنّ القسم يُقسَمُ أمام السامع حال سماعة تلك الآيات القرآنية التي تتضمن أساليب القسم ، فصور الوعد والوعيد (الجزاء والعقاب) وصدق النبوة والقرآن ، وحقيقة يوم القيامة التي أقسم

---

1- سيذكر هذا الحديث ب ص : 95 من الفصل الثاني .

عليها الخالق ، تنتقل من عالم الغيب إلى عالم الحس فتنبه العقول مرة و تدعوها إلى التأمل و تملأ المشاعر و تثير الأحاسيس مرة، ليصعد منها صور إلى المخيلة فتخيل مشاهد العقاب و مشاهد الجزاء و ما ينتظر المحسنين و ما يترصد المسيئين و ما حاق بالمكذبين من عذاب، كل ذلك تصوره الأساليب القسمية بالاستعانة بما يتقدمها أو يتلوها من العبارات والآيات في السياق القرآني وكأنها ماثلة أمام السامع، وخاصة عندما تتجه الأساليب القسمية الى رسم صور عن يوم القيامة، أما عندما تتجه تلك الأساليب إلى إقرار حقيقة الدين و صدق النبوة و نفي الضلال والغواية والشعر عن الرسول (ص) و إقرار الوحدانية لله تبارك و تعالى فإنها تملأ الاسماع و تستولي على العقول، حتى لا تترك مجالاً للشك والتردد، و تجعل الشاك والجاحد يشعر بالخزي والإبلاس فلا يملك إلا أن يعلن عن إيمانه وتصديقه، أو يستمر في جحوده ونكرانه وهو معاند مكابر، يكاد يصرخ به عقله وشعوره، أنْ صدّق وآمن، هذا شأن الأساليب القسمية في القرآن وهي تهدف إلى تحقيق الإقناع بفكرة الإيمان لدى السامع لتحمله على التصديق بالبرهان والحجة القاطعة، بحيث لا يعود هناك فرق بين القسم على أمر مضى وانتهى أو أمر منتظر لم يأت بعد، فالغائب شاهد ماثل، والآتي حاضر مستمر، والأزمنة تلتقي في نقطة واحدة، هي محل الإحساس بالإيمان وما يتطلبه هذا الإيمان.

- ثالثها: الفصل في الأمور كما سبق يتحقق عن طريقين، عن طريق البينة أو عن طريق القسم، (اليمين) والقرآن الكريم لجأ إلى الطريقين معا، لجأ إلى البينة من جهة وإلى اليمين من جهة ثانية، لجأ إلى البينة لإثبات الحقيقة بالشهادة التي تشهد له تعالى أنه خالق الكون ومبدعه ومنسق أجزائه ومدبر أموره، خلقاً وإبْدَاعاً وتَدْبِيراً، دالا على صدق الحقيقة البعثية التي جاء بها القرآن ويندرج تحت هذا الصنف الذى هو إثبات الحقيقة بالبينة جميع الأساليب التي تحدثت عن عظمة الخالق و قدرته وعددت النّعم التي أنعم بها على الإنسان، وما منحه إياه من القدرة العقلية التي تجعله قادراً على الانتفاع بما حوله من هذه الأمور المخلوقة المسخرة له، كل ذلك بمثابة البينة

والشهادة التي إذا تأملها الإنسان و تدبرها قادته إلى الإيمان بالدين والبعث وسائر ما جاء به الرسول (ص) ودعا إليه ، والأساليب القرآنية التي تضمنت إثبات الحقيقة بالبنية كثيرة ، ولعل القرآن المكي أكثر احتواء عليها ، لكونه نزل في أوائل الدعوة وكان الاهتمام فيه متجها إلى تربية العقيدة في النفوس وتمكين الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، من القلوب ، فكثرت فيه الآيات الداعية إلى تأمل الكون وما فيه للوصول إلى الإيمان بالخالق ، من ذلك قوله تعالى "الله الذى سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (1) وقوله تعالى "وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون" (2)

والآيات في هذا الشأن كثيرة لنها امتنان الله تعالى على الإنسان ، وتعظيم لقدرة الخالق ،ودعوة إلى الإيمان بالله والبعث "والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا" (3) .

والملاحظ أن هذه البينات التي هي شهادات على صدق الرسالة الاسلامية وما جاءت به تختلف عما ألفه العرب في بيئتهم من أمور وأشياء ، واستشهدوا بها على صدق ذممهم فيما نووا فعله أو عقدوا العزم على اجتنابه ، كإشهادهم القدور والسيوف والخيل مثلا، إذ هم لم يراعوا في هذه الأمور وجها من وجوه الحكمة والتبصر ، اللهم إلا الاستدلال بها لألفتها أو كثرة معاشرتها أو محبتها، أما الشهادات التي يوردها القرآن فهي من العظمة والحكمة بحيث تحمل العقل على التفكير والتدبر ، وذلك لأن فيها من عجيب التنسيق ودقيق الصنعة ما يدل على قدرة الصانع والإيمان بما أمر به ،إذن فالقرآن لجأ إلى البينة لإثبات الحقيقة على غرار ما عرفته العرب في لغتها ودأبت عليه ، لكن شتان بين أسلوبه وألفاظه، وأساليبهم وألفاظهم ، ولعلّ مما يلفت الانتباه إلى أن تلك الأمور والأشياء الدالة على الإشهاد والاستدلال من الدقة والتنسيق من حيث الأسلوب،

---

1- سورة الجاثية / 12 .

2- سورة الجاثية / 22 .

3- سورة نوح / 17 - 20 .

* سنعود الى هذه الفكرة في الفصل الثاني عند الحديث عن دلالات المقسم به

والعظمة والروعة من حيث المعنى، ما نجده في سورة "النبأ" من تتابع هذه الأمور وتناسقها، ودلالتها على عظمة الخالق المبدع، من ذلك قوله تعالى" ألم نجعل الأرض مهاداً، والجبال أوتاداً، وخلقناكم أزواجاً، وجعلنا نومكم سباتاً، وجعلنا الليل لباساً، وجعلنا النهار معاشاً، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً، وجعلنا سراجاً وهاجاً، لنخرج به حباً ونباتاً، وجنات ألفافاً، إن يوم الفصل كان ميقاتاً"[1]

إنها آيات ناطقة بالحكمة في نسق عجيب وتآلف بديع، تتتابع تتابعاً سريعاً في عبارات قصيرة متآلفة الأنغام متشابهة الفواصل، إن شئت تلوتها سراعاً تباعاً فيمتلئ القلب إعجاباً والنفس انبهاراً، أمام هذا الأسلوب العجيب، واستخلصت من كل هذا، صورة ذهنية استوعبتَ من خلالها كل هذا الكون الشاسع بحركاته وسكناته، ما يُرى منه وما لا يُرى، فلا تملك لتفسك إلا الخضوع والإذعان لصانع هذا الكون، والإقرار له، بالحول والطول وإن شئت تلوتها تلاوة متأنية، وتوقفت عند كل عبارة من عباراتها، فتجد في ذلك أسراراً عجاباً وحكماً رائعة، إنها جارية على ما عرفته العرب من ألفاظ وأساليب، كلماتها معروفة لديهم وتراكيبها من نوع تراكيبهم، غير أن تآلفها ونظامها جديد عندهم، يعرفون السماء والأرض والليل والنهار، وغير ذلك مما ذكر، ولكن لم يخطر ببال أحدهم إطلاقاً، أن يرصف من هذه الكلمات ما يؤدي هذه المعاني بعينها أو قريب منها، وهذا وجه من وجوه الإعجاز، ولنتوقف على سبيل المثال عند قوله تعالى: "وجعلنا سراجاً وهّاجاً، وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً، لنخرج به حبّاً ونباتاً، وجنات ألفافاً"، والذي يجلب الانتباه هو اللفظتان (وهاج) و (معصرات) وإذا تأملنا المقارنة بينهما" نعرف أن الذي قال هذا الكلام هو الخالق الذي رتب الأمور على أسبابها ومسبباتها وعللها ومعلولاتها، لأن المطر كما نعلم هو الماء العذب الذي ينزل لنا من جهة السماء . . . هو نتيجة مستودع المياه وهي البحار المالحة، فلا بدّ من عملية تقطير وهذه العملية تنشأ من تبخر الماء في الجو، ثم بعد ذلك يصادف منطقة باردة فيتكاثف

---

1- سورة النبأ / 6 - 17 .

وينزل لنا مطرا فراتا عذبا سائغا شرابه ، إذن هناك صلة بين الشمس سراج وبين (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) والمعصرات: من أعصرت الجارية يعني حاضت فهي إبتدأت تصلح لعملية الإنجاب فالمعصرات إذن هي الرياح أو قمم الجبال ، المهم أنها هن مشيء أعصر يعني حان وقت إنجابه ...

إذن قول الحق سبحانه وتعالى ( وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) يعني متدفقا (لنخرج به حَبًّا ونباتًا وجنات ألفافا) ... حبّ ونبات وجنّات دقّة في التعبير لا يمكن أن يقولها إلا خالق ، الحبّ هو الأصل إن كنت أنت ترى شيئا ليس له حبّ فهو في الأصل جاء من حبّ (1) .

وهكذا (حب ثم نبات ثم جنات) تلتف الأغصان فيها على بعضها، ولم يدّع أحد من البشر أنه قادر على خلق هذه الأشياء، كما لم يستطع أحد من البشر أن يأتي بالبينة على ما يناقض هذه الدعوى ، فالدعوى إذن خالصة وثابتة لله تبارك وتعالى ، هو الذي جعل الأرض مهادًا والجبال أوتادًا وجعل النوم سباتا وجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا ... (إن يوم الفصل كان ميقاتا) هذا هو المقصود ، لأن الأدلة والبينات السابقة إنما سيقت لترد على المكذبين بقيام الساعة ، وما يعقبها من حساب ، إذن المقصود هو أن الذي أوجد الكون بنظامه العجيب الدقيق وسخر النّعم للإنسان لقادر على أن يخلق وراء هذه الحياة حياة أخرى من أجل إقامة الحساب والجزاء ، إنها آيات مُحَسَّة مشاهدة لا سبيل الى إنكارها ولا دليل على نسبتها إلى غير الله « ما دامت منسوبة إلى الله ، كان يجب أن الذي صنع هذه الأشياء لا نكذب أبدًا أننا سنلقاه في يوم الفصل» (2) .

والذي نلاحظه أن اللجوء إلى البينة من أجل إثبات الحقيقة في الآيات السابقة قد أجيب بما يجاب به القسم الصّريح ، وهو قوله تعالى "إن يوم الفصل كان ميقاتا" وفي ذلك دليل على أن البينة أو الشهادة (يمين) أي أنها تتضمن معنى اليمين وقد تجاب بجوابه ، إلا أن القسم داخل في الأسلوب

---

1- المختار من تفسير القرآن الكريم ، الشيخ المتولي الشعراوي مطبعة دار الشهاب ج 2/ 60-61 .

2- المختار من تفسير القرآن الكريم ج 2/ 62 .

الإنشائي والشهادة غالبا ما تكون في الأسلوب الخبري ، ومن ذلك قوله تعالى : "إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ، إتخذوا أيمانهم جُنة فصدّوا عن سبيل الله .." (1)

والذي عليه البلاغيّون أن الأسلوب الخبري ما يحتمل الصدق أو الكذب ، فإن طابقت النسبة الكلامية الواقع كان الخبر صادقا ، وإن كانت مخالفة الواقع كان كاذبا ، وهو بخلاف الأسلوب الإنشائي الذي يوجد معناه بعد التلفظ به ، فقول المنافقين ، "نشهد إنّك لرسول الله" أسلوب خبري والنسبة الكلامية فيه مطابقة الواقع أي "أن محمدًا (ص) فعلا رسول الله" فكيف وصفهم الله بالكذب ؟

(والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فالجواب عن ذلك أنهم كاذبون في قولهم (نشهد إنك لرسول الله) وليس في (إنك لرسول الله) لأنه فعلا رسول ، لأن الشهادة هي أن يقول الإنسان قولا مطابقا لما في الضمير ، وهم غير مؤمنين في قلوبهم بأنّ محمدًا رسول الله ، فلقد قالوها بألسنتهم فقط لذلك وصفهم الله بالكذب ، إذن فقولهم ليس مطابقا الواقع والحقيقة لأنهم قالو نشهد والشهادة يمين تقتضي الصدق وموافقة الأحوال النفسية ، والدليل على أن الشهادة يمين هو قوله تعالى "اتّخذوا أيمانهم جُنّة" إذ جعل الشهادة يمينا ووصف هذه اليمين بأنها غير صادقة ، يقول صاحب الكشاف ، "يجوز أن يراد أن قولهم نشهد إنك لرسول الله يمين من أيمانهم لكاذبة لأن الشهادة تجري مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد ... ويجوز أن يكون وصفا للمنافقين من استجنانهم بالأيمان أي ما أظهروه من الأيمان ..." (2) وعلى أية حال فالشهادة يمين ، والعرب تستعمل الفعل علم ، فيما يدل على اليمين لذلك قال صاحب البرهان " ومما حذف فيه المقسم به قوله تعالى (قالوا نشهد أنك لرسول الله) ، أي نحلف أنك لرسول الله ، لأن الشهادة بمعنى اليمين بدليل قوله (أيمانهم جُنّة)" (3) .

---

1- سورة المنافقون (مد) / 1 و 2 .

2- الكشاف ج 4/ 108 .

3- البرهان في علوم القرآن ج 3 / 45 .

هذا عن إثبات الحقيقة بالبينة أو الشهادة ، أما إثباتها بالقسم الصريح فقد جاء موزعا في نصوص القرآن الكريم عن طريق الأساليب القسمية الصريحة وغير الصريحة التي هي موضوع هذه الدراسة .

يتبين مما سبق ، أن الحق سبحانه وتعالى ، قد استوعب إثبات الحقيقة بالبينة مرة وباليمين مرة ، وذلك استيفاء للعبرة وإكمالا للحجة .

يبقى بعد ذلك أن نشير إلى أن البينة كانت من الله ، والقسم أو اليمين كان أيضا من الله ، ولقد سبق القول " إن البينة لمن ادعى واليمين على من أنكر " ، فقد كان إثبات الحق من الله تعالى عن طريق البينات التي تشهد له بالوحدانية والقدرة ، ولقد كان ذلك كافيا منه تعالى ، فما سر لجوئه إلى القسم إذن ؟

إن القسم منه تعالى كان رَدًّا على المنكرين والمعاندين والمترددين ، الذين لم يقتنعوا بالبينات رغم أنهم لم يستطيعوا أن يأتوا بما يبطلها ، إذن فقد أنكروا هذه البينات ، فجاء القسم لينكر عليهم هذا الإنكار ، ينكر عليهم إنكارهم البعث والنبوة وما جاء به الرسول (ص) : فالقسم هو أعلى درجات الإقناع ، وذلك لما يتضمنه من البرهان والقدرة على إفحام الخصم وإبطال دعواه الكاذبة ، وهذا ما تهدف إليه الأساليب القسمية التي تتناولها بالدراسة في هذا البحث ، ولقد تركزت معظم الأساليب القسمية في السور المكية ، وجاء معظمها صريحا قويا في مقاطع قصيرة شديدة الوقع على النفس ، تقرع أبواب العقل قرعا شديدًا لتوقظه من غفلته وتدعوه إلى تأمل الكون من حوله ، وما يحتوي عليه من أسرار عجيبة بل تدعو الإنسان إلى تأمل خلقته وأطوار حياته وانتقاله من حال إلى حال ، كل ذلك من أجل أن توجه ذهنه وعقله إلى البحث عمن أبدع هذا الكون ، بهذا النظام العجيب وهذا التنسيق المحكم ، الذي يتجلى للمتأمل في جميع المخلوقات صغيرها وكبيرها ، قويها وضعيفها ، فلا يملك العقل الراجح إلا أن يصدق ويؤمن بالله الذي أوجد كل ذلك وأنشأه إنشاء من غير مثال يُحْتَذَىٰ و لا خطة تتبع ، ولعل سبب كثرة الأساليب القسمية في السور المكية يعود إلى أمرين هامين هما :

1- إن القرآن المكي يمثل القسم الأول من الدعوة الاسلامية ، هذا القسم الذي يهدف إلى إرساء فكرة الإيمان في النفوس و تدعيمها و تقويتها ليكون المسلمون بعد ذلك مستعدين عقليا و اجتماعيا لتقبل ما سَيأْتِي به القسم الثاني من الدعوة الاسلامية من تشريعات و حدود ، لإنشاء مجتمع إسلامي متكامل الجوانب إيمانا وسلوكا وتشريعًا ،وهذا الجانب الثاني يبرز بوضوح في القرآن المدني ،والمجتمع المدني (نسبة إلى المدينة المنورة ) . نعود إلى القسم الأول ؛ فنقول: إن الدعوة إلى الإيمان وإرساء العقيدة كانت بواسطة الآيات القرآنية المكية ، ذات الوقع على النفس ، وقعا شديدا قويا ، يقرع أسماع المكذبين والشاكين المترددين ، ليفضح نواياهم ويفسد خططهم ،والقسم في مثل هذه المواقف أنسب،لإفادة التوكيد واعتماده على الحجة والبرهان والدليل ،بحيث لا يترك للمكذبين حجة يعتمدون عليها .

2- إن إثبات الحقيقة يحتاج إلى الإتيان بالبينة ،والإنكار يحتاج إلى اليمين من أجل تفنيد دعوى الخصم ، ولما كان الهدف من القرآن المكي ، كما سبق هو إرساء العقيدة في النفوس ، ووجد أمامه الكثير من الكافرين والمعاندين الذين لم يستجيبوا لدعوته لجأ الأسلوب القرآني إلى الأساليب القسمية عن طريق البينة والشهادة ليدل بها على صدق الدعوة ،وليجعل الخصم المعاند في موقف حرج ، مجرد من أيّ بينة أو حجة يستند عليها للاستمرار في عناده وكفره، فكانت الآيات الداعية إلى التأمل في الكون والخلقة،خير ما يمثل هذا الجانب ، ولما استمر المعاندون في جحودهم وكفرهم كان لا بُدَّ على الأسلوب القرآني من أن يلجأ إلى صريح القسم الذي هو الذروة في إقامة الحجة والبرهان ، ومن هنا كانت أغلب الأمور المقسم بها ، قد وردت في سياقات من الآيات دالة على البينة والشهادة ،وداعية إلى التفكير والتأمل ،فالأساليب القسمية إذن هي من أجل إنكار إصرار المكذبين على الإنكار بعدما شاهدوا البينات ولم يستطيعوا مواجهتها فاستمروا في العناد .(1)

---

1- المختار من تفسير القرآن الكريم ج 2/ 106 بتصرف .

وما دمنا بصدد الحديث عن القرآن المكي نقول : لقد إختلف العلماء في تحديد المكي والمدني ،و ليست هناك ضوابط د قيقة ، وفي ذلك يقول الإمام السيوطي «أعلم أن للناس في المكي والمدني إصطلاحات ثلاثة أشهرها أن المكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها ، سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، عام الفتح أو عام حجة الوداع أو بسفر من الأسفار...

والثاني : إن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة ، وعلى هذا تثبت الواسطة ... ويدخل في مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية وفي المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

الثالث : إن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة .»(1)

والجدير بالذكر ، أن هذا الموضوع محل خلاف بين العلماء والمحققين وليس من هدف هذا البحث الخوض فيه ، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن ما يكاد يجمع عليه العلماء في هذا المجال ، هو أن «المدني بإتفاق العلماء عشرون سورة ، وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقون ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر " والمختلف فيه إثنتا عشر سورة وهي : "الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والتطفيف ، والقدر ، ولم يكن ، وإذا زلزلت ، والاخلاص ، والمعوذتان " وما سوى ذلك مكي بإتفاق وهو إثنتان وثمانون سورة فيكون مجموع سور القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة »(2)

وهذا التقسيم بإعتبار أغلب آيات السور ، وإلا كنا واجدين في المصاحف عند تسمية السورة الإشارة إلى ما فيها من آيات مكية عندما يكون أغلبها مدنيا وبالعكس ، وهذا في بعض السور التي تحتمل ذلك .

وبناء على هذا الخلاف وتعدد الروايات حوله ، لأن القضية نقلية أكثر مما هي عقلية ، فإن العلماء وضعوا خصائص للآيات المكية وأخرى للآيات المدنية

---

1- الاتقان في علوم القرآن للامام جلال الدين السيوطي دار الفكر ج 1/ 9

2- التعبير الفني في القرآن ص: 48 .

واعتمادهم على الآيات أقرب إلى الصواب والضبط من اعتمادهم على السور، لذلك قالوا في خصائص الآيات المكية: «إنها تدعو إلى التوحيد وعبادة الله وإثبات الرسالة والبعث والجزاء بآيات الله الكونية، وقطع دابر خصومتهم بالبراهين العقلية، وذكر القيامة وهولها، والنار وعذابها، والجنة ونعيمها لذلك قال صاحب التبيان: (والاعتماد في السور المكية إنما هو بأصول الدين، وتقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية)[1]

- وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل التي يقوم عليها المجتمع، وفضح جرائم المشركين.

- قصر الفواصل مع قوة الألفاظ، وإيجاز العبارة بما يصخ الآذان ويشتد قرعه على السامع...

- كل سورة تتفتح بحروف التهجي ... إلا سورة البقرة وآل عمران، فهي مكية.

- كل سورة فيها قسم يترجح مكيتها»[2]

من أجل هذا كان المقام صالحا للقسم، فكثر في السور المكية كما سبق، ولقد عولت في هذه الدراسة بالدرجة الأولى على السور المكية حسبما هي مبينة في المصحف من خلال تسميتها، والتفت من حين الى آخر الى بعض أساليب القسم الواردة في السور المدنية عندما يدعو المقام إلى ذلك طلبًا للفائدة وإكمالا للقصد، وبعد فما هي أنواع الأساليب القسمية التي وردت في السور المكية؟ وماهي التغيرات الطارئة عليها، كالحذف والنيابة وكيف يمكن تعليل ذلك؟ ثم ماهي الدلالات التي تؤديها من خلال التراكيب الواردة فيها؟

هذه أهم النقاط التي نحاول بحثها في الفصل الثاني.

---

1- التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي مكتبة المتنبي القاهرة ص: 551.

2- التعبير الفني في القرآن ص: 50.

## ـ الفصـــــــــــــــل الثانـــــــــــــــي ـ

## ـ القســـــــم في الســـــــــــور المكيـــــــة ـ

## ـ دراســـــــــــــــة دلاليـــــــة بلاغيـــــــة ـ

## الأفعال الصريحة في القسم :

لقد سبقت الإشارة إلى أن الفعلين الأصليين في القسم هما (أقسم وحلف) يتعديان إلى المقسم به بحرف (الباء)، ثم الفعل (آلى) ويتعدى بحرف (على)، ولقد ورد في القرآن الكريم صيغ قسمية عديدة كان فعل القسم فيها صريحا ولنبدأ بالفعل "أقسم".

إن صيغ القسم الواردة بالفعل "أقسم" جاءت كلها مسبوقة بنفي وهي على التوالي حسب ترتيب السور، قوله تعالى:

"فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم". (1)

و"فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون، إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون". (2)

و"فلا أقسم برب المشارق والمغارب، إنا لقادرون على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون". (3)

و"لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه". (4)

و"فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم". (5)

و"فلا أقسم بالشفق، والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق، لتركبن طبقا عن طبق فما لهم لا يؤمنون". (6)

و"لا أقسم بهذا البلد، وأنت حل بهذا البلد، ووالد وما ولد، لقد خلقنا الإنسان في كبد، أيحسب أن لن يقدر عليه احد". (7)

---

1- سورة الواقعة / 78- 79- 80.

2- سورة الحاقة / 38 ... 41.

3- سورة المعارج / 40 - 41- 42.

4- سورة القيامة / 1- 2 - 3.

5- سورة التكوير / 15 ... 19.

6- سورة الانشقاق / 16 ... 20.

7- سورة البلد / 1- 5

الملاحظ أن فعل القسم في هذه المجموعة قد جاء مسبوقا بأداة نفي "لا" وللغويين والمفسرين آراء في ذلك منها : أن هذه الأداة إما أن تكون ، زائدة للتوكيد أو لنفي كلام سابق دال على الإنكار والتكذيب ، والفعل بعدها قسم على إثبات ما أنكروه من حقيقة البعث ، والمعول عليه لدى الإمام الزمخشري هو أن الله تبارك وتعالى "لا يقسم بالشيء إلا إعظاما له يدلك عليه قوله تعالى : "فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم" ، فكأنه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي به كلا إعظام ، يعني أنه يستأهل فوق ذلك »(1)

بناء على ما سبق يمكننا أن نستنتج ما يلي :

إن الفعل (أقسم) يمكن أن يكون أصل أفعال القسم بدليل وروده قسما على أمور عظيمة هي أصول الإيمان ، وتتمثل في الدّعوة إلى التوحيد وصدق النبوة والقرآن والبعث وما يليه ، ... فهذه الأمور هي التي وردت في الآيات السابقة مقسما بها وهي نفسها الأسس التي تتبنى عليها العقيدة الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم .

إن القسم على هذه الأمور المذكورة أعظم قسم صدر منه تعالى بدليل قوله تعالى : "وإنه لقسم لو تعلمون عظيم" فَنَبَّه على عظمة المقسم به وفي ذلك دلالة على عظمة المقسم عليه أيضا واختص بالذكر الفعل أقسم دون غيره للتعبير عن هذه العظمة مما يرجح أن يكون هو الأصل في أفعال القسم حيث :

أ- جاء الضمير في الفعل أقسم مسندًا إلى المتكلم وهو الله تعالى ، بخلاف بقية الأفعال الأخرى ، في كيفية إسناد ضمائرها ،

ب- المقسم به في هذه الآيات ثلاثة أصناف :

1- إقسام بذات الله تعالى كقوله سبحانه : "فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب" وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب ، تنبيه على أن ربوبيته شملت كلّ شيء ،

---

1- الكشاف م 4/ 58 و 190 ، والمغني ج 1/ 275 - 276 .

2- إقسام بآياته المخلوقة للتنبيه على ما حوته من دلائل على قدرته وعلى تسييره الكون تسييرًا لا يقدر عليه أحد ،

3- إقسام بالمكان لقدسيته وكونه مهبطا للوحي ومبعثا للرسالة ،

4- التناسب بين المقسم به والمقسم عليه : "فلا أقسم بمواقع النجوم" ... إنه لقرآن كريم" حيث أقسم بمواقع النجوم وعلاماتها أن يهتدى بها ، على حقيقة القرآن الذي هو للهداية .

كما أقسم في (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق ...) بالليل والنهار وتعاقب الأوقات، على الأحوال التي تتعاقب على الإنسان منذ ميلاده إلى أن يبعث ويجازى.

ولقد وردت مجموعة من الآيات بالفعل نفسه غير أنه مسند إلى ضمير الجماعة أي المخلوقين من البشر وهي كما يلي : "وأقسموا بالله جَهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنُنَّ بها ، قل إنما الآيات عند اللهّ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون »(1) .

وقال : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا ، طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون" .(2)

وقال : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا» .(3)

وقال : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعدًا عليه حقا ولكن أكثر النّاس لا يعلمون" .(4)

إشتركت هذه الآيات في أمور منها :

1- جاءت بفعل صريح في القسم هو الفعل "أقسم" .

2- أسندت أفعالها إلى ضمير الغائبين .

3- أخبر القرآن بأنها أيمان كاذبة صدرت عن أناس كاذبين .

---

1- سورة الأنعام / 110 .

2- سورة النور / 51 (هد)

3- سورة فاطر / 42 .

4- سورة النحل / 38 .

4- أتبع المقسم به، فيها بحال دالة على التوكيد وهي (جَهد أيمانهم) لكي يوهموا المؤمنين بأنهم صادقون فيها إذ إن "أصل أقسم جهد اليمين أقسم بجهد اليمين جهدا ، فحذف الفعل وقدم المصدر فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول كقوله (فضرب الرقاب) ، وحكم هذا المنصوب حكم الحال كأنه قال: جاهدين أيمانهم" (1)

5- الرد على هذه الأقسام وتكذيبها رَدًّا قويا ولكنه هادئ يبين كذبهم من غير ما عنف ولا إجهاد للنفس كما فعلوا، وذلك أن الله تعالى أمر بالصدق في الأيمان وعدم تعريضها للكذب لأن القسم ذمة لا بد من المحافظة عليها لذلك قال تعالى: وسيحلفون بالله لو إستطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون" (2) ، جعل كذبهم في القسم هلاكًا لأنفسهم.-

بالمجموعة

بمقارنة أقسام هذه المجموعة السابقة نجد؛ أن جميع صيغ القسم في المجموعتين ورد بالفعل "أقسم" منسوبا إلى ضمير المتكلم في الأولى وهو الله وإلى واو الجماعة في المجموعة الثانية للتعبير عن جماعة الكافرين فأخبر عنهم بأنهم أكدوا أقسامهم وأجهدوا أنفسهم إجهادًا ليصدقوا وتلك حالة عامة نلاحظها غالبا عند كل من إتصف بالكذب بحيث يلجأ إلى صيغ التوكيد في الكلام والإكثار منها لإيهام الناس بأنه يقول الحقيقة ، ومنها القسم، ففي قوله تعالى على لسان المكذبين : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون" (3)

"يمكن أن نقول : إنَّ في المقطع الأول من الآية جدلاً نفسيًّا صامتاً، نستوحيه من قوله تعالى (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) فالقسم الذي يصحبه جهد واستجماع القوى النفسية يشير إلى نفس حائرة بداخلها صراع وجدل ثم يعقبه رد هادئ ولكنه عنيف (بلى وعدا عليه حقاً) وتنتهي الآية بوضع النفس أمام حقيقتها (ولكن أكثر

---

1- الكشاف م 3/ 73 .

2- سورة التوبة مد/ 42 .

3- سورة النحل/ 38 .

الناس لا يعلمـــــون)» .[1]

وهذا ما نلحظه أيضا في جميع أقسام هذه المجموعة من جهد للنفس وإستجماع لقواها . كما نلحظه أيضا في الردود على ما أقسموا عليه ، ففي الآية الأولـــــى: أمر الله نبيه أن يرد عليهم (قل إنما الآيات عند الله) وفي الثانية (قل لا تقسموا) ردا هادئا غير قلق ومتزنا غير حائر؛ هدوء الحقيقة واتزانها ، وفي الثالثة قوله تعالى (فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا) فقد أقام عليهم الحجة بمجيء النذير فبين كذب أيمانهم ،وفي الردود الثلاثة تكذيب أيمانهم وفضح نواياهم ...

وكان يمكن أن يعبر القرآن عن أقوالهم تلك بألفاظ غير القســـــم الصريح كالميثاق، والعهد ،كما فعل في مواضع أخرى ،غير أن اختيار صيغة القسم المؤداة بالفعل (أقسم) فيه دلالة على أنه أقوى الأفعال المؤدية القسم وهو عند العرب تعبير عن الوفاء بالذمة والعهد المقطوع على النفس قال زهير بن أبي سلمى :[2]

تَعَلَّمَنْ ها لعمر الله ذا قَسَمًا ـ فَاقْصِدْ بِذَرْعِكَ وَانْظُرْ أين تنسلك

وعدم الوفاء بالمقسم عليه دليل على انحطاط الهمة ،وفي تكذيب الله تعالـــى أيمانهم، تنبيه المؤمنين إلى أن يحذروهم وألا يصدقوهم ، أما الفعل (حلف) فقد ورد في عدة آيات نقتصر منها على ما يلي :

قال تعالى: «و يحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون»[3]، وقوله "يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين"[4]، وقوله "يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا"[5]، وقوله : "يحلفون لكم لترضوا عنهم ،فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقيـــن".[6]

---

1ـ الإعجاز الفني في القرآن عمر السلامي مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله ، تونس ط/ 80 ص : 213 .

و ينظر في ذلك كتاب (تفسير التحرير والتحذير) سماحة الأستاذ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ج 7ق 2 الدار التونسية للنشر ط/ 71 ص/ 436 .

2ـ الأصول في النحو ج 1/ 432 .

3ـ سورة التوبة / 56 .

4ـ سورة التوبة / 62 .

5ـ سورة التوبة / 75 .

6ـ سورة التوبة / 97 .

الملاحظ أن هذه الآيات كلها من سورة مدنية ولكن سقناها هنا لمعرفة الفرق بينها وبين الآيات السابقة من حيث دلالة فعل القسم .

جاءت هذه الآيات في معرض الحديث عن المنافقين في المجتمع المدني ، هؤلاء المنافقون الذين يشكلون حلفا في مواجهة الدعوة الإسلامية ، ولقد دلت جوابات أيمانهم (إنهم لمنكم ...) و (ليرضوكم) و (ما قالوا ...) و (لترضوا عنهم ...) على أنهم جماعة متميزة في مقابلة جماعة أخرى ، إنها جماعة المؤمنين ، وهذا ما دلت عليه علامات الجمع المتصلة بالأفعال وهي (هم ، الواو) وحرصهم على إخفاء نواياهم بلجوئهم إلى الحلف ظاهراً على انتمائهم إلى المؤمنين ، دليل على سوء تلك النوايا ، لذلك رد عليهم القرآن مكذبا أقوالهم ومحذرا المؤمنين منهم .

والنتيجة التي يمكن الاطمئنان إليها من غير جزم هي أن الفعلين (أقسم وحلف) أصليان في القسم ، وإنهما متقاربان من حيث المعنى فكلاهما يفيد القطع والحدة ، إلا أن الأول منهما غالبا ما يستعمل في التعبير عن صدق النية وعقد العزم على فعل أمر من الأمور لم يقع بعد ، أو توكيد أمر قد وقع ، وأما الثاني فغالبا ما يستعمل في التعبير عن العهد الذي يكون بين القوم ، وحالفه بمعنى عاهده وفي حديث أنس "حالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار في دارنا مرتين" أي آخى بينهم ... قال ابن الأثير أصل الحلف المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساند والاتفاق" (1)

وكأن هذا المعنى هو المستفاد من الاستعمالات القرآنية الفعل (حلف) أما الفعل (آلى) فقد ورد في قوله تعالى من سورة البقرة وهي مدنية : "لِلَّذِينَ يُؤلُونَ من نسائهم تربص أربعة أشهر" (2) الأصل في الفعل (آلى) أن يتعدى بحرف الجر (على) غير أن التعدية هنا قد جاءت بـ (من) .

"وقرأ ابن عباس يقسمون من نسائهم" فإن قلت كيف عدي بمن وهو معدى بعلى قلت ضمن في هذا القسم المخصوص معنى البعد ، فكأنه قيل يبعدون من نسائهم

---

1- لسان العرب م 1/ 696 .

2- سورة البقرة (مدنية)/ 226 .

مؤلين أو مقسمين ..."[1] وذلك لأن الإيلاء من المرأة يتضمن البعد منهـا . ولقد إستعمل القرآن إلى جانب هـذه الأفعال الصريحة : أفعالا أخرى ، تتضمّن معنى القسم ، وذلك من خلال السّياق الّذي وردن فيه ..

من الأفعال التي استعملت في القرآن ، و ضمنت معنى القسم: الفعل (جرم) و قد ورد مسبوقا بأداة النفي "لا" وأجرى مجرى اليمين إذا كسرت بعده همزة (إن) و يرى الاستاذ عباس حسن أن العرب قد إستعملته في القسم بدليل وجود اللام بعده في مثل قولنا : "لاجرم لأنا مكرمك" ، وضابط هذه الحالة أن : الحرف "لا" نـاف للجنس ، وجرم إسمه مع تضمنه القسم والجملة بعده من المبتدأ والخبر) جواب القسم أغنت عن خبر "لا" [2] ، و قد استعمل القرآن الكريم هذا الفعل في خمسة مواضع هي :

قوله تعالى : "لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون" (3)

و قوله : "لا جرم أن الله يعلم ما يسرون و ما يعلنون" (4)

و قوله : "لا جرم أن لهم النار" (5)

و قولـه : "لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون" (6)

و قولـه: "لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدّنيا و لا في الآخرة" (7)

والمستفاد من آراء الزمخشري في هـذه المسألة أن "لا جرم" فعل بمعنى (حق) وأن مع اسمها و خبرها فاعلة ، و هـذا مذهب البصريين ، و "لا" قبلها ردّ لما سبق الدّعاؤه ، أو أن تكون بمعنى (كسب) إستنادًا إلى قوله تعالى: "و لا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا" و يجوز أن يقال: إن لا جرم نظير لا بدّ ، فعل من الجرم و هو القطع ، كما أن (بدّ) فعل من التبديد ،

---

1ـ الكشـاف 1/ 363 .

2ـ النحو الوافـي ج 2/ 506 .

3ـ سـورة هود / 22 .

4 ـ 5 ـ 6 سـورة النحل / 23 ـ 62 ـ 109 .

7ـ سـورة غافـر / 43 .

وهو التفريق ، ومعنى (لا جرم أنّ لهم النار) لا قطع لذلك ، بمعنى أنهم أبدا يستحقون النار لا انقطاع لاستحقاقهم . (1)

ويحاول الأستاذ عباس حسن أن يخرج برأي واضح من هذه المسألة فيرى أنه إذا كسرت الهمزة بعد (لاجرم) فإنها تعني اليمين ، وأما إن فتحت فإن (جرم) فعل ماضي بمعنى وجب، ولا زائدة ، والمصدر المؤول فاعل (2) وذلك قياسا على قوله تعالى "والله يعلم إنّك لرسوله" (3) فعند ما كسرت همزة إنّ أجرى الفعل (علم) مجرى اليمين .*

يمكننا بعد هذه الأقوال أن نرجح أن (لاجرم) تفيد اليمين وذلك لثلاثة أسباب :

1ـ إن "جرم" يفيد القطع فهو نظير أقسم .

2ـ تقدمته أداة النفي "لا" نظير تقدم أداة النفي الفعل "أقسم" .

3ـ كسر همزة إنّ أو فتحها بعده نظير كسرها أو فتحها مع الفعل الصريح في القسم .

وهناك ألفاظ أخرى أجرتها العرب مجرى اليمين منها (جير) في قولهم: «جير لأذهبن» و (عوض) في قولهم «عوض لأقومن» و (كلاّ) في قولهم «كلاّ لأنطلقن» ولقد وردت في أشعارهم (4) .

إنّ الذي أغناك يغنيني جَيْرِ ـــ والله نفّاح اليدين بالخير
وَضِيعَيْ لِبانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تحالفا ـــ بأسحم ** داج عوض لا نتفرّق
أليس قليلا نظرة إن نظرتها ـــ إليك ؟ وكلاّ ليس منك قليل

ولم أقف على هذه الألفاظ في القرآن الكريم مستعملة في اليمين حسب علمي .

1ـ الكشاف ج 3/ 429 .

2ـ النحو الوافي ج 2/ 506 .

3ـ سورة المنافقون الآية 1 .

* سنعود الى الفعل (علم) عند الحديث عن لام الابتداء في هذا الفصل .

4ـ الانصاف في مسائل الخلاف ج 1ـ 400 ـ 402 ، أورد هذه الأبيات : الأول غير منسوب والثاني منسوبا الى الأعشى ميمون بن قيس وهو بدوانه ص 86 ، والثالث منسوبا الى ابن الطثرية يزيد بن سلمة بن سمرة .

** الأسحم هو الرحم أو هو حلمة الثدى ، ويقال هو الليل .

## الحـــروف النائبة عن الأفعـال:

أما الحروف النائبة عن الأفعال فقد وردت في مواضع كثيرة من القـــرآن وأكثر هذه الحروف استعمالا في القسم ، حرف (الواو) وهذا ما جعل صاحب البرهان يقول : "أكثر الأقسام المحذوفة الفعل في القرآن لا تكون إلا بالواو" (1) وأقلها ما ورد "بالباء" واعتبر قراءة شاذة في قوله تعالى : "يا بني لا تشرك بالله إنّ الشرك لظلم عظيم" *

وأما التاء فقد كانت استعمالاتها محدودة وهي حسب ترتيب السور كما يلـــي:

قوله تعالى: " قالوا تالله قد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّـــا سارقيـــن" (2) .

وقوله : " قالوا تالله تفتأ تذكر يوســف " . (3)

وقوله: "قالوا تالله لقد آثرك الله علينـــا " . (4)

وقوله : "قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم " . (5)

وقوله : " ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا ممّا رزقناهم تالله لتسألنّ عمّا كنتم تفترون" . (6)

وقوله : "تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزيّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليّهم اليوم ولهم عذاب أليم " (7)

وقوله : "وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبريـــن" (8)

وقوله : "تالله إن كنّا لفـــي ضلال مبيـــن" (9)

فهذه مجموعة أساليب القسم التي جاءت بحرف (التاء) عوضا عن الفعل ، ولقد سبقت الإشارة إلى أن (التاء) تفيد التعجب زيادة على القسم ** والتعجب منه تعالى (قد يدل على محبة الله الفعل نحو«عجب ربّك من شابّ ليس له صبوة»

---

1- البرهان في علوم القرآن ج 3 / 43 . * سورة لقمـان / 13 .

2 - 3 - 4 - 5 - سورة يوســف / 73 ، 85 ، 91 ، 95 .

6 - 7 سـورة النحل / 56 ، 63 .

8- سـورة الأنبياء / 57 .

9- سـورة الشعراء / 97 .

** الصفحة 23 من الفصل الأول .

وقد يدل على بغض الفعل لقوله : "وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله"(1)، وكأنه تعالى، وصف تماديهم في الكفر بالبغض، لا أنه تعالى تعجب من كفرهم فهو غني عن العالمين، وقد يدل على امتناع الحكم وعدم حسنه ، كقوله : ( كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ) وقد يدل على حسن المنع منه وأنه لا يليق به فعله، كقوله : "كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم"(2).

فأي وظيفة من هذه الوظائف يمكن أن تفيدها (تاء القسم) في الآيات السابقة :

إن الآيات الأربع الأولى من سورة يوسف : أوردها القرآن الكريم على شكل حوار، مرة بين إخوة يوسف (عليه السلام) والقائمين على خزائن الملك ومرة بين يعقوب (عليه السلام) وأبنائه ، ومرة ثالثة بين يوسف وإخوته بعدما عرفوه ، ومرة رابعة بين يعقوب (عليه السلام) ومن حوله .

في المرة الأولى: أفاد القسم معنى التعجب مما أضيف إليهم من سرقة ، فهو تعجب إنكار وبغض لما اتّهموا به من سرقة لذلك أجابوا على القسم بقولهم: (لقد علمتم) "فاستشهدوا بعلمهم لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومداخلتهم للملك ..."(3)

وفي المرة الثانية: كانت حال يعقوب (عليه السلام) أمام أبنائه تستدعي العطف عليه لما أصابه من فقد إبنه الذي حزن عليه أشد الحزن ،وما فتئ يذكره ،فأنكروا عليه ذلك وتعجبوا منه تعجبا مشوبا بالعطف عليه لأنهم كانوا متأكدين في قرارة أنفسهم من ضياع يوسف .

وأما في الآية الثالثة : (تالله لقد آثرك الله علينا) فإن القسم يمكن أن يفيد دلالة الاعتراف بالخطأ بدليل قولهم ( وإن كنا لخاطئين) فهو تعجب ندم على الخطيئة متلواً بإظهار التّوبة .

أما في الآية الرابعة : (قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم) فقد ورد على لسان الحاضرين من حول يعقوب عندما قال لهم : "إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون" (4) ولم يكن عندهم شك في ضياعه ، لذلك أقسموا متعجبين من ذهابه

---

1- سورة آل عمران/ 101 .

2- البرهان في علوم القرآن ج 2/ 14 بتصرف .

3- الكشاف م 2/ 334 .

4- سورة يوسف/ 34 .

عن الصواب قدما في إفراط محبته ليوسف ولهجه بذكره وقد يدل القسم هنا على حسن المنع وأنه لا يليق به ذكره، بعدما أصبح من الميئوس منه.

أما آيات سورة النحل: فقد وردت في وصف حال الكافرين والمشركين في تشبثهم بعبادة الأصنام وعدم الاستجابة للرسل، سواء كان ذلك محكيا عن كفار قريش وحالهم مع محمد "صلى الله عليه وسلم" أو عن الأمم السابقة مع رسلهم، فالعبرة واحدة.

والقسم في الآيتين تحتمل إفادته بغض الله تعالى فعلهم وهو جعلهم للآلهة التي لا تضر ولا تنفع نصيبا من أنعامهم ورزوقهم تقربا لها، هذا في الآية الأولى، أما في الآية الثانية: فقد بغض الله فعلهم المتمثل في استجابتهم للشيطان وعدم استجابتهم للرسول (ص) ومما يدل على أن التعجب قد أفاد بغض الفعل وإنكاره: أنّ القسم في الآيتين جاء متبوعًا بما يفيد الوعيد وهو قوله (لتسألن) في الأولى و( فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) في الثانية.

وأما آية (الأنبياء) فقد سبقت الاشارة اليها بالصفحة (23) من الفصل الأول وأما آية الشعراء (تالله إن كنا لفي ضلال مبين) فقد جاء القسم على لسان الكافرين وهم يختصمون في جهنم بدليل قوله قبلها: "وقالوا وهم فيها يختصمون" (1) مقرين على أنفسهم بالضلالة (إنْ كنا لفي ضلال مبين) وكأنهم تعجبوا من سوء حالهم في جهنم تعجب ندم وتوبيخ لعدم استجابتهم لما كان يدعوهم إليه أنبياؤهم من الهداية والتوحيد، فتأسفوا على ما صدر منهم في الدنيا من تسويتهم الآلهة بالله الواحد "إذ نسويكم بربّ العالمين" (2) وتمنوا العودة إلى الدنيا ليتعظوا "فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين" (3)، واختصاص تاء القسم بالتعجب يدل على "أن المقسم عليه بها، لا بد أن يكون غريبا" (4) وغرابته تأتي من أنهم لم يكونوا متوقعيه من قبل، فلما رأوه حقيقة واقعة تعجبوا منه، لذلك كان جواب القسم مؤكدا (بإنْ) الخفيفة في هذه الحالة ومثله قوله تعالى:

---

1- سورة الشعراء / 96.

2- سورة الشعراء / 98.

3- سورة الشعراء / 102.

4- النحو الوافي ج 2/ 477.

"تالله إنْ كدت لتردين" [1] حيث ورد في معرض الحديث المتبادل بين أهل الجنة: "فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون" [2] وجاء الفعل (أقبل) ماضيا "على عادة الله في أخباره" [3]، وآية القسم وردت على لسان أحد أهل الجنة وكان من المصدقين في الدنيا، وكان له قرين ينهاه عن ذلك: "أإنك لمن المصدقين"، "أإذا مِتنَا وكنا ترابا وعظاما، إنا لَمَدِينُون" [4] فكان جزاؤه النار: "فأطلع فرآه في سواء الجحيم" [5] فقال الرجل الصالح: تالله إن كدت لتردين" مقسما قسما فيه تعجب وغرابة من سوء حالهِ تعبيرًا عن كرهه وبغضه النار.

سبق أن الأقسام الواردة بالحرف (الواو) تمثل أغلب الأقسام الصريحة في القرآن الكريم، ولقد افتتحت خمس عشرة سورة بالقسم بالواو، وكلها مكية وهي: (والصافات)، و (والذاريات)، و (والطور)، و (والنجم)، و (والمرسلات)، و(والنازعات)، و (والسماء ذات البروج)، و (والسماء والطارق)، و (والفجر)، و (والشمس)، و (والليل)، و (والضحى)، و (والتين)، و (والعاديات)، و (والعصر)، وكما أقسم الله تعالى بتلك الأمور المحسوسة المشاهدة في السور السابقة المفتتحة بالقسم (بالواو)، لتقوم مقام الدليل والبرهان على حقيقة الأمور المغيبة المقسم عليها، فكذلك أقسم بذاته الجليلة، وأمر نبيه أن يقسم بها وذلك في المواضع التالية: قال تعالى: "فوربّ السّماء والأرض إنّه لحق" [6] و "قل إي وربّي إنّه لحقّ" [7].

و "قل بلى وربّي لتبعثنّ" [8].

و "فوربّك لنحشرنّهم والشّياطين" [9].

---

1- سورة الصافات / 56.

2- سورة الصافات / 50.

3- الكشاف م 3/ 340.

4- سورة الصافات / 52 و 53.

5- سورة الصافات / 55.

6- سورة الذاريات / 23.

7- سورة يونس / 53.

8- سورة التغابن / 7.

9- سورة مريم / 68.

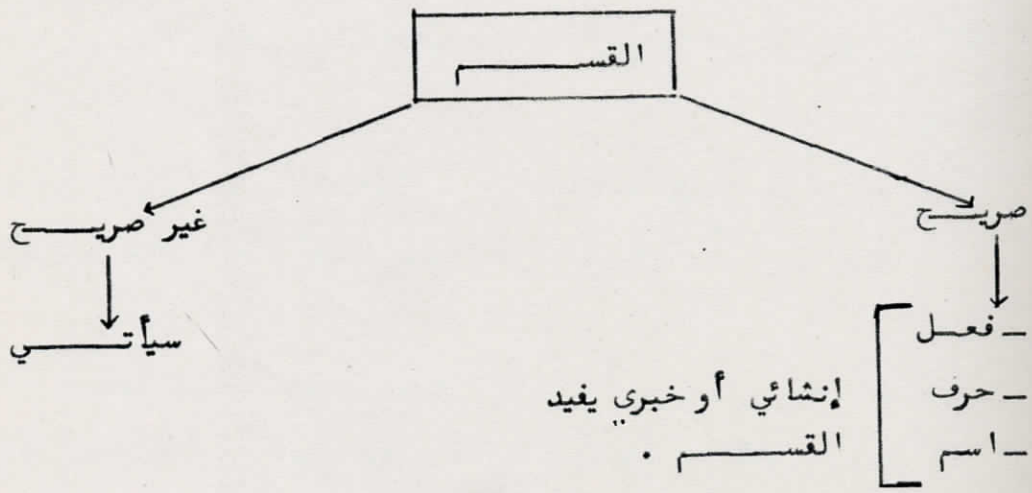
و "فوربك لنسألنهم أجمعين" (1).

و "فوربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم" (2).

كما أقسم تعالى بعمر نبيه (صلى الله عليه و سلم) في قوله: "لعمرك إنهم في سكرتهم يعمهون" (3) و قوله: " وقال الذين كفروا، لا تأتينا الساعة، قل بلى و ربي لتأتينكم، عالمُ الغيب لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين، ليُجزِيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة و رزق كريم" (4).

وبعد فهذه معظم أنواع الأساليب القسمية في القرآن الكريم، منها ما صرح فيه بفعل القسم ك (أقسم وحلف)، ومنها ما قامت فيه الحروف (كالواو والتاء) مقام الفعل ومنها ما صدر بإسم ك (العمر) مثلا، ويجدر بنا أن نسمي هذا النوع من القسم بإسم (القسم الصريح) وهو إما مركب إنشائي لإفادة معنى القسم وإما مركب خبري (فعلي أو اسمي) يتضمن معنى القسم، و يمكن أن نمثل ذلك بالمخطط التالي:

مخطط رقم 5:




---

1- سورة الحجر / 92.

2- سورة النساء مد / 65.

3- سورة الحجر / 72.

4- سورة سبأ / 3 و 4.

## دلالات المقسم به :

لقد سبق القول: إنّ العرب تَوَسَّعُوا في أساليب القسم وصاغوها صياغات متنوعة ومختلفة ، أما حين يتعلق الأمر بالقرآن الكريم ، فإن العلماء وخاصة البلاغيين منهم متفقون على أنه ليس في القرآن شيء زائد ولا يمكن أن يوجد فيه حرف لم يؤد وظيفته ، وربما رأى من لا علم له بالبلاغة وفنونها أن في القرآن تكرارا ، ولو كان الأمر كذلك لبطلت فكرة الإعجاز من بعض وجوهها على الأقل ، غير أن مجاراة القرآن العرب في ما ألفته من أوجه التعبير ومنها القسم ، لا ينفي عنه فكرة الإعجاز .

لقد أقسم العرب بأمور كثيرة منها ، السماء والريح والأرض والأيام والبلد والخيل ... في أساليب متنوعة، منها ما يفيد القسم صراحة ومنها ما يدل على الإشهاد ، وهو أن يشهدوا أمورا أو أشياء تقوم مقام الدليل على صدق نواياهم وتعلق هممهم بما يقولون ، فتتنزل تلك الأمور عندهم منزلة المقسمات بِهَا :

من ذلك قول « أبي العريان الطائي يمدح حاتما الجواد :

لقد علموا والقدور تعلمه - ومُسْتَهِلّ الغِرارِ* مطرد

أَنْ ليس عند إعترار** طارقها - لديك إلا إستهلالُهَا مدد .

وقول الراعي :

إن السماء وإن الريح شاهدة - والأرض تشهد والأيام والبلد

لقد جَزَيْتَ بَنِي بَدْرٍ بِبِغْيَتِهَا - يوم الهباءة يوما ماله قود .

وقول عنترة :

والخيل تعلم والفوارس أنني - فرقت جمعهم بضربة فيصل (1) .

فهذه أمثلة من أقوالهم التي أشهدوا فيها أمورا لا سطوة لها على النفوس ، وكأنهم يريدون بذلك أنه إذا سئلت هذه الأشياء وقدر لها أن تنطق لشهدت على صدق دعواهم ...

---

* مستهل الغرار : إستلال السيف .

** الاعترار : طلب المعروف .

1- التعبير الفني في القرآن ص/ 242 ، نقلا عن كتاب (إمعان في أقسام القرآن ) لعبد الرحمن فراهي ص/ 39 .

كما أقسموا الى جانب ذلك بأمور يعظمونها منها (الله) و ( الكعبة) والملاحظ أن الأمور المقسم بها في القرآن العظيم منها ما يدل على العظمة صراحة كلفظ الجلالة والرسول (صلى الله عليه و سلم) والبلد الأمين ، ومنها ما يظهر أنه شيء عادى ، فهل هذا الصنف الأخير ساقه القرآن لمجرد الإشهاد فقط جريا على سنن العرب في مخاطبتها ؟ أم أن فيه وجها للعظمة مخفيا ؟

ينقل الدكتور بكري شيخ أمين عن العالم الهندى عبد الرحمن فراهي قوله : "لما كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات كثر القسم بها ، حتى ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود على جهة التعظيم ، ولكنك إذا سرحت النظر في كلام العرب وغيرهم وجدت أنهم ربما استشهدوا بأشياء لم يعبدوها ولم يعظموها وإنما أرادوا الاستدلال بجعل المقسم به شاهدًا على أقوالهم ، وضرب المؤلف عدة أمثلة من الشعر العربي للدلالة على أنهم أقسموا بأشياء عادية لا لغاية تعظيمها أو لكونها مقدسة بل لتكون شاهدًا على ما يقولون ودليلا على ما يتكلمون ...

وانطلاقا من هذا المنظور تناول أقسام القرآن وبيّن أنها لا تكون للتعظيم إلا إذا كان المقسم به هو الله تعالى وشعائره وما عدا ذلك فهو لمحض الاستدلال وحجته في ذلك ، أن القرآن العظيم يذكر الأمور الدالة على أسلوب القسم وأخرى على أسلوب الآية والعبرة وكلها إشهاد لمن يتفكر فيها، قال الله تعالى : "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون" (1).

ومثل هذا كثير، يذكر الآية ويحتج بها، ثم ترى هذه الآيات إستشهد بها على أسلوب القسم ، فأقسم بالسماء والأرض والقمر والليل والنهار والفجر والضحى. إنّ العاقل لا يتوهم أن الله تعالى يضع مخلوقاته موضع المعبود المقدس ، وقد

---

1- البقرة / 164 (مدنية).

صح القرآن بكون هاتيك المقسم به من السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم وغيرها مسخرة طائعة ، ففي نفس القسم بها دلالة على أن المراد بها محض القسم بها" (1) .

هكذا يرى عبد الرحمن فراهي أن أساليب القسم، في القرآن منها ما هو دال على القسم وذلك حين يكون المقسم به معظما ، ومنها ما هو دال على الشهادة والاستدلال، وذلك حين يكون المقسم به عاديًا ، وكلها إشهاد أي أقسام، لأن الكثير من هذه الأمور التي ذكرها القرآن في أساليب خبرية دالة على العبرة والاستدلال ، قد وردت هي نفسها في أساليب إنشائية على صيغة قسم ، وبهذا يبطل حجة من يرى أن المقسم به يكون دائما للتعظيم .

غير أننا إذا تأملنا أساليب القسم في القرآن العظيم وخاصة منها ما جاء في السور المكية التي هي محور هذه الدراسة نجد أنّ المقسم به من حيث الدلالة التي يؤديها في السياق الوارد فيه ينقسم إلى قسمين كبيرين هما :

أ ـ القسم بالخالق ب ـ القسم بالمخلوق .

ولكل منهما دلالات تخصه :

أ ـ القسم بالخالق : لقد أقسم الله تعالى بذاته في مواضع ثمانية من القرآن الكريم * وأمر نبيه (ص) أن يقسم بها ، وذلك لأن ذاته جليلة عندنا وعنده ، وأن القسم بها لهو أرفع درجات القسم ، لأن دلالتها التعظيمُ والتقديس .

والمشهور عند العرب أنهم كانوا يلتزمون عند حدود الأيمان التي تصدر منهم ، حتى في الحالات العصبية كالغارات والحروب ، لذلك جاءهم القرآن الكريم بأساليب القسم المتنوعة من أجل تأكيد حقيقة الرسالة المحمدية ، لِما جبلوا عليه من تعظيم للقسم و محافظة على الأيمان .

---

1ـ التعبير الفني في القرآن ص: 241 و 242 و 243 نقلا عن (إمعان في أقسام القرآن) ص : 39 .

* سبعة منها بالصفحة ( 76، 77 ) واحد بالصفحة (65) مع الإشارة إلى أن صاحب البرهان في علوم القرآن عدّ منها سبعة ولم يورد الآية الثالثة من سورة سبأ .
البرهان في علوم القرآن م 3/ 40 .

ولقد جاء عن بعض الأعراب أنه لمّا سمع قوله تعالى: " وفي السّماء رزقكم وما توعدون ، فوربّ السّماء والأرض إنّه لحقّ" صاح وقال: " من الذي أغضب الجليل حتى ألجاه الى اليمين؟" قالها ثلاث مرات ثم مات .(1)

وهذه الرواية تدل على أن العرب كانوا يعظّمون القسم وخاصّة إذا كان المقسم به هو الله تعالى ، ويغلب على الظّن أن العرب كانوا منذ أمد بعيد يؤمنون بالله ويعبدونه ويوحدونه" ويذكر أهل الأخبار المسلمين أن العرب جميعا من قحطان وعدنان كانوا على دين إبراهيم عليه السلام أي موحدين ويعبدون الله عز وجل ولا يشركون به أحدًا ، وظل الأمر على ذلك حتى ظهر عمرو بن لحي زعيم قبيلة خزاعة التي أخرجت جرهم من مكة ... وينسب إلى عمرو بن لحيّ الخزاعي إفساد دين إبراهيم الذي كان عليه العرب ، إذ نشر بينهم عبادة الأصنام ..."(2)

وما عبادة الأصنام عندهم إلا وساطة بينهم وبين الله بعد فساد ديانتهم بطول العهد وتغيير الأحوال ، لذلك لا يستبعد أن تكون فكرة (اللّه) قد عاشت في قلوب أغلبهم دالة على العظمة والتقديس . وفيما عدا المواضع الثمانية السابقة ، فإن القسم في القرآن الكريم كان بالمخلوقات . والسؤال الذي يمكن طرحه هو: إنْ كان القسم بذات الله دالا على التقديس والتعظيم ، فما سر القسم منه تعالى بمخلوقاته ؟

وهل هو قسم أم لمجرد الإشهاد والاستدلال جريا على طريقة العرب في ذلك؟

ب- القسم بالمخلوقات:

لا شك أن هناك اختلافا بين ما إتخذته العرب إستشهادًا واستدلالا على صدق النية والوفاء بالعهد ، كالأمثلة السابقة وبين ما أقسم الله به من مخلوقاته .

---

1- البرهان في علوم القرآن م 3/ 41 والإتقان في علوم القرآن ج 2/ 133 ولم يذكر الموت ، ولقد سبق ذكر هذه الرّواية بالصّفحة: 53

2- النّظم الإسلامية د. إبراهيم أحمد العدوى الناشر مكتبة الانجلو المصرية ط/ 72 ص 80 الهامش نقلا عن إبن الكلبي (الأصنام) ص: 28 - 29 .

(زيد والله إنّه قائم أو لقائم)، احتمل كون المتأخر عن القسم خبرًا عن المتقدم عليه واحتمل كونه جوابا ، وجملة القسم وجوابه الخبر»[1] ولعل السبب في احتمال كون المتأخر عن القسم جوابا له هو مجيئه مؤكدًا بإنّ واللام أو بأحدهما وهما مختصان بجواب القسم .

ج – إذا تأخر القسم عن الشرط يكون الجواب للشرط [2] .

لقد رأينا من خلال ما سبق أن اللغة العربية تتميز بظاهرة التوسع في الاستعمال، لذلك تعددت الأساليب من حيث بناها السطحية، ومنها أسلوب القسم فاستعملوا فيه الأفعال المشهورة لديهم لتأدية القسم ، كما استعملوا حروفا نائبة عن الأفعال وأجروا ألفاظا بعينها مجرى أفعال القسم أيضا، كما رأينا، أن أسلوب القسم يعتريه الكثير من الحذف سواء في صدر جملة القسم أو في عجزها ، والضابط الأساسي لظاهرة الحذف هو أن يقوم عليها دليل سواء كان هذا الدليل لفظيا أو معنويا .

وفيما يلي توضيح لحالات الحذف بالمخطط التالي :

---

1– المغني ج 2/ 718 بتصرف .

2– سيبحث لاحقا عند الكلام عن اجتماع الشرط بالقسم .

إن ما أقسم به تعالى من مخلوقاته ليس من قبيل الاستدلال والاشهاد فقط وإنما هو مختار بدقة لِوَجْهٍ من وجوه الحكمة التي تخفى علينا أحياناً .

ولذلك قد تنوعت المقسمات بها وتعددت ولعل أرفعها دلالة : القسم بالرّسول محمد (ص) وبالقرآن الكريم وبالملائكة ، فمن الأول قوله تعالى: "لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" (1) ومن الثاني قوله تعالى : "يس والقرآن الحكيم." (2) وقوله : "والطور وكتاب مسطور" (3) ومن الثالث قوله تعالى: والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا" (4) .

فوجه العظمة والتكريم هنا واضح بيّن : فالأنبياء والرسل مكرمون ومصطفون من دون سائر البشر وذلك لما أُسْنِدَ إليهم من تبليغ الرسالات السماوية ، والملائكة صنف من المخلوقات سخرهم الله للقيام بشؤون الكون وتدبير أموره والكتب السموية دساتير هداية منه تعالى إلى البشر .

أما القسم بباقي المخلوقات ، فمنه ما يدل على أشياء عظيمة كالشمس والقمر والليل والنهار ، فالله تعالى حين يقسم بهذه الأشياء العظيمة فإنما المراد منها تنبيه العقول وجعلها تلتفت إليها لتبحث فيها بحثا سببيا ، فترتبط بالسّبب المباشر وتترك المسبب ، خاصة وأن هذه الظواهر الكونية العظيمة منها ما إفتتن به النّاس فعبدوه ، كالشمس والقمر والنجوم " وعبد العرب في الجاهلية بعض مظاهر الطبيعة التي تحيط بهم كالأشجار وعيون الماء والكهوف والحجارة وكذلك الاجرام السموية كالشمس والقمر . . ." (5) ، لذلك يأتي القسم في القرآن بشيء منها دالا على ما يطرأ عليها من تغيير وتبديل كما في قوله تعالى : "والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاّها ، والليل إذا يغشاها" (6) :

---

1- سورة الحجر / 72 .

2- سورة يس / 1 - 2 .

3- سورة الطور / 1 .

4- سورة الصافات / 1 - 3 .

5 - النظم الاسلامية / ص 77 الهامش

6- سورة الشمس / 1 - 4 .

فالذين يعظمون الشمس ويفتتنون بها يرون فيها ما يناقض ذلك التعظيم وتلك الفتنة لأن الذى يُعْبَدْ لا ينبغي أن يأفل ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لما رأى الشمس : "هذا ربّي هذا أكبر ، فلمّا أفلت قال يا قومي إنّي بريءٌ ممّا تشركون" (1) .

وكذلك الأمر بالنسبة للذين يعبدون الملائكة يقول تعالى: "والصّافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا . . " (2) إن هؤلاء الملائكة الذين إفتتنتم بهم وعبدتموهم يتلون ذكراً ويسبّحون ، وليسوا معبودين إنّما هي مخلوقات لله تعالى .

فالقسم بها إذن يُنبّه العقول إلى ما يطرأ على هذه المخلوقات من تغيير وما يعتريها من تبديل ، وأن هذه ليست حال المعبود التي تتطلّب الكمال والقدرة . فالمعبود هو الله خالق هذه الأشياء ، فالدعوة الى توحيد الخالق واضحة : "إن إلٰهكم لواحد" (2) لقد أقسم تعالى بأشياء نراها ونحسها وتبدو لنا عظيمة ، ولكننا لم ننتبه الى ما يعتريها من تغيير ، فأخبرنا أنها ليست معبودة وأن العبادة لله الواحد القهار وهذا ما عبر عنه جواب القسم "إن إلٰهكم لواحد" . .

وقد يكون المقسم به غير عظيم ولا مفتتن به وإنما هو شيء عادى قد لا يؤبه له ولا يلتفت إليه ، فما الحكمة من التنبيه إليه إذن ؟

لعل الحكمة من وراء ذلك هي التنبيه الى ما فيه من منافع نحن عنها غافلون من ذلك قوله تعالى: "والتّين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم" (3) وقوله : "والعاديات ضبحا . . " (4) ولا يخلو تفسير من الإشارة الى أن المقصود من (التّين والزيتون) هو الفاكهة المعروفة وما فيها من منافع ، وقد يكون المقصود منها البقاع المقدسة التي سميت بإسمها لاشتهارها بهما .

---

1- سورة الأنعام / 78 .

2- سورة الصافات / 1 - 4

3- سورة التين / 1 - 4 .

4- سورة العاديات / 1 .

« ومعنى القسم بهذه الأشياء : الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة وسكنى الأنبياء والصالحين ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه ، والطور المكان الذى نودى منه موسى ومكة مكان البيت الذى هو هدى للعالمين ومولد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومبعثه »(1)

وسواء كان القصد هذا أو ذاك ، فالحكمة من هذه الأشياء المقسم بها هي تنبيه الناس الى ما فيها من منافع أو الدعوة الى تعظيمها وتكريمها باعتبارها مرتبطة بأحداث جَلِيلة تتعلق بأمر النبوة والأنبياء كما هو الشأن في أمر العاديات (الخيل العادية) المعدة للجهاد والإغارة على الأعداء ، وإن كانت من المخلوقات العادية ، إلا أن الله تعالى أقسم بها وكرمها لأنها مسخرة في أمر عظيم هو إعلاء الدين ونشره وقتال أعدائه .

وقد يدلّ المقسم به صراحة على أ- المكان قصد تعظيمه وتقديسه كأن يكون مهبطا للوحي أو محلا للعبادة كمكة المكرمة وذلك في قوله تعالى : "لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حلّ بهذا البلد" وقوله : "والطور وكتاب مسطور"* وهو الجبل الذى كلم الله منه موسى عليه السلام .

ب- الزمان : وما يجرى فيه من شعائر وعبادات للفت الانتباه إليها وتعظيمها من ذلك قوله تعالى : "والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر."(2) أقسم بالفجر مثلما أقسم بالصبح إذا تنفس ، فيكون الفجر آية من آيات الله الدالة على تبدد الظلام وابتداء السعي ، وقد يكون المراد ، الوقت المخصص للعبادة التي هي الصلاة المعروفة بصلاة الفجر ، وفي ذلك حضّ للمسلمين على إقامتها ويعطف على ذلك (وليال عشر) وهي عشر ليال من ذى الحجة تعظيما للشعائر التي تقام فيها وهي أعمال الحج ،

---

1- الكشاف ج 4/ 269 .

* سبق ذكرهما قبل قليل .

2- سورة الفجر / 1-4

وقد جاءت منكرة من بين ما أقسم به : "لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي العشر، بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها"[1] و (الشفع والوتر) إما الأشياء كلها، شفعها ووترها وإما شفع هذه الليالي ووترها، شفعها يوم النحر لأنه عاشرها ووترها يوم عرفة لأنه تاسعها، ثم عطف على ذلك (بالليل إذا يسر) : إذا يمضي كقوله (والليل إذا عسعس) و(والليل إذا أدبر) والمراد مطلق الليل المعهود لديكم فعظمته لا تقل عن عظمة تلك الليالي المخصصة بالعبادة.

والملاحظ أن القسم بالمخلوقات سواء ما يتعلق منها بالمكان أو الزمان أو الظواهر الكونية الأخرى المشاهدة كالشمس، والقمر، والنهار، والسماء، والأرض والنجوم، وهي كلها من آيات الله، يشكل غالبية الأقسام الواردة بالواو" فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها"[2] ولقد رأينا أن منها ما كان معظما الى درجة العبادة، فجاء القسم به ليلفت الأذهان الى أن التعظيم والعبادة لا يكونان إلا لله وأن هذه المعبودات يعتريها من التبديل والتغيير ثم الفناء، ما ينفي عنها صفات المعبود الذى لا يتغير ولا يزول، كما رأينا أن من المقسمات بها ما يبدو عاديا غير ذى قيمة عندنا كالقسم بالخيل والريح والفلك، من ذلك مثلا قوله تعالى : "والذاريات ذَرْوًا، فالحاملات وقرًا، فالجاريات يسرًا، فالمقسمات أَمْرًا."[3] حيث أقسم بالريح التي تذرو التراب والسحاب الذى يحمل المطر، والفلك التي تجرى في البحر بيسر ثم عطف على ذلك كله بالملائكة التي تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها بأمر منه تعالى .

ولقد كان العطف بالفاء ولعلّه لإفادة التعقيب بحيث أنّ هذه الأحداث تجرى متعاقبة ومنتظمة لحكمة أرادها الله : الرياح، فالسحاب الذى تسوقه، فالفلك التي تجرى بهبوبها، فالملائكة التي تقسم الأرزاق .

---

1 ـ الكشاف م 4/ 249 .

2 ـ التبيان في أقسام القرآن ص / 7 .

3 ـ سورة الذاريات / 1 ـ 4 .

ولعل في عطف (الملائكة) على هذه الأشياء دلالة على أن هذه المقسمات بها التي قد ترونها عادية فهي عند الله لا تقل قيمة عن الملائكة لذلك قورنت معها ، لأنها من آيات الله، فلفت الانتباه الى ما فيها من منافع قد نجهلها ، ومن الأمور العادية أيضا التي أقسم الله تعالى بها، ما أمرنا صراحة بتأمله للوصول الى سر عظمة الخالق قال: "أفلا ينظرون الى الإبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت" (1) فهذه المذكورات هنا من سماء وجبال وأرض ونظير الجبل أي (الإبل) قد جاءت في مواضع أخرى مقسما بها .

فالقسم بالمخلوقات العادية في القرآن ليس لمجرد الاستدلال والاستشهاد على غرار ما هو موجود عند العرب وإنما القصد منه تنبيهنا الى أنه دليل على عظمة الخالق وقدرته مهما يبدو لنا ذلك المقسم به منحطا أو وضيعا أو مسخرا وقد قال تعالى: "إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا" (2) وما ضرب الأمثل إلا للعبرة والاستدلال على عظمة الخالق ومن هنا تختلف دلالات الأمور المقسم بها ، من الله الى العباد ، فإقسام الله تعالى بمخلوقاته إنما يكون عن اختيار وانتقاء لما ذكر من الدلالات السابقة ، وأما إقسام العباد بالأمور العادية غير العظيمة ولا المقدسة لديهم ، فإنه على سبيل الاشهاد والاستدلال كما سبق .

بعد أن تحدثنا عن كل من القسم بالخالق والقسم بالمخلوق يمكننا أن نحدد دلالات كل منهما حسب المخطط التالي :

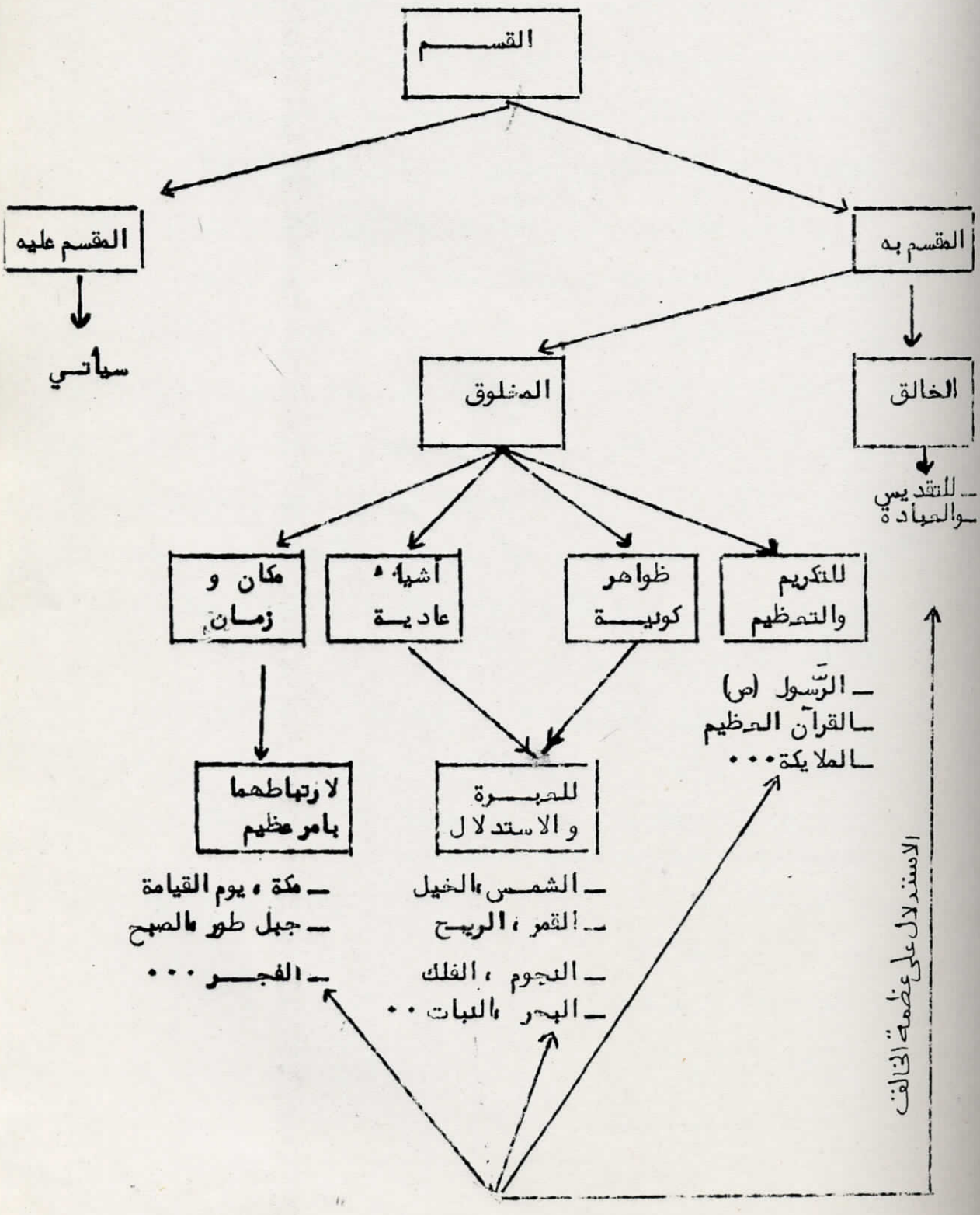
---

1- سورة الغاشية / 1 - 4 .

2- سورة البقرة / 26 مدنية .

المخطط رقم : 6

## دلالات المقسم به



## دلالات المقسم عليه :

لقد تحدثنا عن المقسم به والدلالات العامة التي يفيدها، والآن نتعرض لدلالات المقسم عليه وهو: (جواب القسم)، الجدير بالذكر أن المقسم عليه هو المراد من المقسم تحقيقه وتوكيده، ونفي الشك عنه، ومن هنا كان الغالب على الأساليب القسمية في القرآن العظيم أن يكون جوابها خبريًا موجبا مؤكدًا بإنّ واللام الداخلة على خبرها، كما في قوله تعالى: " فوربّ السماء والأرض إنّه لحق " (1) أو مؤكدًا باللام الداخلة على المضارع المختوم بنون التوكيد كما في قوله تعالى: « فوربّك لنسألنّهم أجمعين عما كانوا يعملون " (2)،

والمقسم عليه في القرآن غالبا ما يكون من الأمور الغائبة والخفيّة التي لا تثبت بالحسّ والمشاهدة، وإنّما يتوصل إليها بالعقل والتفكر، كالإيمان بالله ويوم القيامة وتصديق الرّسل، لذلك كان القسم على أصول الإيمان بالأمور المحسوسة والظاهرة في الغالب، لتكون دليلا على تلك المقسمات عليها الخفية الغائبة، ولما كان القرآن المكي يهدف إلى تربية العقيدة أساسا وإرساء قواعد الإيمان بالدرجة الأولى، فإن الدلالة الجامعة لمعظم الأمور المقسم عليها هي تثبيت أصول الايمان في النفوس، وفيما يلي ذكر أصناف المقسم عليه :

1ـ الدلالة على التوحيد: كما في قوله تعالى: " والصافات صفًا، فالزّاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد " (3).

2ـ الدلالة على صدق القرآن: كما في قوله تعالى: " فلا أقسم بمواقع النجوم... إنه لقرآن كريم " (4) وقوله: " حم، والكتاب المبين، إنا أنزلناه في ليلة مباركة " (5) وقوله تعالى: " حم، والكتاب المبين، إنّا جعلناه قرآنا عربيًا لعلّكم تعقلون " (6)

---

1ـ سورة الذاريات / 23.

2ـ سورة الحجر / 92، 93.

3ـ سورة الصافات / 1 ـ 4.

4ـ سورة الواقعة / 75 و 77.

5ـ سورة الدخان / 1 ـ 3.

6ـ سورة الزخرف / 1 ـ 3.

وقوله تعالى : " إن هو إلا وحي يوحى " (1) .

3- الدلالة على صدق النبوة : كما في قوله تعالى : " يس ، القرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم " (2) . ومنه : " ن ، والقلم وما يسطرون، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون " (3) ومنه : " والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى " (4) ومنه : " فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون " (5) ومنه تسلية الرسول (صلى الله عليه وسلم) وتصبير المؤمنين ووعدهم أن مصير الكافرين هو الهلاك، وذلك في قوله تعالى : " ما ودعك ربك وما قلى " (6) .

فالنبوة والقرآن هما الركنان الأساسيان اللّذان تنبني عليهما الرّسالة الاسلامية لذلك جاء القسم عليهما في بعض الآيات منفيا ليؤكد عظمة القسم من جهة ، وليبين أن التصديق بهما عند ذوي العقول الرّاجحة لا يستلزم قسما من جهة ثانية، وذلك أن أمر الدين قد وضح ببعثه الرسول (ص) وتأييده بالمعجزة فلا يُحتاج إلى قسم يُقسم به على صدق ما جاء به .

4- الدلالة على الجزاء والوعد والوعيد : لقد عبرت الآيات القرآنية على أن يوم القيامة وعد صادق وحقيقة لا بد منها تعبيرا مباشرا يستفاد من دلالات الألفاظ نفسها كما في قوله تعالى : " والذّاريات ذرواً ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ، إنما توعدون لصادق وإنّ الدّين لواقع " (7) وقوله : " فوربّ السماء والأرض إنه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون " (8) وقوله : " والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا عُذْراً أو نُذْراً إنّما توعدون لواقع " (9) .

+++

1- سورة النجم/ 4 .
2- سورة يس / 1- 3
3- سورة القلم / 1 - 3 .
4- سورة النجم/ 1-2 .
5- سورة الحاقة / 38 - 41.
6- سورة الضحى / 3 .
7- سورة الذاريات / 1 - 6 .
8- سورة الذاريات / 23 .
9- سورة المرسلات / 1 - 7.

وقوله : " إن عذاب ربّك لواقع، ما له من دافع" (1) .

وتارة ورد التعبير عن يوم القيامة في شكل صورة تحمل الذهن على التأمل والتدبر وتخييل المشاهد والمواقف من ذلك قوله : "يوم ترجف الراجفة" (2)، صورة تبعث على الخوف والهول خاصة عندما يتلوها تصوير لحالة النفوس " تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة" (2)

إنها صورة من الذعر تستولي على النفوس منذرة بعظمة يوم القيامة وشدّته ومن ذلك قوله : "قتل أصحاب الأخدود" (3) حيث يبدو هول المشهد وبشاعته "النار ذات الوقود" (3) التي : " إذ هم عليها قعود" (3) .

فهنا وعيد للمكذبين بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ووعد لأصحابه المؤمنين بأن الله سوف ينصرهم ويهزم أعداءهم في الدنيا ويعد لهم العذاب المقيم في الآخرة مثل ما حاق بأصحاب الأخدود* فيعلمون أن كفارهم بمنزلة أولئك المعذبين المحرقين بالنار، ملعونون أحِقّاء أن يقال فيهم قتلت قريش كما قيل قتل أصحاب الأخدود" (4) .

ولأهمية البعث والجزاء تكرر القسم عليه في عدة مواضع من القرآن وبأساليب وألفاظ مختلفة ، وأمر الله نبيه (ص) "أن يقسم على الجزاء والمعاد في ثلاث آيات فقال تعالى: "زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا، قل بلى وربّي لتبعثنّ" (5) وقال : " وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربّي لتأتينّكم" (6) وقال: " ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إي وربّي إنه لحق وما أنتم بمعجزين" (7) .

والملاحظ أنه في الموضعين: الأول والثاني : جاء المقسم عليه مؤكدا باللام والنون ، كما أنه قد تقدمت الأداة (بلى) حرف القسم (الواو)، وفي الموضع الثالث ورد المقسم عليه مركبا اسميا مؤكدا بإنّ واللام الداخلة على خبرها، كما تقدمت الأداة (إي) حرف القسم (الواو) .

---

1- سورة الطور / 7-8.
2- سورة النازعات/ 6-7.
3- سورة البروج / 4- 6
*- ذكر صاحب الكشاف أكثر من رواية لهذه القصة الكشاف م 4/ 238.
4- الكشاف م 4/ 237 .
5- سورة التغابن / 7.
6- سورة سبأ/ 3 .
7- سورة يونس/ 53 .

ومن شأن الأداة (بلى) أن تُسبَق بالنفي وتفيد إبطاله ، ففي الآيـــة الأولى «إيجاب بعد النفي بـ (بلى) وإبطال لتكذيبهم بالبعث ونفيه : لأن زعمهم دليل على التكذيب ، فأكد حقيقة البعث ، بل وعطف عليها (لتبعثن)* زيادة في التوكيـــد وتفصيلا لما يعقب البعث وأن الأمر سهل هين على الله وليس كما تتوهمون لأنكـم أيها الكفار قستم الأمور على عقولكم ، والعقول قاصرة حتى على إدراك المحسوســات والإحاطة بها ، فكيف بها تدرك أموراً غائبة عن الحـس ؟

وفي الآية الثانية : أوجب ما بعد النفي بـ (بلى) على معنى أن ليـــس الأمر إلا إثباتها (أي الساعة) ثم أعيد إيجابه مؤكداً بما هو الغاية في التوكيـــد والتشديد ، وهو توكيد باليمين بالله عزّ وجل ثم أمدّ التوكيد القسمي إمدادا بمـــا أتبع المقسم به من الوصف بما وُصف به إلى قوله ليجزي** لأن عظمة حال المقسم بـه تؤذن بقوة حال المقسم عليه وشدة ثباته واستقامته ، لأنه بمنزلة الاستشهاد علـــى الأمر» (1) وذلك أنه لما كان حال المقسم به أعظم وأعلى ، كانت حال المقسم عليـه أشـد وأكـد ...

أما الآية الثالثة فقد سيقت في معرض الحديث عن الكفار المكذبيـــن الذين كذبوا بالعذاب بدليل ما قبلها (ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون - (2) لذلك كان استخبارهم عن حقيقة العذاب علـــى جهة الإنكار والاستهزاء و"إي" بمعنى نعم في القسم خاصة ، كما كان هل بمعنـــى قد في الاستفهام خاصة» (3) ، والراجح عند أهل اللغة أن (إي) تقع قبل القســم وهي حرف جواب لتصديق المخبر أو لإعلام المستخبر أو لوعد طالب (4) وواضح مـــن الآية السابقة أنها جاءت قبل القسم لإعلام المستخبرين ، وأما (بلى) فإنها تبطل النفي سواء كان نفيا مجردا كما في الآيتين السابقتين أو مقرونا باستفهام ، حقيقيـــا

*- تتمتها ( ... ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) التغابن / 7 .

**- تتمتها ( ... عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ) سبأ / 3 - 4 .

1- الكشاف م 3/ 279 .

2- سورة يونس / 52 .

3- الكشاف م 2/ 341 .

4- المغني ج 1/ 80 بتصرف .

كان أو توبيخيا أو تقريريا [1] .

5- الدلالة على خلق الانسان : والأحوال التي تعتريه وصفاته ، لأنه هو المخاطب بأصول الشريعة ، قال تعالى: "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى..." [2] وقال: "والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا إن الانسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ..." [3] حيث أقسم تعالى في السورة الأولى (والليل) على تعدد سعي الانسان وتشعب أغراضه في هذه الدنيا، كما أقسم في السورة الثانية (والعاديات) على تعدد الصفات النفسية للانسان من جشع وطمع ... وهذه الأحوال والصفات يقر بها كل إنسان في نفسه ويشهد على أنها حقيقة، ففي هذه المقسمات بها توضيح وإظهار الفطرة التي فطر عليها الانسان، ومن هنا لا يجد الانسان أمام هذه الأساليب القرآنية التي تكشف له عن حقيقة نفسه ، بدّا من التصديق بها وبما جاء به القرآن من دعوة إلى التوحيد والتصديق بالنبي محمد (ص) ..

وقال تعالى : "والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" [4]

أقسم الله تعالى في هذه السورة على أن الانسان في خسران ، أي مطلق الانسان مجردا من الهداية وغير ملتزم بمنهج سَمَوِيّ وذلك لما ركّب فيه من شهوات وأهواء والمستثنى من ذلك، الإنسان المؤمن الذي ألزم نفسه بمنهاج الدين .

---

1- مثال المقرون بالاستفهام الحقيقي : أليس زيد بقائم؟ فتقول : بلى ، وأما التوبيخي كقوله تعالى : «أم يحسبون أنا لا نسمع سِرَّهُمْ ونجواهم بلى» وأما التقريري: "ألم يأتكم نذير قالوا : بلى" المغني ج 1/ 120 ـ 121 .

2- سورة والليل/ 1 ـ 4 .

3- سورة والعاديات/ 1 ـ 7.

4- سورة والعصر كلها .

وقال تعالى : "والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلّا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم أجر غير منون فما يكذّبك بعد بالدّين، أليس الله بأحكم الحاكمين" (1).

أقسم تعالى على خلقه الانسان في أحسن صورة إستقامة واتّساقا وتكاملا ثم رده الى أسفل مرتبة وأقبحها من ضعف وهرم وما يتبعها من تشويه (إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات)، فإن الله يعوضهم في الآخرة ثوابا ونعيما، جزاء صبرهم على ما أصابهم في الدنيا من ضعف وهرم بعد القوة والشباب؛ فالأجر إذن تعويض عن خسارة أو تعب أصاب المأجور إذا حُمل الوصف (أسفل سافلين) على ما يصيب الانسان في الدنيا، أما إذا حمل على أنه تصوير لعاقبة غير المؤمن يوم القيامة فيكون تعبيرا عن قبح ما يصيبه من عذاب وعقاب.

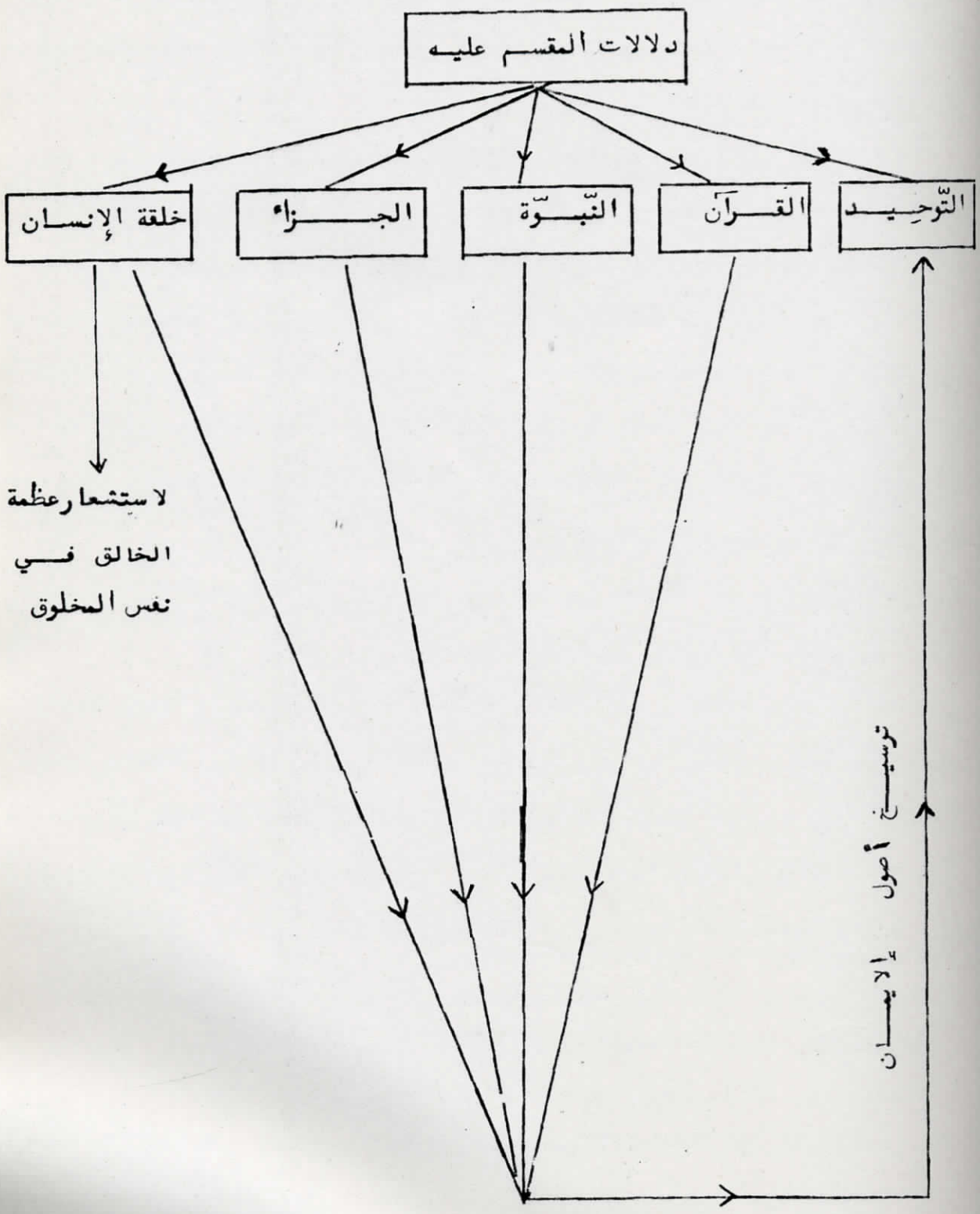
فالدلالة إذن بينة على أن الذي خلق الإنسان من نطفة ثم سوّاه رجلا ومنحه الشباب والقوة، ثم نقله من قوة إلى ضعف، ومن شباب إلى هرم، وشيخوخة، قادر على بعثه ومحاسبته. فقدرة الخالق هي المسيطرة على المخلوق والمحيطة به.

يتبين مما سبق أن الدلالات التي يهدف إليها المقسم عليه في القرآن الكريم هي التعظيم من شأن الخالق وتقديسه، وتصديق الرسول (ص) وما جاء به (القرآن الكريم)، والايمان بالبعث والجزاء، وتأمل خلقة الإنسان وأحواله لاستشعار عظمة الله في نفسه، وهذا ما نوضّحه في المخطط التالي :

---

1- سورة التين كاملة.

المخـــــطط رقم 7 -



بعد أن رأينا الدلالات التي يهدف إليها كل من المقسم به والمقسم عليه، يجدر بنا الآن أن نشير هنا إلى أن المقسم عليه كثيرا ما يحذف، فما هي الدلالات التي يؤديها بالنظر إلى السياق الذي يرد فيه ؟

قد يحذف جواب القسم إذا أريد بالقسم تعظيم المقسم به لذاته لكونه شائعا في القسم كقوله (صلى الله عليه وسلم) : «من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت» * ؛ ولكن هنا يذكر معه الفعل دون مجرد حرف القسم، كقولك فلان يحلف بالله وحده وأنا أحلف بالخالق لا بالمخلوق ونحو ذلك . .» (1)

وقد يكون هذا النوع بحرف القسم مجردا كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : كانت يمين يحلف عليها رسول الله (ص) : لا ومقلب القلوب» (2) فالمراد بالقسم هو التعظيم من شأن المقسم به وإظهاره، لذلك لم يحتج إلى جواب .

وتارة يحذف جواب القسم لكونه قد ظهر وعرف فيستغنى عن ذكره، أو دلت عليه الحال فلا يذكر صراحة، أو اكتفى القسم ما يغني عن ذكر الجواب وهذه الحالات قد تتداخل، الأمر الذي جعل تقديرات العلماء جواب القسم تختلف وتتنوع من ذلك قوله تعالى : "والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا يوم ترجف الراجفة" (3) .

فالجواب محذوف تقديره "لتبعثن" وهذا رأي البصريين لأن الظرف لا يقوم بنفسه فيحتاج إلى عامل أي لتبعثن يوم ترجف الراجفة .

واستبعد أن يكون الجواب "لأن في ذلك لعبرة" (4) لأنه بعيد والبعد عندهم يجوّز حذف الجواب، ولعل في عدم التصريح بجواب القسم دلالة على التعظيم من شأن هذا اليوم، بحيث يتخيله السامع شتى التخيلات، ويذهب فيه الفكر شتى المذاهب وقوله تعالى : "ق والقرآن المجيد . . ." (5) وقوله : "ص والقرآن ذي الذكر." (6) فيكون التقدير فيهما (إنك لمنذر) وذلك لسببين :

---

* صحيح البخاري للإمام أبي عبد الله محمد ابن إسماعيل، الطباعة المنيرية بيروت ج 4/13

1 ـ التبيان في أقسام القرآن ص : 7 .

2 ـ سنن النسائي دار الكتاب العربي بيروت ج 7/ 42 .

3 ـ سورة النازعات / 1 ـ 6 .

4 ـ سورة النازعات / 26 .

5 ـ سورة ق / 1 .

6 ـ سورة ص / 1 .

الأول : إنّ كلاًّ من الآيتين تُلِيَ بما يدلّ على أن الرسول (ص) (منذر) حيث جاء بعد الآية الأولى قوله تعالى : " بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب "[1] ، وجاء بعد الآية الثانية قوله تعالى : "بل الذين كفروا في عزة وشقاق "[2] إلى قوله تعالى : "وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ..."[2] فكلمة منذر في الموضعين دالة على الجواب المحذوف ، وهذا في حالة حمل تعجب الكافرين من حال الرسول (ص) أما في حال حمل تعجبهم مما جاء به الرسول (ص) أي القرآن الكريم فيكون التقدير (إنه لمعجز) يعني هذا القرآن ، الثاني : تلي صدر جملة القسم في الموضعين بجملة مصدرة بالحرف (بل) الذي من خصائصه نفي الكلام السابق وإبطاله ، والأصل في القسم كما رأينا ، هو توكيد مركب اسمي أو مركب فعلي مثبت يأتي بعد صدر جملة القسم مباشرة ، فيكون جوابا للقسم وعليه يكون قوله تعالى : "بل (عجبوا)" "إنكاراً لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته ، ومن كانت هذه صفته لم يكن إلا ناصحا لقومه ..."[3] وكذلك في الموضع الثاني ، لا يستقيم النظم إلا على تقدير قوله تعالى : "بل الذين كفروا في عزة وشقاق" من باب الإنكار لعجبهم الذي ليس له ما يُسِيغُه إلا العناد والجحود ، لذلك قال صاحب الكشاف عن الآيتين ( ق ... وص ...) "سواء بسواء لالتقائهما في أسلوب واحد "[4] ، وقد قدروا الجواب في قوله تعالى (ق والقرآن المجيد) "ليهلكن" بدليل (كم أهلكنا)[5] "وقال الأخفش (قد علمنا)[6] وحذفت اللام للطول مثل (قد أفلح من زكاها)[7]"[8] ، ومما اختلف فيه بين الإثبات والحذف أيضاً قوله تعالى : "هل في ذلك قسم لذي حجر"[9] ، بحيث قدر الجواب محذوفا أي (ليعذبن) مثلما عذب من قبلهم من الكافرين وذلك بدليل قوله تعالى بعد ذلك : "ألم تر كيف فعل ربك بعاد"[9].

---

1- سورة ق / 1 .
2- سورة ص / 2 و 4 .
3- الكشاف م 4/ 3 ، وربما كانت (بل) مفيدة التوكيد مثل (إن) تُثبّتُ ما بعدها ، وقال أبو القاسم الزجاجي "بل تقع في جواب القسم ، لأن المراد بها التوكيد ، ينظر البرهان ج 3/ 193 ، وهذا لا ينفي معناها : رفع خبر وإيتاء خبر بعده وفي ذلك توكيد ، لذلك وضعوها موضع "إنّ" .
4- الكشاف م 4/ 3 .
5- سورة ق/ من الآية 36 .
6- سورة ق/ من الآية 4 .
7- سورة الشمس / 9 .
8- المغني ج 2/ 719 .
9- سورة الفجر / 5 - 6 .

وهناك من يرى أن (هل) في مثل هذه الآية تأتي للتقرير[1] وقد يجاب بها القسم فتفيد معنى (إن) وحينئذ لا يقدر الجواب محذوفا .

ولعلّ في عدم التّصريح بجواب القسم في ما ذكر من الآيات ما يجعل الذهن يبحث ويتوقع ما يناسب المقام ، فيكون ذلك أبلغ في التوكيد وأوقع في النفس، وما التأويلات السابقة إلا من هذا القبيل ، ولا تعدو تصورات القارئ المتأمل أن تقدر الجواب أحد أمور أربعة : الدلالة على قدرة الخالق ووحدانيته ، أو الدلالة على صدق القرآن ،أو الدلالة على حقيقة النبوة وحقيقة البعث وما يتبعه ، وهذه الأربعة هي أصول الايمان التي دلت عليها جوابات القسم الصريحة كما رأينا بالمخطط رقم 7.

والملاحظ في الأساليب القسمية القرآنية هو المطابقة بين طرفيها (المقسم به والمقسم عليه ) بحيث لا تجد أحدهما غريبا عن الآخر من ذلك قوله تعالى: "والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك وربّك وما قلى" أقسم تعالى على (إنعامه على رسوله (ص) وإكرامه له وإعطائه ما يرضيه ، وذلك متضمن تصديقه إيّاه .

«فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضّحى الّذى يوافى بعد ظلام الليل، للمقسم عليه ، نور الوحي الذى وافاه بعد احتباسه عنه .. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه»[2] .

ومن ذلك أيضا، المطابقة في سورة الليل ، بين المقسم به وهو تعاقب الزمانين (الليل والنهار) واختلاق الخلقين (الذكر والأنثى)، وبين المقسم عليه وهو (اختلاف مساعي الإنسان) وقد يكون المراد: أن في هذا الحيز الزماني (الليل والنهار) تجرى سائر الأعمال حسنة وسيئة لذلك فصل على إثر بيان اختلاف هذه المساعي بأما ليبيّن أن هذه الأعمال منها ما هو مقبول ومنها ما هو غير ذلك ، وهذا لا يتنافى مع المطابقة بين الطرفين كما سبق . ومن ذلك أيضا قوله تعالى: "ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون" وإن لك لأجرا غير ممنون"[3] فالمطابقة بين

---

1- البرهان ج 2/ 332 وج 4/ 343 .

2- التبيان في أقسام القرآن / 50 .

3- سورة ن/ 1- 3 .

الطرفين واضحة "فإن ما سطّر الكتاب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون". (1).

وقد يكون المقسم عليه زيادة على كونه مطابقا للمقسم به ومناسبا له، مفصّلا ومصححا له، كما في قوله تعالى: "حم والكتاب المبين، إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" (2) فالكتاب المبين هو القرآن الكريم وكونه عربيا يتضمن أنه فصيح مبين، ودليل للعقلاء، فلا سبيل الى نكرانه وادّعاء عدم فهمه حيث «أقسم بالقرآن على أنه جعله قرآناً عربيا وهو من البدائع لتناسب القسم والمقسم عليه» (3).

فالتناسب والتطابق بين طرفي جملة القسم، دليل على فصاحة الأسلوب القرآني وخلوه من النّبوّ وتنافر الكلمات والعبارات، كما أنه أبلغ حجة وأقوى برهاناً ودليلاً، ومن صور المطابقة أيضا ما نجده في أول سورة النّجم: "والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحي يوحى" (4) فالنجم يهتدى به في الظلمات الحسية والقرآن يهتدى به في الظلمات المعنوية من جهل وغي "فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من رجوم للشياطين وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة» (5)، ومن ذلك قوله تعالى: "فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس، إنه لقول رسول كريم" (6).

فالمقسمات بها أمور حسية فالنجوم تظهر مرة وتختفي مرة، فكأنها رمز الرسالات السماوية التي كانت، ثم حرّفت وشوّهت بمرور الزمان وأعقبها الظلام، ظلام الجهل بحقيقة الدين، لذلك عطف على المقسم به الذي هو (الخنس الجوار الكنس) بـ (والليل إذا عسعس)، فكأنه الفترة التي أعقبت الهداية ثم جاء الصبح؛

---

1- التبيان في أقسام القرآن ص: 142.

2- سورة الزخرف/ 1-3.

3- أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي) لناصر الدين أبي سعيد عبد الله البيضاوي بيروت ج 5/ 98.

4- سورة النجم/ 1- 4.

5- التبيان في أقسام القرآن/ ص: 46

6- سورة التكوير/ 15 - 19.

إنه صبح الهداية ، ببعث النبي بالاسلام ، وكأن الا سلام هو تنفس صبح البشرية ، والمتتبع أقسام القرآن الكريم لا شكّ في أنه واجد نوعا من المطابقة والملاءمة والمناسبة بين طرفي الأسلوب القسمي ، سواء استطعنا أن نتبين ذلك أو لم نستطع ، وذلك لتناسب ألفاظ القرآن وتآلف معانيه ، إيمانا من جميع الدّارسين للأسلوب القرآني بأنه في الذروة من البلاغة والفصاحة ، بحيث لم يصل درجته أسلوب آخر .

ومن صور التناسب بين الطرفين ما نجده من العلاقة المتبادلة بين بين المقسم وبه و بين المقسم عليه ، بحيث يأتي المقسم به مقسما عليه والعكس ، وذلك حسب المناسبات ومقتضى الأحوال ، فمن ذلك قوله تعالى : "والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصّدع إنّه لقول فصل" (1) فحين أراد الله تعالى أن يؤكد لهم أن القرآن "فاصل بين الحق والباطل (وما هو بالهزل) (2) يعني أنه جدّ كلّه لا هوادة فيه" (3) والقرآن من الأمور المستحدثة بما يعبر عنه من المغيّبات ـ أقسم بالسماء والأرض لأنهما من الآيات الكونيّة الّتي يشاهدونها كلّ يوم ، وقد كانوا "يزعمون أنّ السّحاب يحمل الماء من بحار الأرض ثم يرجعه إلى الأرض ، أو أرادوا التفاؤل فسموه رجعا وأوبا ليرجع ويؤوب وقيل لأن الله يرجعه وقتا فوقتا" (4) .

لذلك كان المقسم به مما يقع تحت الحس ليتأملوه ويتدبّروه ، فيقودهم الى الايمان بما لم يتوصلوا إليه بالحس والمشاهدة .

أما حين أراد الله تعالى أن يبطل زعم المشركين ، وهو نسبتهم (اللّغوب) إليه تعالى ـ وكأنّ اليهود قالوا : إنّ الله خلق السموات والأرض في ستّة أيام واستراح يوم السبت ـ رد عليهم القرآن بإبطال دعواهم : "ولقد خلقنا السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام وما مسّنا من لغوب" (5) .

---

1ـ سورة الطارق / 11ـ13 .

2ـ سورة الطارق / 14 .

3ـ الكشاف م 4/ 242 .

4ـ الكشاف م 4/ 242 .

5ـ سورة ق / 38 .

فقد جاء ما كنا قد ألغناه في الأقسام القرآنية ، مقسما به (وهو السماء والأرض ...) مقسماً عليه هنا ، و ذلك لأن المناسبة إقتضت أن يكون مقسما عليه ، لأنه محل التوكيد ، وأما المقسم به فمحذوف دلت عليه (اللام و قد) كما سنرى في الأقسام غير الصريحة .

القسم غير الصريح :

القسم غير الصريح هو ما يكون بأحد الأدوات التالية : اللام و قد متصلتين (لقد) أو اللام المتصلة بالمضارع المختوم بنون التوكيد ، أو اللام المتصلة بإن الشرطية (لئن) فهذه هي الأدوات التي يُتلقى بها جواب القسم عادة ، و قد يذكر قبلها صدر جملة القسم ، فيكون القسم حينئذ صريحا ، و قد لا يذكر وهو الغالب ، فيكون القسم غير صريح ، و يدخل تحت هذا الصنف كل ما يُحتمل أن يكون قسما ، وهو ما دل عليه المعنى .

يكثر القسم غير الصريح في القرآن العظيم و في كلام العرب ، و ليس بالإمكان تتبع جميع الأساليب القرآنية المتضمنة لهذا النوع من القسم و دراستها ، إلا أنه يمكننا أن نستنتج أن هذه الأساليب القسمية قد تكررت عدة مرات في عدد كبير من السور و خاصة المكية منها ، تارة بالألفاظ نفسها ، و تارة بألفاظ مختلفة ، على أن معاني كل صنف منها تكاد تتقارب ، والدلالة الجامعة لهذه الأساليب هي توكيد أصول الايمان الأربعة التي سبقت في دراستنا للمقسم عليه *

والأقسام غير الصريحة لا تخرج عن هذه الدلالات و ما يتفرع منها ، فالدعوة الى تأمل آيات الله في الكون و في سائر مخلوقاته ، تقود إلى الايمان بالله و توحيده ، ثم الايمان بالرسول والأنبياء والقرآن و سائر الكتب السموية ، و من ثم الايمان بالبعث والجزاء ، فهذه المعاني هي التي صورتها أساليب القسم في عدة مواضع من القرآن في صور حسية تارة ، و ذهنية تارة أخرى ، و ربما تبادر الى الذهن السؤال التالي : ما دام القرآن قد أكد أصول الايمان في أساليب قسمية صريحة بالأفعال

---

* وهي توحيد الخالق ، والتصديق بالرسول (ص) ، و القرآن الكريم ، والجزاء ..

تارة وبالحروف تارة أخرى ، فما الحكمة من العودة إليها والقسم عليها مرة أخرى؟ وللجواب عن ذلك نقول : إن القرآن قد نزل منجما حسب الأحداث والوقائع والأسئلة الموجهة إلى النبي (ص) وحسب المناسبات وفي ذلك قوة تردع المكذبين والمشركين ، وسَنَدٌ دائم ومستمر للمؤمنين ، وتثبيت أيضا لفؤاد الرسول (ص) و تسلية له وإشعاره بأن الله تعالى لم يتخل عنه ولم يدعه ، وهذه المعاني السامية هي التي عبرت عنها السور المكية أكثر من غيرها .

لذلك كلما كانت المناسبة تستدعي مثلا الرد على كفار قريش وتفنيد ادعاءاتهم اتسع الموقف الكلامي لسرد أخبار الأمم السابقة ، وما قاموا به من أعمال منافية لما جاء به رسلهم ، وذكر ما فعل الطغاة وكبار المشركين ، ثم يبين في النهاية ما أصابهم من سوء العاقبة ، لعلّ مشركي قريش يرون في ذلك عبرة فيقلعوا عن غيهم ، وإذا كان الموقف يهدف إلى مواساة الرّسول محمد (ص) وتخفيف ما يعانيه من ضيق بسبب حال قومه الذين لا يزالون يرفضون الاسلام ، استطرد الأسلوب القرآني في شيء من التفصيل ، ليخبر محمدًا (ص) والمسلمين بما عاناه الرسل والمؤمنون بهم من ضيق وشدّة ، بل من قتل وتعذيب على أيدي المشركين من قومهم ، وبَيَّنَ صبر الأنبياء واحتمالهم من أجل تبليغ رسالات ربهم ، ودعا الرسول (ص) الى الصبر ووعده بالنصر ، والقرآن العظيم حين يقص على محمد (ص) أخبار الأنبياء الذين سبقوه ، فليس القصد هو ذكر جزئيات حياتهم وأطوارها والأماكن التي عاشوا فيها وسيرهم الشخصية ، بل الهدف ذكر مواطن العبرة كلما دعا الموقف الكلامي الى ذلك ، ولعل هذا ما جعل ذكر الأنبياء في القرآن يتكرر عدة مرات ، كلما دعت الى ذلك حادثة مستجدة أو أمر من الأمور ، فيذكر محمد (ص) بما لاقى إبراهيم عليه السلام من قومه وإجماعهم على حرقه وتنجية الله تعالى إياه ، أو يذكره بصبر أيوب عليه السلام ، والأسلوب القرآني في كل مناسبة من هذه المناسبات يصور المشركين ، وقد أجمعوا أمرهم على محاربة الإيمان ، غير أن مسعاهم يخيب فيتوعدهم الله بسوء العاقبة ، وفي هذا التصوير تعريض وتشنيع بأمر مشركي مكة وتوعدهم بأن

ما أصاب من قبلهم سوف يصيبهم هم أيضا .

هذه الدلالات مجتمعة هي التي صورها الأسلوب القرآني في صيغ قسمية دالة على التوكيد ، ولسوف نجتزئ منها أربع مجموعات في كل مجموعة بضع آيات ، وذلك حسب الأصول الأربعة المقررة سابقا :

1- المجموعة الأولى : تتمثل في الآيات الدالة على قدرة الله وتوحيده من خلال التأمل في مخلوقاته ، كما في قوله تعالى : "ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين" (1) .

"ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب" (2)

"ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين" (3) .

ذكر السموات يفيد أن الله تعالى قادر على كل شيء ، والسموات والأرض دليل على الكون كله بما فيه ، فهو رمز على قدرة الله وعظمته ، كما أن ذكر السموات بما يحمله من دلالة على (ما فوق) ويليه ذكر الأرض بدلالتها على (ما نطأ بأقدامنا) ، يوحي بأن قوة الله محيطة بالمخلوقات من كل جانب ، قوة لا سبيل الى مقاومتها ، كما أننا نلمس من خلال هذه الآيات الدعوة الى التأمل واستعمال العقل ، فهل الذي خلق السموات والأرض ، يعجز عن خلق هذه الكائنات ومنها الانسان ؟ الجواب لا . .

ومن آيات هذه المجموعة الدالة على قدرة الله وأنه خالق كل شيء قوله تعالى : "ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين . . ." (3)

وقوله : "ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ." (4)

وقوله : "ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" (5) .

وقوله : "ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين" (6) .

---

1- سورة الحجر / 16 .
2- سورة ق / 38 .
3- سورة المؤمنون / 12 و 17 .
4- سورة الحجر / 26 .
5- سورة ق / 16 .
6- الأعراف / 11 .

والذي نلاحظه أنّ آيات الخلق هذه ، موزعة عبر السور القرآنية، وعبر خلالها بالفعل (خلق ) الذي يدل على إنشاء الشيء من غير منوال سابق ، سواء في ذلك ما يتعلق بالانسان أو ما يتعلق بالسموات والأرض ، كما أن ذكرالخلقين: خلق السموات والأرض ، وخلق الانسان، قد تقاربا في الترتيب ، فالآية السادسة عشرة من سورة الحجر قد تُحدّث فيها عن خلق السماء،ثم تلتها الآية السادسة والعشرين عن خلق الإنسان ، والآية السادسة عشرة من سورة ق تتحدث عن خلق الانسان وتليها الآية الثامنة والثلاثين من السورة نفسها تتحدث عن خلق السموات والأرض .

كما أن الآية الثانية عشرة من سورة (المؤمنون ) تحدثت عن خلق الانسان، وتلتها الآية السابعة عشرة من السورة نفسها تحدثت عن خلق السموات .

لعلّ في هذا الترتيب القرآني ما يشير إلى العلاقة بين الخلقين: خلق الإنسان وخلق السموات والأرض، فانتقال السامع من خلق إلى خلق، فيه تنبيه إلى عظمة الخالق وقدرته ، فالسموات والأرض آيتان من آيات الكون يسهل إدراكهما بالحس والمشاهدة ، فدعانا القرآن إلى تأملهما لمعرفة عظمة الخالق ، والانتقال منهما الى تأمل خلقة الانسان فيه من الحكمة والتدبر ما يبعث على الاعجاب والاندهاش، هذا الانسان الذي يطغى أن رآه إستغنى، ويعتز بقوته فلا يستجيب إلى ما يدعوه إليه القرآن من إيمان بالله وتوحيده ، فهو أضعف المخلوقات،أين هو من هذا الكون العظيم سمائه وأرضه وما بينهما ؟ فإذا كان الله هوخالق هذا الكون فكيف يعوزه خلق الانسان ؟ ألم يتأمل الانسان يوما خلقته ؟ فهو من طين وصلصال أو حمأ مسنون متغير، ولعل أهم ما يلفت الانتباه في قصة الخلق هذه،هو هذه العناصر الضعيفة التي خلق منها الإنسان، فكيف له بعد ذلك وقد عرف مما خلق أن لا يعترف بضعفه ولا يؤمن بخالقه؟

لعل السؤال الذى يطرح هنا هو : لماذا لم يكتف القرآن الكريم بذكر قصة خلق الانسان في مكان واحد في آية أو بضع آيات ثم لا يعود إليها بعد

ذلك ؟ لعل السبب في ذلك هو أن القرآن الكريم قد نزل منجما كما سبقت الاشارة ، ونزوله منجم يقتضي أنه يساير الأحداث والوقائع والمناسبات ، وكلما دعا الأمر الى التذكير و الوعظ ، لا يبخل القرآن بتكرار أمور قد سبق ذكرها ، غير أنه لا يعيدها بتفاصيلها السابقة ، وإنما يعيدها بأسلوب جديد يتناسب و المقام .

والذي نلاحظه عند تأمل آيات الخلق السابقة ، أن الآيات الواردة في سورة (المؤمنون) قد استوفت عناصر الخلق وأطواره ، (من النطفة الى العلقة ، الى المضغة الى العظام الى اللحم ثم خلقا آخر ، أي حيا بعد أن كان جمادا ، وناطقا بعد أن كان أبكم...) ثم تنتهي قصة خلق الانسان هذه بقوله تعالى: "فتبارك الله أحسن الخالقين" [1] ولعلها للفت انتباه المؤمن ليعتبر بما سمع فيعظم الله ويعبده ، لأن هذه الآيات وردت في سياق من التعبير القرآني يصف حال المؤمنين وما أعد الله لهم من نعيم في قوله تعالى قبل آيات الخلق "والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس وهم فيها خالدون..." [2] ، وقد تدل الآية السابقة أيضا على إضعاف موقف الكافرين الجاحدين ، فكيف يكون موقفهم إذا سمعوا المؤمنين يرددون (فتبارك الله أحسن الخالقين) [1] ؟

إنهم يشعرون بالإبلاس والاندحار ، ثم يستطرد الأسلوب القرآني من خلق الانسان الى خلق السموات "ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين" * لإفادة أن الله هو خالق كلّ شيء ، ومقدر كلّ شيء ، وأنه قادر على اذهابه وازالته مثلما هو قادر على خلقه "وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهابه لقادرون ، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون..." [3] إنه تعداد لنعم الله على الانسان ، وامتنان من الله تعالى على الانسان لعله يقود الكافر الى الإيمان ، أما المؤمن فيزيده ايمانا .

---

1- سورة المؤمنين / 14 .
2- سورة المؤمنين / 8 - 11 .
* - سبقت بالصفحة 102 .
3- سورة المؤمنين / 18 - 19 .

أما آية الحجر: فقد تليت بسياق من الآيات فيه إشارة الى تكريم الله الانسان؛ فقد خلقه من حمأ مسنون فيه دلالة على الضعف ومع ذلك كرمه على سائر مخلوقاته وأمر الملائكة بالسجود إليه، وبَيَّنَ تكبر إبليس وترفعه على الانسان لأنه رآه مخلوقاً من شيء ضعيف "قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون" (1) وتستمر الآيات على شكل حوار، مملوء بالمؤكدات، فإبليس يتوعد البشر بأنه سيغويهم ويزين لهم المعاصي، والله تعالى يبعده من رحمته جزاء عصيانه وتكبره ويعده بالنار هو ومن إتبعه من البشر، ثم ينتهي هذا الحوار بتوعد المشركين "وإن جهنم لموعدهم أجمعين، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم" (2) "ووعد المتقين "إن المتقين في جنات وعيون. أدخلوها بسلام آمنين..." (3).

وبعد هذا الوصف لأهل الجنة، يأمر الله نبيه بأن يبيّن للعباد أن الله غفور رحيم، وأنه أيضا شديد العقاب "نَبِّئْ عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم" (4) فلا تعارض بين الآيتين، فالقصد من التنبيء هو إخبار الرسول (ص) العباد بأن إبليس يوسوس لهم ويغويهم ويزين لهم المعاصي ويبعدهم عن طاعة الله، فمن تاب واستغفر فإن الله يغفر له وينال الجنة فيكون وصفه ما سلف من أوصاف أهل الجنة، ومن استمر في الغواية فمأواه جهنم، وإن عذاب الله شديد، والذي نلاحظه؛ أن الغفران قد جاء منسوبًا الى الله ومؤكدا بإنّ والضمير المنفصل، والصفتان: غفور رحيم دالتان على المبالغة والتوكيد، لتدلا على أن الله غفور رحيم بعباده إلا من إستمر في الضلال ولم يتب، وأما آية (وأنّ عذابي هو العذاب الأليم) فقد ورد الوصف فيها متصلا بالعذاب فهو وصف للعذاب وليس وصفًا لله.

وأما الآية الواردة في سورة ق: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد" (5) فقد وردت في سياق من الآيات يدعو الى

---

1- سورة الحجر / 33.
2- سورة الحجر / 43 - 44.
3- سورة الحجر / 45 - 46.
4- سورة الحجر / 49 - 50.
5- سورة ق / 16.

التأمل في خلق السموات والأرض وما فيهما من علامات دالة على عظمة الخالق ، فتأمل السماء وما فيها من كواكب، والأرض وما فيها من نبات ، والماء النازل من السماء فيحي الأرض بعد موتها ، فتنبت من كل زوج بهيج ، كل ذلك كاف للدلالة على أن الله تعالى قادر على أن يبعث العباد بعد الموت ، ولقد كذب بالبعث قبلهم أقوام كثيرة ، منهم قوم نوح، وعاد وثمود... فحق عليهم العذاب ،

"أفعَيِينَا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد" (1) .

والمعني أن الله تعالى لم يعجز عن الخلق الأول حتى يعجزه الخلق الثاني، بل هم يعترفون بقدرة الله على الخلق الأول ، وهذا الاعتراف يتضمن الاعتراف أيضا بالقدرة على إعادة الخلق، ولكن هؤلاء المشركين ( في لبس من خلق جديد ) فقد لبس عليهم الشيطان وحيرهم وسول لهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك القياس الصحيح الذى هو أن من قدر على الإنشاء والخلق الأول فهو على إعادة الخلق أقدر ، ثم بيّن الله أنه هو الذى خلق الانسان ( ولقد خلقنا الانسان ...) فهو أعلم به ( ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ) والمراد قرب علمه منه وأنه لا يخفي عليه شيء من أحواله وهو أقرب إليه من كل قريب ، وأنه في غنى عما يكتب الملكان عن الانسان" إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" (2) وكيف لا يكون في غنى عن ذلك وهو مطلع عن كل شيء لدى الانسان" وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك ، وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات ..." (3)

فآية الخلق هنا ليست مقصودة لذاتها، لذلك لم تشرح أطوار الخلق مثلما رأينا سابقا و إنما سيقت ضمن آيات أخر لتدل معها على أن الله

---

1- سورة ق / 15.

2- سورة ق/ 17- 18.

3- الكشاف م 4/ 06.

قادر على الخلق عموما والإحياء عموما، وأنه أقرب الى الانسان وأعلم بما يدور في نفسه وأنه سيبعثه بعد الموت، ويحاسبه لأنه هو الذي خلقه لذلك ذكر أمثلة لأقوام كانوا يكذبون بالبعث ووعدهم بالنار، وفي ذلك تسلية للرسول الله (ص) وتهديد لكفار قريش .

وأما آية سورة الأعراف: ( ولقد خلقناكم ثم صورناكم ...) .

فإن السياق الذي وردت فيه يكاد يكون مشابها لآيات الخلق في سورة الحجر، فالصورة بذاتها أوشكت أن تتكرر، خاصة ما تلا آية الخلق، من تكريم لآدم عليه السلام وذلك بأمر الملائكة بالسجود إليه، ثم ما تلا ذلك من تكبر إبليس وترفعه وخروجه عن طاعة الله، ووعده بالعذاب في الآخرة وتسليطه على بني آدم في الدنيا بالغواية وتزيين المعاصي، ثم توعّده وأتباعه بالعذاب الشديد وإدخالهم النار، ولعل التمايز بين السياقين، هو أن السياق في سورة الحجر كان الحديث فيه عن قدرة الله على الإماتة والإحياء وأنه هو الحي الذي لا يموت وأن علمه قد أحاط بعباده وأحصاهم إحصاء دقيقا، وأنه القادر على حشرهم ومحاسبتهم، وهذا ما عبرت عنه الآيات السابقة لآية الخلق "وإنّا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون، ولقد علمنا المستقدمين، ولقد علمنا المستأخرين، وإن ربّك هو يحشرهم إنّه حكيم عليم »(1)، ثم يأتي قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان ...

وأما السياق في سورة الأعراف: فقد كان الحديث فيه يقتضي إعطاء صورة لتوضيح ما أصاب بعض الأمم السابقة من الهلاك جزاء تكذيبهم الأنبياء، ثم لم ينفعهم عنادهم ولا كفرهم، كما لم تنفعهم استغاثتهم فلم يملكوا إلا أن يقروا على أنفسهم بالظلم والضلال، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة وتوزن أعمالهم، فمن رجحت أعماله الموزونة فقد أفلح ومن خفت فقد خسر، وهذا ما عبرت عنه الآيات التالية " وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا

---

1- سورة الحجر / 23 - 25 .

إنا كنا ظالمين . فلنسألنّ الذين أُرسل إليهم ، ولنسألنّ المرسلين . فلنقصّنّ عليهم بعلم وما كنّا غائبين . والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ." (1)

ثم تلا ذلك بآية تدل على تمكين الإنسان في الأرض وأن الله تعالى جعل له فيها القرار وأقدره على التصرف ، وقدر له ما يُعاش به من المطاعم والمشارب "ولقد مكّناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون" (2)

إنه تعداد لنعم الله تعالى على الانسان وإمتنان منه تعالى على أنه سخر له ما في الأرض ليشكره ، ثم تأتي آية الخلق السابقة " ولقد خلقناكم . . .) لتبيّن تكريم الله آدم وذريته كما سبق .

2ـ المجموعة الثانيـــة : وتمثلها الآيات الهادفة الى التصديق بالقرآن والكتب السموية الأخرى ، ونقتصر منها على الآيات التالية :

قال تعالى : "ولقد آتينا موسى الكتاب" تكرر هذا الجزء في ستّ آيات مكية (3) وقوله : "ولقد آتينا داود منا فضلا" (4) ويجدر بنا أن نتوقف عند بعض هـــذه الآيات وهي قوله "ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون" (5) المقصود بالكتاب التوراة التي أنزلها الله على موسى ، ليعملوا بشرائعها ومواعظها ، ولكنهم لـــم يفعلوا" ، "فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُراً كل جزب بما لديهم فرحون ، فذرهم في غمرتهم حتى حين" (6) ، فلما إختلفوا في دينهم وتفرقوا شبههم بالذين يلعبون في المـاء فيغمرهم فحالهم في الجهل والعمى عما جاء به موسى من الدين والهداية كحال مـــن يغمره الماء ، وفي ذلك أيضا تسلية للرسول (ص) ونهي عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره" (7) .

---

1ـ سورة الأعراف / 4ـ 9 .

2ـ سورة الأعراف / 10 .

3ـ سورة هود / 110 وفصلت / 45 والسجدة / 23 . 6ـ المؤمنون / 53 ـ 54 . والمؤمنون / 49 . والقصص / 43 والفرقان / 35 . 7ـ الكشاف م 3 / 35 .

4ـ سورة سبأ / 10 .

5ـ سورة المؤمنون / 49 .

وأما قوله تعالى : "ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا ، فقلنا إذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا . فدمرناهم تدميرا" (1)

فقد وردت في سياق قرآني كان الحديث فيه عن كفار قريش الذين كانوا يستهزئون بمحمد (ص)، ويشككون في القرآن بأسئلتهم المبطلة ، التي تنبيء عن سوء النية وخبث الطوية كقولهم "لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ..." (2)

فيرد عليهم الله تعالى "ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسنَ تفسيرًا" (3)

والمقصود "لا يأتونك بحال وصفة عجيبة يقولون هلّا كانت هذه صفتك وحالك، نحو أن يقرن بك ملك ينذر معك أو يلقي إليك كنز أو تكون لك جنة أو ينزل عليك القرآن جملة واحدة إلا أعطيناك نحن من الأحوال ما يحق لك في حكمتنا ومشيئتنا أن تعطاه وما هو أحسن تكشفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته" (4)،

والأشرّ من ذلك هم كفار قريش الذين إعترضوا على القرآن فتوعدهم الله "الَّذِين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شرّ مكانًا وأضلّ سَبِيلاً" (5) فهم أشرّ مكانا وأنّ مأواهم جهنم ينكلون فيها تنكيلا ، ثم تأتي الآية السابقة "ولقد آتينا موسى الكتاب" الّتي سبق ذكرها ، لتواسي الرسول وتذكره بقصة موسى عليه السلام وأخيه هارون مع بني إسرائيل ، فيكتفي القرآن في هذا المقام بذكر مبتدأها ومنتهاها : بعثة موسى عليه السلام ثم أخيرًا تدمير الكافرين ، لأن الموقف الكلامي لا يتطلب سرد أحداث أخرى ، بل المراد هو أن يتأسى الرسول (ص) ولا يضيق فؤاده بما يقول الكافرون ، وتتوعد الكافرين أيضا بأنه سيصيبهم ما أصاب المكذبين قبلهم، وفي مقابل هذه الآيات التي تؤكد صدق رسالة موسى عليه السلام، نجد مجموعة من الآيات تؤكد صدق رسالة محمد (ص)، وصدق القرآن وأنه من عند الله وذلك قوله

---

1- سورة الفرقان / 35- 36 .

2- سورة الفرقان / 32 .

3- سورة الفرقان / 33 .

4- الكشاف م 3/ 91 .

5- الفرقان / 34 .

تعالى "ولقد صَرَّفنا في هذا القرآن ليذَّكَّروا" (1) وقوله : "ولقد صرفنا في هـذا القرآن للناس" (2) وقوله : "ولقد ضربنا للناس في هـذا القرآن" (3) وقولـه: "ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن" (4).

والملاحظ أن هذه الآيات متشابهة من حيث عناصرها التركيبية .

وقوله : "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر" (5).

وقوله : "لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم" (6).

وقوله : "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مُدَّكر" (7).

زيادة على أن هذه الأساليب قسمية تفيد التوكيد ، نجد أنها قـد تكررت وفي تكرارها توكيد على ما فيها من معان ، للدلالة على أن القرآن هـو الكتاب السموي الذي ختمت به جميع الرسالات ،وأنه استوعب كل ما جاء فيها وكمل ما كان ناقصا لدى الديانات قبله ،والمعنى العام لآيات هذه المجموعة الثانية ، هو الإشادة بالقرآن والإعلاء من شأنه ،وأنه قد احتوى على كل ما يحتاج إليه العاقل من أمور الدنيا والآخرة .

3ـ المجموعة الثالثة : تمثلها الآيات الدالة على صدق النبوة والإيمان بـأن الرسل إنما بعثوا بأمر وتكليف من الله إلى البشر،لذلك نلاحظ أن الآيات الدالة على ذلك يتردد من خلالها ما يفيد البعث والرسالة كالفعلين : (بعثنا) و (أرسلنا) مثلا،ومن هـذه الآيات نجتزئ ما يلي :

---

1ـ سـورة الاسراء / 41 .

2ـ سـورة الكهف / 53.

3ـ سـورة الزمـر / 26.

4ـ سـورة الروم / 57 .

5ـ سـورة الأنبياء / 105.

6ـ سـورة الأنبياء / 10.

7ـ سـورة القمـر / 17 .

قال تعالـــى : "ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحـا" (1)

"ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعـون" (2)

"ولقد أرسلنا نوحـا إلى قومـــــــه" (3)

"ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك" (4)

"ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله" (5)

"ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهـــــم" (6) .

لقد تضمنت هذه الآيات أسماء بعض الأنبياء لتدل على أنهم مبعوثـــون من عند الله مؤيدون بالآيات البينـات يوحي إليهم ، وفي ذلك تأييد وتأكيد على أن رسالة محمد (ص) صادقة وأن نبوته لا شك فيها ، ومن آيات ذلك هو إخبـاره عما جاء من الكتب ، ومن بعث من الرسل في سالف العصور ، وكفاه صدقا أن يخبر النصارى عما في كتبهم وما وقع لهم مع أنبيائهم ، ويمتحنه اليهود بأسئلة عن أحـداث ووقائع يقرأون عنها في كتبهم فيأتيه الوحي قاصًّا عليه تلك الأحداث والوقائع ، بـل ويظهر له ما أرادوا هم إخفاءه أو تبديله ، كل ذلك دلالة على أن القرآن مـن عند الله وأن محمدا نبـيّ الله .

المجموعة الرابعـة : وتمثلها الآيات الدالة على البعث وما يتبعه من جـزاء ، كما تبين ضعف الإنسان وتقلب أحواله ، والجدير بالذكر أن مشاهد يوم القيامة فـي القرآن الكريم كثيرة ولا تحصى ، وغالبا ما تصف الآيات القرآنية أحوال المحسنيـــن وما ينتظرهم من نعيم ، مقارنة بأحوال المسيئين وما يتوعدهم به الله من عقـــاب ، وذلك في كل مقام يرد فيه ذكر الأمم السابقة ، وقصص الأنبياء للعبرة والاتعـاظ .

---

1- سـورة النمـل / 45 .

2- سـورة الزخرف / 46 .

3- سـورة هود / 25 .

4- سورة الزمر / 65 .

5- سورة النحـل / 36 .

6- سـورة الروم / 47 .

إذ لا يمكن أن ترد الآيات الدالة على البعث والجزاء منفردة عن غيرها، فالقرآن يكمل بعضه بعضا، والمناسبات والوقائع لا بد من مراعاتها، والتعبير القرآني يتناسب والمقام الذي ينزل فيه قرآن معبر عنه، لذلك سوف تقتصر على بعض الآيات التي تمثل هذا الجانب:

قال تعالى: "ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور" (1)،

"ولئن أذقناه رحمة مِنَّا بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ" (2)، وقال تعالى "ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون. هيهات هيهات لما توعدون إنْ هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين" (3).

تصور هذه المجموعة من الآيات نفس الانسان وما تنطوي عليه من ضعف وعدم صبر، فهو غير صبور لقضاء الله، بل كفور لما سلف له من التقلب في نعمة الله غير شكور لها في حال اليسر والرخاء، وإذا كان العكس أي:

"ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور" (4) يفخر على الناس بما آتاه الله من نعمائه، فيشغله الفرح عن الشكر، والذين يُستثنون من ذلك هم الصّابرون المؤمنون "إلاّ الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير" (5) فهذه حال الانسان على العموم لا تثبت على وجه من الوجوه، إلا من آمن وصبر وعمل صالحا وتراءت له آيات الله في خلقه، لذلك أكّد القرآن على وجود هذه الظاهرة في الانسان وتوعده بالعقاب إن هو تمادى في كفران النعمة وتحدّي الأنبياء والرسالات والتكذيب بالبعث والجزاء، (وما أظن الساعة

---

1- سورة هود/ 09.

2- سورة فصلت/ 50.

3- سورة المؤمنون/ 34-37.

4- سورة هود/ 10.

5- سورة هود/ 11.

قائمة) فجزاء هؤلاء النار (ولنذيقنهم من عذاب غليظ) كما وعده بالمغفرة إن هو تاب وأناب، ولا زال القرآن يذكر هذه الصفة في الانسان كلما تدعو المناسبة إليها ويحذرنا من الغرور في ساعة القوة واتساع الحال حتى لا نظن أنّ ما أصابنا من نعيم قد جلبناه بقوتنا أو استوجبناه بما عندنا من خير، وقمنا به من أعمال بر وأنه لا يزول عنا، لأن صفة الطغيان في حال الاتساع، والقنوط في حال الضيق صفة الكافرين، لذلك بينت الآية السابقة عاقبة هؤلاء الكفار بأن الله سوف يخبرهم بأعمالهم تلك ويذيقهم نار جهنم، ولقد تعددت الأساليب القسمية التي تصور حال الكافرين في الدنيا وما هم عليه من كفر وتكذيب بما جاء به الرسل، ثم ما ينتظرهم يوم القيامة من عذاب أليم " فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون "(1) والملاحظ أن الأسلوب القرآني يعتمد على التدرج في التصوير، من حالة إلى حالة مراعيا في ذلك إقامة الحجة والدليل ليحقق الإقناع في ذهن السامع، فهو يخاطب العقل والقلب معا ليقيم الحجة على الخصم حتى لا يترك له منفذا ينجو منه، وحجج القرآن مبنية أساسا على ما يهتدي إليه الانسان العاقل بفطرته السليمة من خلال مشاهداته الحسية لما يحيط به من الظواهر الكونية، فالأسلوب القرآني يعمق هذه المشاهدة ويدعو الإنسان إلى تأملها بعمق للاهتداء إلى الايمان بالخالق، فإذا آمن الإنسان بالله، آمن بأن القرآن من عند الله وأن محمدا رسول الله، ولا زال يتقبل كل ما جاء به القرآن من أخبار عن أمور مغيبة، منها الآخرة والبعث والجزاء، وإلى جانب هذا التدرج المنطقي في القرآن، هناك الظاهرة الأسلوبية التي ينفرد بها والمتمثلة في ألفاظه وأساليبه وسياقاته الكلامية التي بها تتسلسل المعاني والأفكار وتنتقل من حالة إلى حالة لتستوعب كل ما عرف في لغة العرب من أنواع الأساليب البلاغية كالتوكيد والالتفات ومراعاة المقام... فالظاهرتان؛ المنطقية والأسلوبية تسيران

---

1- سورة فصلت / 27 .

متوازيتين لتحقق الإعجاز القرآني، وإذا تأملنا الآية السابقة (فلنذيقن...) نجد أنه بعد أن بَيَّن الله جزاء الكافرين المعاندين الذين شاهدوا الآيات ولم يؤمنوا، أردف ذلك بقوله تعالى "ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون" (1) أي جزاء بما كانوا يلغون فيها مع أنهم يعترفون في قرارة أنفسهم بأنَّ الله تعالى هو الخالق، وقد تكرر التأكيد على هذا الاعتراف عدة مرات "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن اللّهَ فأنّى يؤفكون" (2).

ويتكرر هذا الجزء من الآية (ولئن سألتهم...) كما يتكرر الجواب (ليقولن)* ليؤكد أن هؤلاء المشركين يؤمنون بأن الله هو الخالق ولكنهم لا يعبدونه بل يعبدون هذه الأصنام التي اتخذوها في أول الأمر واسطة بينهم وبين الله، ثم ما لبثوا أن عبدوها من دون الله، فالأسلوب إنما يسير منطقيا وذلك في إنتقاله من عرض الحادثة إلى النتائج المترتبة عَنْهَا، كأنّ يخبر عن حال الكفار والمكابرين ثم يصف عنادهم وتحديهم الرّسل والأنبياء، فيدعوهم إلى الإيمان والاستغفار والرجوع إلى الهداية، وحين يرفضون كل ذلك، يذكر ما سوف يلحق بهم من عذاب أليم ويحذر في الوقت نفسه كل من يسير سيرتهم أو يَقْتَفِي أثرهم، كل ذلك يُؤدى في أسلوب قد بلغ الذروة في الفصاحة والبلاغة.

وكذلك قوله تعالى: "كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه" (3).

وقوله "ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه" (4) ولقد إختلف النحاة في

---

1- سورة فصلت / 28.

2- سورة العنكبوت / 61.

*- ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله (سورة لقمان / 25) و (سورة الزمر) / 38.

- ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم (سورة الزخرف / 9)

- ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (سورة الزخرف / 87).

3- سورة الأنعام / 12.

4- سورة يوسف / 35.

إعراب الفعلين (ليجمعنكم) و (ليسجننه)، فمنهم من رأى أن (ليجمعنكم) بدل من الرحمة، ومنهم من رأى أن اللام، لام جواب القسم فيكون (ليجمعنكم) جوابا للقسم، كما اختلفوا في الثاني، فمنهم من رأى أن اللام فيه مصدرية، ولكن ابن هشام يرى أن اللام في الموضعين لام جواب القسم، وهذا لا يمنع كون جملة (ليسجننه) التي هي جواب قسم محذوف مع جملة هذا القسم (أي الصدر المحذوف) مُفَسِّرَةً للضمير في (بدا)، ولا يمنع من ذلك كون القسم إنشاء، لأن المفسر إنما هو المعنى المتحصل من الجواب، وهو خبري لا إنشائي، وذلك المعنى هو سجنه عليه السلام، فهذا هو البداء الذي بدا لهم ... ويجوز أن يكون (ليسجننه) جوابا لـ (بدا) لأن أفعال القلوب لإفادتها التحقيق تُجاب بما يجاب به القسم (1).

وما يمكن ترجيحه هو أن اللام في الموضعين لام جواب قسم مقدر وذلك للأسباب التالية :

1ـ إن المضارع المتصل باللام والنون كما سبق، هو لجواب القسم أصلا.

2ـ إن عبارة (كتب على نفسه الرحمة) "أي أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السموات والأرض ثم أوعدهم على إغفالهم النَّظر و إشراكهم من لا يقدر على خلق شيء بقوله : (ليجمعنكم) فيجازيكم على إشراككم"(2)، وهذا الوعيد يفهم من السياق السابق لهذه الآية وهو قوله تعالى "ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ..."(3).

والذي يُفهم من السِّياق، أن الآية وردت مورد الوعيد لتؤكد على أن يوم القيامة لا شك فيه، والمعلوم من القرآن أن أغلب الآيات التي جاءت لتؤكد يوم القيامة والحساب والجزاء إنما كان التوكيد فيها قسميا صريحا أو غير صريح، مما

---

1ـ المغني ج 2/ 447 ـ 448 و 455.

2ـ الكشاف ج 2/ 7 ـ 8.

3ـ سورة الأنعام / 10.

يدل على أن هنا أيضا قسما مقدرا .

3ـ إن عبارة (كتب على نفسه الرحمة) تتضمن عهدا صادقا منه تعالى فكأنه قسم ، وكذلك الفعل (بدا) في الآية الثانية فإنه يجري مجرى القسم ، فيجاب بجوابه ، وعلى هذا ورد الفعلان مؤكدين ليدلا على قسم مقدر .

بعد هذا العرض لجملة من الآيات القرآنية المشتملة على أساليب قسمية يمكننا أن نستنتج ما يلي :

أ ـ تعددت أساليب القسم غير الصريح في القرآن الكريم ، وعبرت عن الأصول الأربعة كبقية أساليب القسم الصّريح ، بالإضافة إلى ما يتفرع عن تلك الأصول ويهدف إليها كالجزاء بنوعيه ، والوعد والوعيد ، والدعوة إلى الاعتبار بما وقع للأمم السابقة التي كذبت رسلها ، والدعوة إلى الاعتراف بالنعم وإجلال الخالق ، ونبذ الكفر والعناد والكبر .

ب ـ توزعت هذه الأساليب عبر السور الطويلة والمتوسطة وأغلبها مكية لأن الهدف منها تربية العقيدة في النفوس .

ج ـ جاءت هذه الأساليب منسوبة إلى الخالق بضمير الجمع للدلالة على التعظيم من جهة ، ولأهمية هذه الأمور المقسم عليها من جهة ثانية ، ونسبة الضمير إلى الخالق جمعا ، أبلغ في التوكيد وأقوى في الحجة ، وأردع وأزجز للمعاند والمكابر .

د ـ يمكننا من خلال تمعن الأساليب السابقة من حيث الأدوات المستعملة في القسم ، أن نقول : إن الأداة (لقد) جاءت متبوعة بفعل ماض لفظا ودلالة في الغالب ، لإفادة أن الأمور المقسم عليها واقعة فعلا من ذلك ، بعثة الرسل وأخبار الأمم السابقة ، والكتب السموية ، وبيان خلقة الإنسان وأطوارها ، وأما الأداة (لئن) فقد كثر استعمالها في المواضع التي تتطلب إقامة الحجة على الخصم وبيان فساد رأيه ، كما أنها عبرت عن الزمن الحاضر المستمر ، أو المستقبل وذلك بإدخال اللام على المضارع المتصل بنون التوكيد الواقع جوابا للقسم .

هناك أساليب لغوية يمكن أن تعد ضمن أساليب القسم غير صريح، وذلك لإفادتها معنى القسم، وهي موضع خلاف بين اللغويين لكونها لم تصدر بما يدل على القسم صراحة، ولقد ورد منها في القرآن الكريم غير قليل، منها:

1- الأساليب التي تدخل فيها اللام على المبتدأ والخبر: هذه اللام التي يسميها الكوفيون (لام جواب القسم)، ويسميها البصريون (لام الابتداء) وذلك مثل قولنا "(لزيد أفضل من عمرو) فهي عند الكوفيين لام جواب قسم مقدر، والتقدير واللّه لزيد أفضل من عمرو، فأضمر اليمين إكتفاء باللام منها، وذهب البصريون الى أن اللام لام ابتداء، وحجة الكوفيين على أنها للقسم، وليست للابتداء أنه يجوز أن يليها المفعول الذي يجب له النصب، وذلك نحو قولك (لطعامَك زيدٌ آكل) فلو كانت هذه اللام لام ابتداء، لكان يجب أن يكون ما بعدها مرفوعاً، ولمّا كان يجوز أن يليها المفعول الذي يجب أن يكون منصوباً، وأما حجة البصريين؛ أنها إذا دخلت على المنصوب بظننت أوجبت له الرفع وأزالت عنه عمل ظننت تقول: (ظننت زيداً قائما)، فإذا أدخلت على (زيد) اللام، قلت: ظننت لزيد قائم، فأوجبت له الرفع بالابتداء بعد أن كان منصوبا، فدل على أنها لام الا بتداء »(1).

والذي يستفاد من تعليلات كلا الفريقين، أن حجج النحاة مستنبطة من أمثلة مأخوذة من كلام العرب الذي يحتج به في مجال الفصاحة، كما نلاحظ أن كل فريق يختار من الأمثلة ما يدعم حجته ويقوي جانبه، أما الاعتماد على ما يؤديه الأسلوب اللغوي من وظائف داخل السياق الكلامي، فهذا ما كان من عمل البلاغيين وحدهم، وما دام مستقبل الدراسات اللّغوية يهدف إلى دراسة الأساليب اللغوية داخل السياقات التي ترد فيها، وليس بمعزل عن نصوصها والاكتفاء بها منفردة كما فعل أغلب النحاة، فلنحاول أن نتناول هذا الأسلوب بالدراسة عبر السياقات التي يرد فيها، ولنبدأ بأوجه استعمالات هذه اللام في الأساليب اللغوية بمعزل

---

1- الإنصاف في مسائل الخلاف ج 1/ 399.

عن النصوص : أغلب المواضع التي تدخل فيها هذه اللام هي :

أ ـ تدخل على المبتدأ كما في قوله تعالى : "وللآخرة خير لك من الأولى" (1) وقوله تعالى "لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون" (2)

ب ـ تدخل على الخبر المتقدم على المبتدأ مثل قولنا "لصديق لي أنت" و " لنافع العلم" .

ج ـ تدخل على خبر (إنّ) المشددة المكسورة وذلك في الحالات التالية :

1 ـ أن يكون الخبر متأخرا عن المبتدأ سواء كان الخبر مفردا كما في قولنا "إنّ البرّ لعظيم" أو شبه جملة كقوله تعالى "وإنّك لعلى خلق عظيم" (3) .

2 ـ أن يكون الخبر مثبتا لأنّ دخول اللام على الخبر المنفي غير مسموع عند العرب .

3 ـ أن يكون الخبر جملة فعلية فعلها مضارع مثبت متصرف أو غير متصرف تصرفاً تاماً، وذلك كما في قوله تعالى "وإنّ ربّك ليحكم بينهم يوم القيامة" (4) ومثل قولنا "إن المؤمن ليدع قول الزور" .

وقد تدخل على الماضي غير المتصرف مثل " إن الظلم لبئس العمل " و "إن الإحسان لنعم الخلق " ما عدا "ليس" لأنها للنفي، وهذه اللام فائدتها توكيد مضمون للجملة المثبتة وإزالة الشّك عن معناها المثبت (5)، لذلك فهي تتعارض مع النفي، ولا تدخل على حرف النفي، ولا على فعل ماض منفي بأحدهما .

4 ـ ألّا تكون الجملة شرطية ، وذلك أنّ هذه اللام لا تدخل على أداة الشرط ولا على فعله ولا على جوابه .

5 ـ أن يكون الخبر ضمير فصل نحو : "إن العلم لهو النّور" .

د ـ وتدخل على اسم إنّ بشرط أن يتأخر ويتقدم عليه الخبر شبه الجملة ، وذلك كما في قوله تعالى : "إنّ علينا للهدى وإنّ لنا للآخرة والأولى" (6) .

---

1 ـ سورة الضحى / 3 .

2 ـ سورة الحشر / 13 .

3 ـ سورة القلم / 04 .

4 ـ سورة النحل / 16 .

5 ـ النحو الوافي ج 1/ 659 .

6 ـ سورة الليل / 11 ـ 12 .

وبعد، فهذه هي الحالات الشائعة لدخول هذه اللام التي تسمى لام الابتداء، وأما دخول هذه اللام على الفعل الماضي كما في قولنا "إن العلم لنفع" أو على كلمة (قد) كما في قولنا "إن العلم لقد نفع"، أو اتصالها بالمضارع المختوم بنون التوكيد كما في قوله " لأعذبنه عذابا شديدا" (1)،
أو دخولها على السين و سوف كما في قوله تعالى: "ولسوف يعطيك ربك فترضى" (2)
فالراجح عند أهل اللغة أنها مع (قد) و (نون التوكيد) تسمى لام جواب القسم وأما مع الفعل الماضي بدون (قد) فيراها ابن هشام لام جواب قسم مقدر لا لام ابتداء (3)
وأما مع (السين) فيراها الزمخشري لام ابتداء، والمبتدأ محذوف تقديره (لأنت سوف يعطيك...) فإنْ قلت ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإنْ تأخر لما في التأخير من المصلحة" (4) أما الأستاذ عباس حسن فقد تنبه في مثل هذا التركيب إلى القرينة المصاحبة السياق، فاللام لا تجعل زمن المضارع للحال وإنما تجعله للمستقبل بقرينة السياق فلا تعارض بينها وبين السين و سوف في مثل قولنا: إنَّ الطائرة لسوف تحضر أو لستحضر" (5)

وإذا تأملنا السياق الذي وردت فيه الآية السابقة من سورة الضحى، تبين لنا أن السورة كلها بأسلوبها الهادئ وافتتاحها بالقسم، تهدف إلى تسلية الرسول (ص) والتخفيف عنه ما يعانيه من أذى وضيق بسبب صد قومه عن دعوته وإعراضهم عنه، وتعده بالنصر وباستمرار رعاية الله له ودوام نعمه عليه، وأكبر نعمة يعده بها، هي ما سوف يجزيه به في الآخرة من الأجر والثواب وإدخاله الجنة، فالقرينة السياقية تفيد الاستقبال، ولمَّا كان القسم على الماضي يهدف إلى تحقيق الأمر وتوثيقه ونفي الشك عنه، فالقسم على أمر لم يقع بعد، هو

---

1- سورة النمل / 21.
2- سورة الضحى / 5.
3- المغني ج 2/ 255.
4- الكشاف م 4/ 264.
5- النحو الوافي ج 1/ 662.

التزام ووعد لا بد من الوفاء به وخاصة إذا كان هذا القسم منه تعالى، وهذا ما تفيده الآية السابقة، فعطاء الله أمر مؤكد، والمقام يقتضي ذلك التأكيد الذي يفيده أسلوب القسم سواء كان ذلك في الحال كما يفهم من لام جواب القسم أو تأخر كما أفادت ذلك القرينة (سوف).

والخلاف على هذه اللام المفتوحة قائم بين النحاة، هل هي لام الابتداء أو لام جواب القسم، وأساس هذا الخلاف، أنّ - لام الابتداء لها الصدارة وإنما تؤخر إلى موضع الخبر مع (إنّ) لئلا يُجمع بين حرفي تأكيد، ولم تؤخر (إنّ) لأصالتها في التوكيد.

أما لام جواب القسم فالأصل أن تؤخر لا تصالها بالجواب الذى موضعه التأخير عن فعل القسم.

- لام الابتداء إذا وليت الظن أو العلم علقت الفعل، فلم يعمل نحو قولك: "قد علمت أن زيدًا لمنطلق" و"أظن أنّ زيدًا لقائم"، فهذا إنما يكون في العلم والظن ونحوه[1] ومعنى تعليق الفعل هو منع تسلط فعل القلب على (إنّ ومعموليها)[2] لذلك جاءت همزة إنّ المشددة مكسورة، لأنّ ما بعد المكسورة كلام تام لفظًا ومعنى، وهو يأتي لتحقيق مضمون الجملة، وهذه هي التي تدخل اللام على خبرها. وكذلك اللام الداخلة على خبر "إنّ" والمفيدة القسم، يترجح معها كسر همزة (إنّ) بعد الظن والعلم إذا فهم منها اليمين، وذلك للفصل بين فعل القسم والمقسم عليه، لأن جواب القسم ليس معمولا لِفعل القسم، فلا محل له، كما تكسر الهمزة أيضا إذا إتّصلت اللام بخبر (إنّ) بعد ذكر فعل القسم أو ما ينوب عنه، وذلك في قولنا "أقسم بالله إنّ العلم لنافع" و"والله إنّ العلم لنافع" للأسباب السابقة.

---

1- الأصول في النحو ج 1/ 263.

2- المغني ج 1 / 255.

أما حين لا تتصل اللام بخبر "إنّ" ويذكر قبلها فعل القسم أو ما يدل عليه فإنه يجوز الفتح والكسر في (ان) وذلك لوجود القرينة اللفظية الدالة على القسم مما يؤمن معه اللبس .

إن القرائن التي إعتمدها النحاة في التفريق بين لام الا بتداء ولام جواب القسم ، مستنبطة من الأساليب اللغوية المستعملة سواء كانت هذه القرائن لفظية أو معنوية ، غير أن هذه الأساليب وإن كانت فصيحة ، فهي بمعزل عن النصوص وما يفيده السياق العام، وإذا تأملنا التراكيب اللغوية وجدنا أن الأساليب التي تفيد التوكيد كثيرة جدا ، والغاية منها تقوية معنى الجملة وتأكيد مضمونها ، لازالة الشك والانكار، من هذه الأساليب مثلا :

القسم والجملة الاسمية المصدرة بإنّ المشددة، والجملة الا سمية المصدرة بإنّ المشددة مع دخول اللام المفتوحة على خبرها، والجملة الاسمية المصدرة باللام المفتوحة، وتكرار الجملة كلها ، أو بعض أجزائها ، وقد يجتمع كما هو معروف، في الجملة الواحدة أكثر من مؤكد واحد ، وذلك حسب ما يقتضيه المقام ويدعو إليه حال المخاطب، والذي عليه البلاغيون أن درجات التأكيد تكون حسب ما يقتضيه الموقف الكلامي وحال المخاطب؛ فإذا كان المخاطب خالي الذهن نقلنا إليه الخبر خاليا من أي تأكيد ، وإذا لاحظنا عليه شيئا من الشك لجأنا إلى إدخال مؤكد واحد على الخبر، وإذا تمادى في الشك والإنكار دعمنا الخبر بأكثر من مؤكد وهكذا إلى أن يجتمع في الأسلوب الواحد عدة مؤكدات، كما هو الشأن في أسلوب القسم الذى يمكن أن يحتل الرتبة العليا في سلم أساليب التوكيد* وذلك للاعتبارات التالية :

أ- في صدر جملة القسم نجد :1- فعل القسم دالا على القطع كما سبق، ونفي الشك ، سواء كان ظاهرًا أو مقدرًا .

2- المقسم به دالا على أمر من الأمور العظيمة التي هي محل التعظيم والتكريم ، بحيث تخشى مخالفتها عند عدم الوفاء بالمقسوم

---

*- سيأتي تفصيل ذلك في الصفحة الموالية .

عليه ، وفي ذلك دلالة على قوة القسم وإفادته التوكيد .

ب- أما في عجز جملة القسم : فقد تجتمع عدة مؤكدات هي : اللام المفتوحة ونون التوكيد حين يكون الجواب مركبا فعليا ، وانّ المشدّدة واللام المفتوحة في خبرها ، وتقديم (الجار والمجرور) حين يكون خبرا لإنّ ويكون الاسم نكرة وذلك لإفادة حصر المعنى وتقويته ، وهذا عندما يكون الجواب مركبا اسميا، والمعروف أن المراد من صدر جملة القسم هو توكيد مركب خبري فعلي أو اسمي يأتي بعده مباشرة ، قصد توثيقه ونفي الشك عنه لدى السامع، ولذلك قالوا: والقصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده " (1) .

والمستفاد من هذا القول أن الأصل في جواب القسم أن يكون موجبا ، لأن النفي أمر طارئ لا يُلجأ إليه إلا إذا وجد ما يدعو إليه ، والمركب الخبري الموجب قد يكون فعليا وقد يكون اسميا ،

ولما كان كلٌّ من المركبين الاسميّ والفعليّ ، في أبسط صورة له يُقتصر فيها على عنصرين أساسيين هو المبتدأ والخبر في المركب الاسمي ، والفعل والفاعل في المركب الفعلي ، والعلاقة في المركب الاسمي قائمة على (الاتحاد) أي اتحاد الموضوع الذي هو المبتدأ مع الوصف المحمول عليه الذي هو الخبر ، أما في المركب الفعلي ، فالعلاقة قوامها الحدث المعبر عنه بالفعل والذي هو الأساس في الركنيّة ، ثم يليه متعلقه وهو مَنْ صدر عنه الفعل ، ولذلك قال الدكتور مصطفى جمال الدين: « إن الجملة الاسمية تتضمن حكما بـ (اتحاد) الموضوع والمحمول ، المبتدأ والخبر في الخارج واتصافه به ، فجملة (زيد أخوك) تحكي عن واقع خارجي واحد (يصدق) عليه الطّرفان فزيد هو أخوك وأخوك هو زيد ، أما الجملة الفعلية فليس فيها هذا الحكم (باتحاد) الفاعل مع الفعل خارجا ، وإنما تحكي عن وقوع (حدث) منسوب إلى (محدث) »(2) ولا شك في أن

---

1- الإتقان في علوم القرآن ج 2/ 133 .

2- البحث النحوي عند الأصوليين ص : 250 .

الحدث يسند الى زمن معين ، أما في المركب الاسمي فالقضية اتحادية دون مراعاة الزمن ، وهذا ما يجعل دلالتها على الثبوت والدّوام أقوى ولا يخفى ما في ذلك من توكيد للمعنى ...

فإنّه بناء على ما سبق نقول : إنّ المركب الاسمي الواقع جوابا للقسم أقوى دلالة على التوكيد من المركب الفعلي .

وإذا تأملنا العناصر التوكيدية التي يشتمل عليها المركب الاسمي لوجدنا أنه يشتمل على عنصرين هما : (إنّ) المشددة و(اللام) الدّالّتين على التّوكيد وذلك في صوره الثلاث : 1ـ إن العلم لنور ، 2 ـ إن نورًا لفي العلم ، 3ـ إن في العلم لنورًا ، والذي نراه ، أنّ الصورة الأولى والثانية يمكن العطف عليهما بالإيجاب ، وأما الصورة الثالثة فلا يكون العطف عليها إلا بالنفي ، وذلك لاشتمالها على ما يفيد الاختصاص والحصر ، وهذا ما يمثله (الجار والمجرور) المقدم على الاسم ، فكأننا بذلك قد حصرنا النور في العلم لا غير ، بحيث لم يتجاوزه إلى شيء آخر ، وفي ذلك تقوية للمعنى وتوكيد له ، والذي نجده ، أنّ هذه الصورة قد تكررت كثيرا في القرآن الكريم وفي مواضع متعددة مصدرة بـ (إنّ في ذلك) يليها ذكر لفظ (آية) تارة مفردًا وتارة جمعا ، يليها الجار والمجرور (لقوم) ومختتما في الغالب بفعل مضارع مسند الى واو الجماعة رفعًا دالا على (العقل) أو (الفكر) أو (السمع) أو (الإيمان) ... وغالبا ما يكون هذا المركب الاسمي في أعقاب مجموعة من الآيات تمهد له وتؤذن بمجيئه ، من ذلك قوله تعالى : "إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" (1)

و " إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون" (2)

و "إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (3)

و "إن في ذلك لآيات للمتوسمين" (4)

و إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" (5)

---

1ـ سورة الانعام / 99.

2ـ سورة يونس / 67.

3ـ سورة الرعد / 3 .

4ـ سورة الحجر / 75.

5ـ سورة الرعد / 4.

كما تكرر هذا المركب مع بعض التغييرات في سورة النحل سبع مرات[1]، وإذا تأملنا هذا المركب، نجده قد جاء ضمن سياقات قرآنية تهدف إلى:

1- تذكير الإنسان بالنعم التي أنعم الله بها عليه، وتعداد هذه النّعم.

2- الدعوة الى التفكير والتأمل في آيات الله الكونية الدالة على قدرته ووحدانيته.

3- الدعوة إلى الاتّعاظ بأحوال الأمم السابقة وما أصابها من عذاب جزاء كفرها وعنادها ومحاربتها الأنبياء.

يجدر بنا أن نتوقف عند سورة الشعراء، وبالضّبط عند خمس آيات منها، من الآيات المبدوءة بهذا المركب الاسمي، والملاحظ أن هذه الآيات الخمس تطّرد في نسق عجيب ودقيق على النّمط التالي:

- الآية الأولى: "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإنّ ربّك لهو العزيز الرحيم"[2].

جاءت هذه الآية خاتمة السياق الذي ورد فيه الحديث عن أهل النار وتخاصمهم وإقرارهم على أنفسهم، وتمنيهم العودة الى الحياة الدنيا ليعوضوا ما فاتهم "فنكون من المؤمنين"[3].

ثم تلاها الحديث عن الأقوام التي كذبت الرسل ومنهم قوم نوح "كذبت قوم نوح المرسلين"[4].

- الآية الثانية: "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربّك لهو العزيز الرحيم"[5] مسبوقة بما أصاب قوم نوح من الغرق باستثناء المؤمنين منهم "ثم أغرقنا بعد الباقين"[6] ومتلوة بذكر المكذبين من قوم عاد "كذبت عاد المرسلين، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون"[7]

---

1- سورة النحل/ 11و 12و 13و 5 6و 67و 69و79.

2- سورة الشعراء/ 103- 104.

3- سورة الشعراء/ 102.

4- سورة الشعراء/ 105.

5- سورة الشعراء/ 121- 122.

6- سورة الشعراء/ 120.

7- سورة الشعراء/ 123-124

ـ الآية الثالثة: "إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربّك لهو العزيز الرحيم" (1) تقدمها الحديث عن قوم هود واعتدادهم بقوتهم التي كانت سببا في كفرهم "أتبنون بكلّ ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلّكم تخلدون . وإذا بطشتم . بطشتم جبارين . فاتّقوا الله وأطيعون" (2) فكان جوابهم بعد أن خوّفهم من عذاب الله "إنْ هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين" (3) ، ثم يتلوها الحديث عن المكذبين من قوم ثمود "كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون؟" (4) ثم ذكر ما أعطاهم من النّعم لإقامة الحجة عليهم .

الآية الرابعة : "إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربّك لهو العزيز الرحيم" (5) سُبقت بالحديث عن قوم صالح كما سبق ، وتليت بـ (كذبت قوم لوط المرسلين" (6) .

ـ الآية الخامسة : إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربّك لهو العزيز الرحيم" (7) .

تقدمها الحديث عن قوم لوط، والعذاب الذي أصابهم وتلاها الحديث عن قوم شعيب (كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم أخوهم شعيب ألا تتقون" (8) وأمرهم بإيفاء الكيل (ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين) (9) فلم يستجيبوا له (فكذبوه فأخذهم عذاب يَوْمِ الظُّلَّةِ) (10) ، وقيل في تفسير ذلك (أظلتهم سحابة فاحتموا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا) (11) ، وينتهي هذا القِسْمُ من القصص القرآني بقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين، وإنه لفي زبر الأولين) (12)

---

1ـ سورة الشعراء/ 139ـ 140 .
2ـ سورة الشعراء/ 128 ـ 131 .
3ـ سورة الشعراء/ 137ـ 138 .
4ـ سورة الشعراء/ 142 .
5ـ سورة الشعراء/ 158ـ 159 .
6ـ سورة الشعراء/ 160 .
7ـ سورة الشعراء/ 174ـ 175 .
8ـ سورة الشعراء/ 176 ـ 177 .
9ـ سورة الشعراء/ 183 .
10ـ سورة الشعراء/ 189 .
11ـ الكشاف م 3/ 127 .
12ـ سورة الشعراء/ 192-196

إن هذا التركيب كما رأينا قد تكرر خمس مرات في نسق دقيق استعرض ذكر خمسة أنبياء وخمسة أقوام طغوا وكفروا ولم يستجيبوا لما جاءهم من الحق، فسلط الله عليهم العذاب في الدنيا وتوعدهم بالعذاب في الآخرة أيضا.

ومن فوائد القصص القرآني، تسلية الرسول (ص) ووعده بالنصر، وتوعد الكافرين بالعذاب في الآخرة، وتذكيرهم بأنّ الله تعالى قادر على أن يعجّل لهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة، مثلما سلط على مَنْ قبلهم من الأقوام الكافرة.

وبعد أن رأينا أن هذا المركب الاسمي قد تكرر كثيرا في القرآن الكريم للفت الانتباه، ودعوة العقول إلى التفكير والتبصر، للاعتبار بما أصاب المكذبين والمنكرين للبعث، من العذاب، فهل يمكن عدّ هذه الأساليب من ضمن أساليب القسم غير الصريح؟ لا شك في أن هذه الأساليب التي تكررت بكثرة كما رأينا لتزيد المعنى توكيداً وتحقيقا في كل مرة، وذلك بالنّظر إلى ما يتقدمها وما يليها في السياق الّذي اقتضى التوكيد لوجوده، وقد وُجد ما يدل عليه معنى ولفظا، فأما من حيث المعنى العام، فهو ما أفادتنا به الآيات السابقة، وأما من حيث الألفاظ فقد دلّت عليه (إنّ) المشددة واللام المفتوحة في اسمها، وتقديم متعلق الخبر أي (الجار والمجرور)، وقد سبق اعتبار هذا التركيب أقوى درجة في التوكيد، فإنه يمكننا أن نرجح أن هذه الصيغة بجميع استعمالاتها السابقة الواردة في القرآن الكريم قد أفادت التوكيد، وبالتالي يمكن عدها ضمن أساليب القسم غير الصّريحة التي يقدر فيها صدر جملة القسم محذوفا، وكأنّ التقدير «والله إنّ في ذلك لآيات» فيكون المركب الاسمي (إنّ في ذلك) جواباً لقسم مقدر دلّ عليه السّياق.

2ـ الأساليب التي يذكر فيها ما يدل على القسم كالعهد والميثاق، كما في قوله تعالى: "وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله"(1)

و "وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم»(2)،

1ـ سورة البقرة / 83.

2ـ سورة البقرة / 84.

منهم من يرى أن هذه الأساليب قسمية لأن (أخذ الميثاق) في معنى الاستحلاف، وقد وضحت ذلك الآية "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس» (1) إذ جاء الفعل المضارع مصدرا باللام ومختوما بنون التوكيد وهما الأصل في تلقي القسم. ومنهم من يرى أن التقدير هو (بأن لا تعبدوا) ثم حذف الجار ثم (أن) فارتفع الفعل وبذلك يكون أصله النهي (2) ولقد جاء مثل هذا في كلام العرب: قال الفرزدق: (3)

تعش فإنْ عاهدتني لا تخونني نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يا ذئب يصطحبان

فجملة (تخونني) المنفية يحتمل أن تكون حالا فيكون محلها النَّصب، أو تكون جواب قسم، وذلك لكون الفعل المضارع مرفوعاً، لأنَّ جواب القسم لا محل له من الإعراب، ولكون جواب القسم قابلاً لأن يكون منفيّاً، ولا شك في أن الدافع إلى هذين التأويلين هو ما يحتمله المعنى، لأن (العهد) يؤدي معنى الاستحلاف.

أما في الآيتين السابقتين، فإذا أجري أخذ الميثاق مجرى القسم يكون التقدير، (وإذ أقسمنا عليهم لا تعبدون)، فتكون جملة "لا تعبدون" خبرًا محضا وهذا يتنافى مع السياق إذ عطف عليه بالأمر (وقولوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) (4) ولا يحسن عطف الأمر على الخبر المحض لتنافرهما، ويقتضي ألا تكون الواو عاطفة بل استئنافية، أما إذا قدر الأسلوب خبريا في معنى النهي، فالتقدير كما سبق "بأن لا تعبدوا" وقال بذلك الكسائي والفراء (5) ومثل له الزمخشري بقوله "كما تقول تذهب إلى فلان تقول له: هذا، تريد الأمر وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يُخْبِرُ عنه، وتنصره قراءة عبد الله وأبيّ: (لا تَعْبُدوا) ولا بد من إرادة القول» (6).

---

1- آل عمران/ 187 (مد)

2- الكشاف م 1/ 192- 193.

3- ديوان الفرزدق ط/ 1984 دار بيروت م 2/ 329.

وروي (واثقتني) مكان (عاهدتني).

4- سورة البقرة/ 83.

5- المغني ج 2/ 452.

6- الكشاف م 1/ 292- 293.

وقد قرئ "أن لا تعبدوا" على تقدير الجملة بدلا من الميثاق "كأنه قيل أخذنا ميثاق بني إسرائيل توحيدهم" (1) حسب التأويلين الأخيرين فإنّ الآيتين السابقتين لا تفيدان القسم، وذلك لأن جواب القسم لا يكون إنشائيا إلا إذا كان إستعطافيا، وهذا المعنى مستبعد عن الآيتين السابقتين.

وإذا تأملنا السياق العام الذي وردت فيه الآيتان، وجدناه اشتمل على ما يفيد التوكيد والالتزام مثل قوله تعالى "... ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون". (2)

وقوله تعالى "... ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون. ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ..." (3)

- (فالتولية)، مثلا عن الميثاق تفيد، رفضه ونقضه، وهما عادة يكونان بعد الإقرار عليه والموافقة.

- (وأنتم معرضون) أي قوم عادتكم الإعراض عن المواثيق والتولية، وعدم الوفاء بما تعاهدون عليه.

- (ثم أقررتم) أي التزمتم بالميثاق واعترفتم على أنفسكم به.

- (وأنتم تشهدون): وذلك "كقولك فلان مقر على نفسه بكذا شاهد عليها" (1)

- (ثم أنتم هؤلاء): أي أنتم بعد ذلك "هؤلاء" النّاقضون، كقولك أنت ذلك الرّجل الذى فعل كذا، وذلك للمبالغة في تقبيح حالهم وكأنهم قوم آخرون يفعلون ما يحكى عنهم فيفيد أنه كالمستحيل أن يعهد قوم ما ذُكِرَ ثم ينقضون عهدهم و يفعلون خلاف ما عاهدوه" (1).

ومن الواضح أن هذه الآيات وردت في معرض الحديث عن بني إسرائيل" والمراد من أخذ الميثاق وإقرارهم: تكليفهم بأحكام كتابهم وقبولهم لها" (4)،

---

1- الكشاف م1/ 292-293

2- سورة البقرة/83.

3- سورة البقرة/85.

4- تفسير البيضاوي ج1/ 167-168

أي التوراة قبل تحريفها ،وقبل أن تنسخ بما جاء به القرآن الكريم ، وبعد تعداد آثام بني إسرائيل والأفعال التي ارتكبوها وقد نُهُوا عنها ، كالقتل والإجلاء والاعتداء يختم هذا الجزء من القصص القرآني بتوعدهم أشد العذاب في الآخرة (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشدِّ العذاب . . .»(1) استنادًا إلى ما سبق يمكننا أن نرجح أن يكون "أخذ الميثاق" بمعنى الاستحلاف فيكون بذلك " لا تعبدون إلا الله" و " لا تسفكون دماءكم" جوابًا لقسم مقدر، وذلك نظرًا لاشتمال السياق على عدة مؤكدات، هذه المؤكدات التي يكون المقام فيها مناسبا القسم الذي هو أعلى درجة في التوكيد كما سبق ، ومما يؤيد كون "أخذ الميثاق" استحلافا هو الآية السابقة " وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس" (2) .

وكذلك قوله تعالى "حتى تُؤتونِ موثقا من الله لتأتُنَّني به . . .(3)، حيث أدَّى الموقف معنى اليمين "أراد أن يحلفوا له بالله ، وإنما جعل الحلف بالله موثقا منه، لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد، وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه (لتأتنني به) جواب اليمين لأن المعنى حتى تحلفوا لتأتنني به"(4) والموثق والميثاق ، العهد، والوعد يشبه العهد والميثاق ، وقد أجيب الوعد بما يجاب به القسم وذلك في قوله تعالى " وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض . . .»(5) فإتصال الفعل باللام والنون دليل على أنه جواب لقسم «فإن قلت :أين القسم المتلقى باللام والنون في (ليستخلفنَّهم) قلت: هو محذوف تقديره وعدهم الله وأقسم، ليستخلفنَّهم أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فَتُلُقِّيَ بما يُتلقى به القسم . . .»(6) .

---

1ـ سورة البقرة / 85 .

2ـ سورة آل عمران / 187 .

3ـ سورة يوسف / 66 .

4ـ الكشاف م 2/ 332 .

5ـ سورة النور (مدنية)/ 50 .

6ـ الكشاف م 3/ 74 .

3- الأساليب المصدرة بـ (إنّ) أو (أنّ) المتلوة بـ (لمّا) أو (لمَا) أو بـ (إلاّ) :

من ذلك قوله تعالى: " أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة . إنّ لكم لما تحكمون"(1) يقول الإمام الزمخشري في (إن لكم لما تحكمون) : "جواب لقسم لأن معنى أم لكم أيمان علينا ، أم أقسمنا لكم" (2) .

ولقد ورد في القرآن العظيم عدة تراكيب على هذا النمط منها قوله تعالى:

"وإن كُلاًّ لَمَا ليوفّينهم ربّك أعمالهم" (3)

و "وإنْ كُلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا" (4)

و "وإنْ كُلٌّ لما جميع لدينا محضرون" (5)

و "وإن كلّ نفس لما عليها حافظ" (6)

و "وإنْ منكم إلا واردها" (7)

الملاحظ أن هذه التراكيب كلها قد جاءت مصدرة (بإنْ) التي تلتها اللام ، ما عدا في الآية الأخيرة فقد تلتها إلاّ .

القول الراجح لدى النحاة أنّ (إنْ) في مثل هذه التراكيب مخففة من (إنّ) الثقيلة ، إلا أنهم إختلفوا في إعمالها وإهمالها ، فالبصريون يرون (إنْ) المخففة إذا دخلت على الجملة الاسمية يجوز إعمالها وذلك بقياسها على الأصل الذي هو (إنّ) المشددة العاملة ، وعلى هذا جاءت قراءة نافع وابن كثير للآية الكريمة "وإنّ كلاًّ لما ليوفينهم . . " كما يجوز إهمالها لزوال إختصاصها كما في قوله تعالى "وإن كلٌّ لما جميع لدينا محضرون" في قراءة من خفف "لَمَّا" (8) وأما الكوفيون فيرون أنها لا تعمل النصب في الاسم لأن "إنّ" المشددة إنما عملت لأنها أشبهت الفعل الماضي في اللفظ (9) ، وأما إذا وليها فعل فالغالب إهمالها ، وهناك من يقول بإعمالها وإنّ إسمها

---

1- سورة القلم / 39 .
2- الكشاف م 4/ 146 .
3- سورة هود / 112 .
4- سورة الزخرف / 35 .
5- سورة يس / 32
6- سورة الطارق / 4 .
7- سورة مريم / 71 .
8- ضياء السالك الى اوضح المسالك لمحمد عبد العزيز النجار : القاهرة . ج 1/ 302 .
9- الإنصاف ج 1/ 195 .

ضمير الشأن محذوف ...

أما اللام في "لما" فهي عند سيبويه والأكثرين لام الابتداء وأنها أفادت مع التوكيد الفرق بين "إنْ" المخففة من الثقيلة، و"إنْ" النافية ولهذا صارت لازمة بعد أن كانت جائزة (1) فهي مع "إنَّ" المشددة جائزة، ومع "إنْ" المخففة لازمة وتسمى في هذه الحالة اللام الفارقة، وفي هذه الحالة لا تعمل "إنْ" وإنما تهمل وهذا رأي ابن هشام (2).

وأما "لَمَّا" بالتشديد فهي بمعنى "إلاَّ" و"إنْ" في هذه الحالة تكون نافية، وعلى هذا قرئت الآيات السابقة أيضا، والذي يظهر من استقراء النصوص وخاصة ما في القرآن الكريم أن الاستعمالات السابقة من إعمال وإهمال "إنَّ" وتخفيف لـ "لما" بإعتبار أن اللام للابتداء و "ما" صلة أو زائدة، أو تشديد "لَمَّا" فتكون بمعنى "إلا" وتكون "إنْ" نافية، أو تشديد "إنَّ" وتشديد "لمَّا"، فتكون "لَمَّا" في هذه الحالة جازمة، كلّها تقبلها اللغة العربية، ولا يخفي ما لها من تأثير على المعنى غير أنها لا تبعده عن القصد الذي يهدف إليه السياق.

وما دام موضوعنا هو القسم، فما علاقة هذه التراكيب بالقسم؟

- إنْ المخففة من الثقيلة سواء عملت أو أهملت فإن معناها محمول على الأصل الذي هو التوكيد، يقول ابن هشام "وحيث وجدت إنْ وبعدها اللام المفتوحة (كما في التراكيب السابقة) فاحكم عليها بأنَّ أصلها التشديد" (3).

- اللام الداخلة على "لما" هي لام الابتداء حملا على الأصل، لأن أصل هذه اللام أن تدخل على المبتدأ كما سبق، وحين تقدمتها إنَّ المشددة زحلقتها إلى الخبر لذلك رآها الكوفيون لام جواب القسم (4)، وعدها ابن هشام مما اختلف فيه (4).

---

1- المغني ج 1 / 256 بتصرف.

2- المصدر السابق ج 1 / 313.

3- المغني ج 1 / 21.

4- الانصاف ج 1/ 399 والمغني ج 2/ 718.

ـ سبق أن "ما" في "لما" قد تكون صلة وقد تكون زائدة، غير أن الزيادة هنا منظور إليها باعتبار الوظيفة الإعرابية، أما من حيث المعنى فإنها تفيد التوكيد ـ.

ـ إنّ "إنْ" سواء كانت مخففة أو مشددة فهي مما يُتلقى به القسم قال صاحب الكشاف في قوله تعالى "إن كل نفس لما عليها حافظ": "لأن إنْ لا تخلو فيمن قرأ لَمّا مشددة بمعنى إلاّ، أن تكون نافية، وفيمن قرأها مخففة على أنّ (ما) صلة، أن تكون مُخَفَّفَةً من الثقيلة، وأيّتُهما كانت فهي مما يُتلقى به القسم"(1) ولقد سبق في الفصل الأول أن "إنْ" النافية صالحة لأن تقع في صدر جواب القسم: وقد رأى صاحب البرهان أن قوله تعالى: وإن منكم إلا واردها" جواب للقسم دل عليه المعنى"(2) وقد يكون الدّالُ عليه هو السياق* وليس المعنى فقط، وذلك إذا قدرنا الواو عاطفة في قوله تعالى "فوربك لنحشرنّهم والشياطين ثم لنحضرنّهم حول جهنّم جُثِيًّا. ثم لننزعنّ من كل شيعة أيّهم أشدّ على الرّحمن عِتِيًّا، ثم لنحن أعلم بالّذين هم أولى بها صِلِيًّا. وإن منكم إلّا واردها"(3) فإنّه وما قبله أجوبة لقوله تعالى (فوربّك...)(4) كما جاء قوله تعالى السابق "وإن كل نفس لما عليها حافظ" جوابا للقسم، وصدر جملة القسم هو "والسماء والطارق. وما أدراك ما الطّارق. النّجم الثاقب"(5)

يمكننا بعد عرض الآراء السابقة أن نرجح أن الأساليب السابقة هي مما يتلقى به القسم، سواء أكان صدر جملة القسم مصرحا به في السياق كما رأينا في الموضعين، أم كان مُقدّرًا كما في بقية الآيات الأخرى.

كما يمكننا أن نقول: إن الدلالات التي تهدف إليها الأساليب القسمية غير الصريحة هي نفسها الدلالات المستفادة من الأمور السابقة القسم عليها والمصنفة بالمخطط رقم: (6)، إلا أن هذه، قد توسع فيها الأسلوب القرآني في سياقات كلامية متنوعة، بحيث رسمت لنا صُوَرًا بليغة ومؤثرة عن أخبار الأمم السابقة مع أنبيائها لأخذ

---

1- الكشاف م 4/ 241.  2- البرهان في علوم القرآن ج 3/ 43

*- باعتبار أنّ المعنى لا يتجاوز التركيب اللغوي، وأمّا السّياق فهو أوسع من ذلك.

3- سورة مريم / 68 ـ 71.  5- سورة الطارق / 1 ـ 3.

4- المغني ج 2/ 151.

العبرة ، كما أنها رسمت مشاهد حية لصور العقاب والثواب وقدمت من الدلالات الكونية ما يجعل العقل يتأمل ويفكر ليهتدي إلى الإيمان،كل ذلك في أسلوب تدرّجي ينتقل من المقدمات الى النتائج المترتبة عنها، وهذه الدلالات كما يلي :

1ـ الدلالات العقابية : وتتمثل في الإنذار والوعيد ووصف العقاب .

2ـ الدلالات الاعتبارية : وتتمثل في ذكر أحوال الأمم وضرب الأمثال والكشف عن أحوال الإنسان النفسية والخلقية .

3ـ الدلالات الثوابية : وتتمثل في الدعوة إلى الصّبر والوعد بالجنة ووصف النّعيم .

4ـ الدلالات الكونية : وتتمثل في الدعوة إلى تأمل الظواهر الكونية .

الجامع بين هذه الدلالات هو (ترسيخ أركان الايمان ) .

رأينا إلى حَدِّ الآن أسلوب القسم بنوعيه ، القسم الصريح والقسم غير الصريح ، كما رأينا الأساليب التي تحتمل أن تكون قسما ، ولقد ذكرنا نماذج كثيرة من القرآن الكريم ، حاولنا بقدر الإمكان أن نُبيّن من خلالها الدلالات اللغوية والبلاغية التي أدّتها جملة القسم بطرفيها (الصدر والعجز)أي (المقسم به والمقسم عليه) ولقد إعتمدنا على السياق الّذي يرد فيه أسلوب القسم وذلك من أجل معرفة دلالاته بإعتبار ما يتقدمها أو ما يتلوها من السياق ، تمهيدًا لدراسة الصورة التعبيرية التي يكون القسم مِحْوَرًا لها .

وذلك أن الدّراسات الألسنية الحديثة ترى أن العملية الكلامية لا بُدَّ أن تتوفر فيها ثلاث عناصر أساسية هي : (الباث والمتقبل والرسالة )،وإذا حاولنا أن ننظر إلى هذه العناصر من خلال موضوعنا نقول : إن الباث هو الذي يتولى تبليغ الرسالة ويقوم بمهمة توصيلها إلى المخاطب أو المستمع ، وهو في موضوعنا الرسول (ص ) ، الذي نزل عليه القرآن الكريم ، وينوب النص المدوّن الذي نرجع إليه في كل زمان ومكان عن الباث ، فدراسة القرآن وتفسيره وذكر مناسبات النزول والأحداث والوقائع التي نزل فيها

القرآن ، كلّ ذلك يجعل الدّارس له والمطلع عليه يقترب كثيرًا بفكره وتأمّله من العصر الذي نزل فيه القرآن والظروف التي رافقت نزوله ، فيكون أقرب إلى فهمه واستيعابه .

والمستمع أو المخاطب هو الذي توجهت إليه الرسالة وخاطبته ونزلت من أجله ، والنّص القرآني هو الرسالة طبعًا . ولا بُدَّ من أن تكون الرسالة وفق (سنن) معينة هي جملة القواعد النحوية والصرفية وطرق التراكيب المتعارف عليها مسبقا بين الباثّ والمتقبل ، وإلاّ فقدت الرسالة مغزاها وهدفها بفقدان الاتصال بين الباث والمتقبل ، الناتج عن اختلال (سنن) كل منهما .

والقرآن الكريم ، نزل باللّغة العربية على قوم يتقنون اللّغة العربية ، ويعرفون تراكيبها وبلاغتها وطرق الأداء فيها حتى لا تبقى لهم حجة يتذرعون بها عن عدم استجابتهم لما نزل عليهم .

والهدف من الرسالة أصلا هو التّبليغ والتوصيل وفق (سنن) ، ومن هذه السنن أساليب اللغة التي منها القسم .

كما أن المراد من عملية التوصيل والتبليغ هو الوصول إلى الإقناع أصلاً ، فماهي طرق الإقناع ؟ وكيف استطاعت الصور التعبيرية التي محورها أساليب قسمية ، أن تحقق عملية الإقناع عبر السياق الذي وردت فيه ؟

هذا ما نتناوله في الفصل الآتي ...

القرآن ، كلّ ذلك يجعل الدّارس له والمطلع عليه يقترب كثيرًا بفكره وتأمّله من العصر الذي نزل فيه القرآن والظروف التي رافقت نزوله ، فيكون أقربَ إلى فهمه واستيعابه .

والمستمع أو المخاطب هو الذي توجهت إليه الرسالة وخاطبته ونزلت من أجله ، والنّص القرآني هو الرسالة طبعًا . ولا بُدَّ من أن تكون الرسالة وفق (سنن) معينة هي جملة القواعد النحوية والصرفية وطرق التراكيب المتعارف عليها مسبقا بين الباثّ والمتقبل ، وإلاّ فقدت الرسالة مغزاها وهدفها بفقدان الاتصال بين الباث والمتقبل ، الناتج عن اختلال (سنن) كل منهما .

والقرآن الكريم ، نزل باللّغة العربية على قوم يتقنون اللّغة العربية ، ويعرفون تراكيبها وبلاغتها وطرق الأداء فيها حتى لا تَبْقَى لهم حجة يتذرعون بها عن عدم استجابتهم لما نزل عليهم .

والهدف من الرسالة أصلا هو التّبليغ والتوصيل وفق (سنن) ، ومن هذه السنن أساليب اللغة التي منها القسم .

كما أن المراد من عملية التوصيل والتبليغ هو الوصول إلى الإقناع أصلاً ، فماهي طرق الإقناع ؟ وكيف استطاعت الصور التعبيرية التي محورها أساليب قسمية ، أن تحقق عملية الإقناع عبر السياق الذي وردت فيه ؟

هذا ما نتناوله في الفصل الآتي ...

# الفصـــــــــــــــــــــــــل الثالـــــــــــــــــــــــــث

أهميـــــــة القســـــــم في عمليـــــــة التبليـــــــغ و تحقيق الإقنـــاع ..

لعلّ وظيفتي التّعبير والتّبليغ هما الوظيفتان الأساسيّتان اللّتان ترصف بهما اللغة ، إذ بهما تتحقق عملية الإقناع التي هي في الأصل الهدف الأسمى والمقصود من وراء الكلام .

والجدير بالذكر، أن طرق التعبير عديدة ومتنوعة ، منها الإشارات والإيماءات والتغيرات (الفيزيولوجية) المصاحبة لعملية التّوصيل ، وما علامات الترقيم المصاحبة للكتابة إلا جزء من تلك الإشارات الدالة على المعاني التي لا يمكن أن يفي بها شكل الكتابة وحده ، كالنقطة التي يشار بها إلى اكتمال المعنى أو الفكرة، وعلامة التعجب ، وعلامة الاستفهام ...

فقولنا مثلا " أسافر إلى وهران" يحتمل أن يكون إخباراً إذا كان الهدف منه الإخبار، بحيث نقف على المقطع الأخير منه ، بنغمة هابطة ، ويحتمل أن يكون إستفهاماً إذا إقتضى الموقف الكلامي ذلك ، كأن أسأل عن سفري إلى وهران ، وحينئذ يؤدّى المقطع الأخير بنغمة صاعدة مع وقوع شدّة النبر على بعض المقاطع الأخرى، كالمقطعين (أ ـ سا) من ( أسافر) مثلا* .

وذلك أن الأصل في اللغة أن تكون منطوقة ، وهكذا عاشت اللغات أزمنة طويلة ، قبل أن يوجد لها الرمز الكتابي المتمثل في الحُروف والكلمات .

ولذلك قال ابن جني في اللّغة "أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»(1) فالأصل في اللغة إذن أن تكون منطوقة، مسموعة ،لذلك قال ابن خلدون« والسّمع أبو الملكات اللّسانية »(2). ولعلّ طرق الأداء التي يعتمدها القراء في قراءة القرآن الكريم قد احتفظت بالكثير من الجوانب الصوتية وخاصة في ظاهرتي التفخيم والتّرقيق وبعض المظاهر الصّوتية الأخرى ، كما حاولوا أن يُوجِدُوا بعض الرّموز الكتابية التي تُبَيِّنُ

---

*ـ النبر هو وضوح نسبي لصوت أو مقطع إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام وهو قسمان : نبر صرفي ويقع على مقطع من مقاطع الصّيغة الصرفية ، ونبر دلالي ويقع في السياق وله تأثير على المعنى .

ـ التنغيم : هو إرتفاع الصوت وإنخفاضه أثناء الكلام ( ينظر كتاب مناهج البحث في اللغة .د. تمام حسان ط 1979 دار الثقافة المغرب ص: 194ـ 195 و 198 .

1ـ الخصائص ج 1/ 33.

2ـ المقدمة لابن خلدون مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد القاهر ص : 410 .

طريقة النطق بالحروف، مثل الإمالة والإدغام والمَدّ، وليس في مقدور الكتابة العادية أن ترشدنا إلى ذلك، بل حتى النّطق بالحروف قد تغيّر من فترة زمانية إلى أخرى، عند أبناء المجتمع الواحد، وفي الفترة نفسها من فئة إلى فئة أو من شخص إلى آخر، ويقول دى سوسير: "للغة تقليد شفوي مستقل عن الكتابة وثابت على نحو آخر" (1) ومع تقدم المجتمعات وميلها إلى الاستقرار شيئا فشيئا، هذا الاستقرار الذي دعت إليه الحضارة، أصبحت الحاجة إلى إيجاد الرموز الكتابية ملحة وذلك لنقل الخبرات عبر الأجيال، إذ لم تعد حاجات الإنسان مقتصرة على التعبير عن الحاجات الفطرية البسيطة التّي لا تتعدى اللغة المنطوقة، وذلك أنّ الصّور الخطية للّغة تتميّز بطابع الثّبوت والاستمرار، فهي أكثر قدرة على تشكيل وحدة اللغة عبر الزمن، بالقياس إلى الأصوات بدون كتابة.

إن ضرورة إرتباط اللغة بالفكر، هو الذي جعل العلاقة بينها وبين الكتابة تزداد تَوطُّدًا، وذلك لحاجة الإنسان إلى تسجيل أفكاره وتوصيلها إلى غيره من جهة، ولارتباط تفكيره ومعانيه بكلمات معبرة عنها من جهة ثانية، بحيث لم تعد اللّغة مجرد إشارات وأصوات تنوب عن الأشياء بصورة مباشرة بل هي تنوب عن الأفكار القائمة مقام الأشياء، ومن هنا تبدو العلاقة قائمة بين قضايا المعرفة وقضايا اللغة، وقضايا المعرفة ذات اتصال وثيق بالمجتمع والفرد، ومن هنا رأى دى سوسير ضرورة ربطها بالمجتمع، يقول: "وتشتمل دراسة اللّسان جزأين: الأول جوهري وغرضه اللغة التي تتميز بكونها اجتماعية في ماهيتها ومستقلة عن الفرد وهذه الدّراسة هي نفسية وحسب، الثاني: وغرضه الجزء الفرديّ من اللسان

---

1- محاضرات في الألسنية العامة لفرينان دى سوسير، ترجمة يوسف غازى مجيد النصر المؤسسة الجزائرية للطباعة ط/ 1986 ص: 40.

وكتب د. كمال محمد بشر فصلا بعنوان "مظاهر التطور في اللغة العربية المعاصرة" درس فيه بعض الظواهر الصوتية على مستوى الأصوات المفردة وعلى مستوى الكلمة ومما قاله في هذا الفصل "ذلك أن اللغة المكتوبة تفقد عنصرين مهمين من عناصر البحث هما النطق الفعلي، والمسرح اللّغوى أو موقف الكلام وما يتصل به من ظروف وملابسات" دراسات في علم اللغة د. كمال محمد بشر. ط 2/ 1971 دار المعارف بمصر ص: 129.

ونعني بذلك الكلام بما فيه التّصويت، وهذا الجزء هو نفسي فيزيائي، ومن غير شك أن هذين الغرضين مرتبطان متلازمان... إن لواقعة الكلام السّبق دائما، فكيف يمكننا التنبه لربط فكرة ما بصورة شفهية إنْ لم نكتشف أولا هذا الترابط في في فعل الكلام ؟»[1] ومن خصائص اللغة الامتداد الى كل حياة بشرية فبواسطتها تتناقل الخبرات والمعارف والتجارب الانسانية عبر الأجيال كما يتم عن طريقها التفاهم.

وظيفة التعبير: لا شك في أن الوظيفة الأساسية للغة هي التعبير عن الأفكار وسائر العمليات العقلية الراقية منها والبسيطة، إذ هي أداة لا غنى عنها للتعامل بين أفراد المجتمع، فهي وسيلة التفاهم والتخاطب.

والغالب على اللغة في الدرجة الأولى أنها تعبر عن الأحاسيس والمشاعر وتفصح عنها، لذلك نحن نجد عند الكثير من العلماء والمفكرين إلى جانب كتاباتهم العلمية الموضوعيّة كتابات ذاتية يُراد منها التعبير عن حالات وجدانية، ونفسية، وقديما قال الشاعر العربي * لسان الفتى نصف ونصف فؤاده - فلم يَبْقَ إلّا صورة اللّحم والدّم *

أما التعبير عن الأفكار والعمليات العقلية الراقية فيطلق عليه (النوع الوضعي أو الاصطلاحي)[2] أما النّوع الأول من التعبير فهو فطري، وللتفريق بين النوعين نقول: إنّ التعبير الفطري هو الأصل، لأنه الأساس في وصف العواطف والحالات الشعورية والانفعالية التي تعتري الإنسان، فأوجد في لغته ما يدل على هذه الحالات الانفعالية من ألفاظ وتراكيب، ليعبر بها عن حزنه وفرحه وسائر أحواله... لذلك يرى الدكتور حنفي بن عيسى أن التعبير الفطري هو لغة العواطف والانفعالات والأحاسيس كالصّراخ والضحك والبكاء واحمرار الوجه وغير ذلك من المظاهر غير الارادية التي تدرك بالحس وذلك قبل أن تخترع لها الحضارة ما شاءت من

---

1ـ محاضرات في الألسنية العامة ص: 31 ـ 32

* ـ شرح المعلقات السبع ص: 118: معلقة زهير بن أبي سلمى.

2ـ محاضرات في علم النفس اللغوي د. حنفي بن عيسى ط2/ 1980 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر: ص: 82 ـ 83.

المصطلحات والتعبير ، وتشترك معظم الحيوانات في هذا النّوع من التعبير الفطري .

وأما النوع الثاني، وهو التعبير الوضعي أو الاصطلاحي فهو نتاج التقدم الحضاري وبه يتعامل الناس ويتفاهمون ، ويتصف بكونه إراديا مقصودًا وبعدم اقتصاره على الحجات الضرورية للبقاء ، إذ يمكننا بواسطة اللّغة الاصطلاحية التعبير عن كل شيء سواء كان ضروريا أو كماليا ، ماديا أو معنويًا ملموسًا أو مجردًا وهو قسمان:

1ـ ما يدرك بالبصر كالإشارات والحركات .

2ـ ما يدرك بالسمع كالأصوات المركبة والمقاطع والكلمات والجمل [1] .

---

1ـ محاضرات في علم النفس اللّغوي : ص : 82 ـ 83 .

ومن هنا إحتاج الانسان الى ثروة من الألفاظ والتعابير، لم يجدها جاهزة في لغته، فلجأ الى المجاز وهو تحميل الألفاظ من الدلالات والمعاني مالم توضع له أساسا، والحاجة إليه إنّما بسبب إفتقار الإنسان إلى الألفاظ التي تعبرعن مختلف المعاني التي يريدها، فالمجاز من الاجتياز والعبور من مكان إلى آخر قال السكاكي " المجاز هوالكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق، إستعمالا في الغير بالنسبة الى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناه في ذلك النوع"(1) وذلك أن اللغة في الغالب قوامها الكلام الذى بواسطته تتكشف الصّور والمعاني، يقول عبد القاهر الجرجاني " اعلم أن الكلام هو الذى يعطي العلوم منازلها ويبيّن مراتبها ويكشف عن صورها ويجني صنوف ثمرها، ويدل على أسرارها ويبرز مكنون ضمائرها..."(2)

وهكذا نرى أن اللغة أهمّ وسيلة لنقل الافكار، وما تحتوى عليه، والتعبير عنها في صور من التراكيب والألفاظ تحمل من الدلالات ما إصطلح عليه أبناء الأمّة الواحدة، ما كانت تلك التراكيب والألفاظ لتفيده ما لم تتآلف في نسق معيّن تقبله طبيعة اللغة وطبيعة المجتمع (صاحب اللغة)، فالكلام فردي لأنه خاصّ من حيث كونه يعبر عن رأي صاحبه ووجهة نظره في أمر من الأمور، ولكن وفق أنماط وأساليب جرى التعارف عليها بين أبناء المجتمع كله، وإلّا كانت الألفاظ ضربا من العبث، ولقد قال الشاعر العربي*:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنّما - جعل اللّسان على الفؤاد دليلا

وأما اللغة فإجتماعية بإعتبار أنها موجودة لدى كل فرد وليست فردية، فهي بمثابة البصمات الموضوعة في أذهان أفراد المجموعة كما يقول دى سوسير (3)، هذه

---

1- علم البيان د. بدوى طبانة ط/ 1981 دار الثقافة بيروت: 118.

2- أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني تصحيح محمد عبده، دار المطبوعات العربية ص: 01.

*- شرح شذور الذهب: ص: 28 وقد ذكر نسبته إلى الأخطل.

3- غريب الحديث لابن قتيبة تحقيق .د. رضا السويسي ط/ 1979 الدار التونسية للنشر م1/ 45 نقلا عن محاضرات في الألسنية العامة لدى سوسير ص: 23

البصمات الموضوعة في أذهان أفراد المجتمع صاحب اللغة هي التي تجعله يودع هذه اللغة ما شاء من المعاني والأفكار، فتغدو بذلك حاملة لمخزون تراثي وفكري له أثره البالغ على العقل والتفكير، فيكون بذلك أهم عامل من عوامل تحديد هوية الأمة وتمييز شخصيتها عن غيرها.

والكلام الذي هو فردي لا بد أن يستند إلى هذا المخزون بمعانيه وألفاظه عند التعبير عن الأفكار والمشاعر ليخرجها إخراجا جديدا، لا تقليدا محضا ولا إنشاء خالصا من غير إحتذاء، ولذلك كان التعبير فرديا يختلف من شخص الى شخص، مع أن اللّغة واحدة جامعة بين أفراد المجتمع.

و إذا كانت وظيفة التعبير مقصودة لذاتها أحيانا، إذ إنّ الكثير من صور التعبير قد لا يراد بها إيصال الأفكار الى المخاطب، فإن هناك وظيفة أساسية أخرى للغة هي وظيفة التبليغ:

ـ وظيفة التبليغ: إذا قلنا إن اللغة أداة للتعبير عن المشاعر والعواطف ومختلف الماديات والمحسوسات، فإن أهم وظيفة أنشئت اللغة من أجلها هي وظيفة التبليغ أو التوصيل، هذه الوظيفة التي هي أساس نقل الخبرات والتجارب بين أفراد المجتمع، في فترة زمانية معيّنة، أو عبر فترات متلاحقة من الزمان، فهذا الكم المتراكم من العادات والتجارب وطرق التفكير الّذي هو الأساس في صنع الأحكام والقوانين، وبناء الحضارة عند أمّة من الأمم، إنّما كانت اللغة هي الوسيلة الأساسية لنقله وتبليغه.

وتقتضي عملية التبليغ الانساني توافر العوامل التالية: (1)

1ـ إنسان مرسل.

2ـ إنسان ملتقط.

3ـ إقامة اتصال بين المرسل والملتقط.

---

1ـ الالسنية (علم اللغة الحديث) د. ميشال زكريا ط2/ 1983 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ص: 52 ـ 53.

4ـ لغة مشتركة يتكلمهـا المرسل والملتقط معا .

5ـ مرسلـة لغويـة .

6ـ محتوى لغوي ترمز إليه المرسلـة .

فالمرسل : هوالمتكلم مصدر الرسالة : والملتقط: هو السامع أو المخاطب أوالقارئ الذى يتقبل الرسالة والمرسلة أو الرسالة : هي النص الكلامي سواء كان شفويا أوكتابيا واللغة المشتركة : هي جملة من (القواعد والقوانين التي نتمكن بواسطتها من تركيب الرسالة وتفكيكهـا ) (1)

وهذه القواعد والقوانين يتفق عليها إتفاقا كليا أوجزئيا كل من البـاث والمتقبل (وبقدر مطابقة الرموز المتقبلة بسنن المتقبل بقدر ما يحصل الفهم وسرعته فقيمة التواصل متوقفة إذن على عناصر نفسية وثقافية ) (2) فالسنن هي نظام من العلامات تقوم عليه اللغة "وما اللغة إلا نظام علامات ... فالعلامة هي المبدأ الأساسي للالسنية وهي أصغر وحدة لها دلالة" (3) .

والمحتوى اللغوى : الذى ترمز إليه المرسلة يتمثل في المكونات النحويـة والرمزية والأسلوبية التي تتألف منها الرسالة لتعبر عن موضوع واحد، وهذا مـا يعرف بالمرجع، وتتطلب المرسلة أخيرا قناة إتصال تحقق عملية التوصيل بين البـاث والمتقبل . والذى نراه في موضوعنا هذا ، أن مصدر الرسالة هو الله تعالـى وأنّ مبلغها هوالرسول محمد (ص ) ، والرسالة هي القرآن الكريم ، والمخاطبين هم البشر كافة والعرب خاصة .

ولقد أدرك الجاحظ* عملية التوصيل أو التبليغ هذه في وقت مبكر وهو يتحدث عن نظرية الإعجاز البياني ، فقال: "ولذلك قال الله تبارك وتعالى (وما أرسلنامن رسول إلاّ بلسان قومه لِيُبَيِّنَ لهم) (4) ... فإذا كان الأمر كذلك،

---

1ـ غريب الحديث : ص : 52 .

2ـ المرجع السابق ص : 48ـ 49.

3ـ المرجع السابق ص : 51 .

4ـ سورة إبراهيم / 04.

*ـ أبو عثمان الجاحظ ،عمرو بن بحر بن محبوب المتوفى سنة 255 هـ . .

كان قومه أول من يفهم عنه ثم يصيرون حجّة على غيرهم "(1)

فالعنصران الأساسيان عند الجاحظ هما : 1ـ الرسالة 2 ـ إفهامها وتبليغها الى الناس ، وتبليغها يقتضي أن تكون بالوسائل البشرية المقتصرة على الكلام، وهكذا كانت الرسالة الدينية التي هي القرآن الكريم "إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون "(2)، وكونه عربيا يستفاد منه أنهم ملزمون بفهمه وتفهيمه ، إذ لا حجة لهم في عدم تبليغه ما دام قد نزل بلغتهم ، ثم إنّ الدراسات البلاغية عند كبار البلاغيين أمثال الجاحظ ما هي في الحقيقة إلا جهود مبذولة لتفهّم الرسالة الدينية التي هي القرآن وتبيان أسرارها البلاغية ومعانيها الغامضة .

أهمية السياق في تحديد الدلالة :

إن اهتمام علماء اللغة المحدثين بعملية التبليغ في اللغة ، كان الأساس في إنشاء نظرية التواصل في الدراسات الالسنية الحديثة، وذلك من أجل تحديد وظائف الخطاب أو الرسالة (3) .

كما أنه من اهتمامات علمائنا القدماء بعناصر عملية التبليغ ، رأوا أنه إذا كان المخاطب خالي الذهن من الخبر الذي يريد المتكلم نقله إليه، اكتفى المتكلم بنقل الخبر بدون اللجوء إلى المؤكدات، وأما إن لوحظ على المخاطب شيء من التردد وعدم التّصديق لجأ المتكلم إلى توكيد كلامه بمؤكد واحد مثلا، وأمّا إن كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار كاللجوء إلى أكثر من مؤكد مثلا .

وفي ذلك يقول الخطيب القزويني المتوفي سنة : 739 هـ: "فإنْ كان المخاطب خالي الذّهن من الحكم... والتردد فيه إستغني عن مؤكدات الحكم كقولك : جاء زيد ... فيتمكن في ذهنه ، لمصادفته إيّاه خاليا، وإن كان متصورا (للحكم) ... متردّدا ... حَسُنَ تقويته (أي الحكم) بمؤكد كقولك : (لزيد عارفٌ) أو

---

1ـ البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط4/ 1971 القاهرة ج 3 / 291 .

2ـ سورة يوسف / 2 .

3ـ الالسنية ( علم اللغة الحديث ) ص: 53 ـ 55 .

(إنّ زيدًا عارفٌ)، وإن كان حاكما بخلافه وجب توكيده بحسب الإنكار فتقول: (إني صادق) لمن ينكر صدقك ولا يبالغ في إنكاره، و(إني لصادق) لمن يبالغ في إنكاره وعليه قوله تعالى: "واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما، فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مُرسَلُون، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء إنْ أنتم إلا تكذبون. قالوا ربنا يعلم أنا إليكم لمرسلون" (1) حيث قال في المرة الأولى: إنا إليكم مرسلون، وفي الثانية إنا إليكم لمرسلون" (2).

فقد كان التأكيد في المرة الاولى بإنّ والجملة الاسمية، وفي المرة الثانية بالقسم المقدر وإنّ واللام الدّاخِلَة على خبرها (إنّا إليكم لمرسلون) وذلك لمبالغة المخاطبين في الإنكار حين قالوا (ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون).

فمبالغتهم في الإنكار كانت أيضًا بواسطة استعمال القسم لتأكيد النّفي وهذا ما يفيده السياق، لأن (إنْ، وما) النافيتين مما يتلقى به القسم كما سبق، كما أن المبالغة في الانكار بالتأكيد القسمي، تقتضي أن يكون الإنكار مؤكدًا أيضا بالقسم ليتكافأ الطّرفان، كما أنهم قسّموا التأكيد قسمين: تأكيد واجب وهو الذي يرفع الشك والانكار عن المخاطب حول الخبر المنقول إليه ويكون بأكثر من مؤكد، وتأكيد مستحسن ويكون في حالة ما إذا ظن المُخَاطَبُ خلاف ما يُخبر به المتكلم، من ذلك مثلا الجواب (بأنّ) عند السؤال كما في قولنا: أين زيد؟ فيكون الجواب: إنه في الدّار، حيث لا يستقيم الجواب (في الدّار) بدون (إنّ) (3).

ويقول ابن خلدون في هذا الصدد: "وكذا تأكيد الإسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وإنّ زيدًا لقائم، وإنّ زيدًا لقائم، متغايرة كلها في الأدلة وإن استوت من طَرِيق

---

1- سورة يس / 13 - 16.

2- الإيضاح في علوم البلاغة ج 1 / ص: 69.

3- المصدر السابق ج 1/ 70.

الإعراب ، فإن الأول العاري من التوكيد إنما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد بإنّ يفيد المتردد ، والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة " (1)

أما بالنسبة الى العنصر الثالث وهو الرسالة : فقد حصروا مهمتها في شيئين أساسيين هما (فائدة الخبر) و (لازم فائدة الخبر) ، في ذلك يقول الخطيب القزويني : "من المعلوم لكل عاقل أنّ قصدَ المخبر بخبره إفادةُ المخاطب إمّا نَفْسَ الحكم كقولك (زيد قائم) لمن لا يعلم أنّه قائم ، ويسمى هذا فائدة الخبر ، إمّا كَوْنَ المخبر عالما بالحكم كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك ، (زيد عندك) ويسمى هذا (لازم فائدة الخبر) " (2) .

يستفاد من ذلك أن العنصرين (فائدة الخبر ، ولازم فائدة الخبر) كلاهما يدخل ضمن الوظيفة الأساسية للرسالة التي هي وظيفة (التبليغ) .

فالمراد من "فائدة الخبر" هو نقل نسبة كلامية إلى المخاطب سواء تحققت هذه النسبة في الخارج أولم تتحقق ، والأساس فيها هو أن يكون المخاطب جاهلا لها .

أما "لازم فائدة الخبر" فالأصل فيه أنْ يكون الحكم معلوما قبل الإخبار ، عند المخاطب ، فيكون الخبر عنه حينئذ قد أفاد لازم الفائدة ولم يفد الفائدة ، وربما عد هذا من تحصيل الحاصل ، غير أن القصد منه أيضاً هو الاستفادة من الخبر بأي كيفية كانت ، وذلك لما يحيط بالموقف الكلامي من ملابسات وظروف ، ومن ذلك قوله تعالى : " ولقد علموا لَمَنِ إشتراه ماله في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون" * فقد نزّل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل بهما ، وذلك لعدم جريه على موجب العلم ، فيُلقي إليه الخبر كما يُلْقَى إلى الجاهل بأحدهما ... (3) ، وهذا ما نجده في الآية السابقة ، ففي صدر الآية يصفُ أهل

---

1- المقدمة ص: 413 .

2- الايضاح في علوم البلاغة ج 1/ 65 - 66 .

*- سورة البقرة / 101 .

3- المصدر السابق ج 1/ 68 .

الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي، وفي آخرها ينفي عنهم ذلك العلم حيث لم يعملوا بعلمهم .

لقد رأينا الى حد الآن أن الوظيفة التبليغية قد تؤدى بواسطة تركيب عادى خال من التوكيد، وقد تحتوي على مؤكد واحد أو أكثر وذلك حسب حال المخاطب، ومقتضي هذه الحال، والظروف المحيطة بالموقف الكلامي، بناء على ذلك فقد تضمن النص الخطابي القرآني جميع ما كان شائعا عند العرب من أساليب وطرق التوكيد وذلك حسب تغير الأحوال والظروف التي يجري فيها الخطاب وهذا ما درسه القدماء تحت عنوان "أسباب النزول"* والقصد منها الأحوال والظروف الاجتماعية والنفسية وما يرافقها من أحداث ووقائع كانت سَبَبًا في نزول قرآن يفصل فيها، أو يبين ما فيها من خطأ وصواب، أو يُجيبُ عمّا فيها من إشكالات، وربما إعترض معترض بأن القرآن الكريم أعلى درجة من حيث البلاغة، والبلاغة تعني الإيجاز، والتوكيد إنما يجيء لقصور النفس عن تأدية المراد بغير تأكيد، ولهذا أنكروا وقوعه في القرآن، وللإجابة عن ذلك يمكن القول: "بأن القرآن نزل على لِسانِ قومٍ وفي لسانهم التأكيد والتكرار وخطابه أكثر، بل هو معدود في الفصاحة والبراعة ... إذ لولا وجوده لم يكن لتسميته تأكيدًا فائدة ..." (1)

## أساليب التوكيد في اللغة العربية كثيرة ومتنوعة

وإنما يلجأ الى استعمالها حسب الحاجة إليها، وربما أُدِّيَ تركيب واحد مثلا بعدة طرق مختلفة، فيبقى معناه الأساسي واحدًا لا يتغير، غير أنه يزيد وينقص بسبب ما يطرأ على التركيب من وسائل تأكيدية فقولنا مثلا "عبد الله قائم" أفاد معنى أساسيًا هو الإخبار عن (عبد الله أنه قائم) فإذا صغنا هذا التركيب على الأنماط التالية:

---

*- ينظر الى كتاب "لباب النقول في أسلوب النزول" لجلال الدين السيوطي ط4/ دار إحياء العلوم ببيروت: ص: 13. 14 من المقدمة وص 15 من تنبيهات

1- البرهان في علوم القرآن. ج 2 / 384 .

1ـ عبد الله قائم .

2ـ إنّ عبد الله قائم .

3ـ إنّ عبد الله لقائم .

كان الأول: إخبارا مجردا ، والثاني: جوابا عن سؤال أو نفيًا لِشكٍّ يراود السائل ، فاحتوى على مؤكد واحد استحسانا ، والثالث: جوابا عن إنكار منكر (1) فاحتوى على ثلاث مؤكدات هي: إن واللام والقسم المقدر .

فالرسالة سلسلة من التراكيب والجمل متعارف عليها على الأقل جزئيا هذه التراكيب والجمل مكونة من وحدات صوتية هي الألفاظ أو الكلمات ، وتترابط مع بعضها لتعطي مفاهيم وأفكارا ، أكثر كمالا ونضجا ، لا يمكن أن تؤديها الألفاظ في حالة انفرادها عن السّياق الكلامي ، ومن تآلف الأفكار مع بعضها ينتج الموضوع المتكامل الذي يستفيد منه السامع .

فاللفظ له معنى بالوضع والاصطلاح ، ثم إنه قد يخرج إلى معاني أخرى تستفاد من السياق العام ، والموقع الذى تحتله الكلمة في التركيب اللغوي ، ومن هنا تحمل الألفاظ أبعادًا دلالية مختلفة منها ، الاجتماعية والفكرية والفنية ، وذلك بحسب "ما يكون قد طرأ على الكلمة من تطور دلالي بحسب القوانين التي ترصد حركة الألفاظ والدلالات في الزّمان المتتابع بين العصور ، وفي المجالات المختلفة من علمية واجتماعية وفنية" (2)

وطبقا لهذا المفهوم السابق يقسم الدكتور فايز الداية الدلالة الى قسمين كبيرين هما :

أ ـ الدلالة اللغوية : بحسب العرف اللغوى مع كل التطورات التي تطرأ عليها في السياقات المتعددة ، وهذه مرصودة في المعجم وفي الاستعمال ، ولا ينطبق عليها أي حديث عن صلة طبيعية بين الدّال والمدلول .

---

1ـ الإيضاح في علوم البلاغة ج 1/ 71 .

2ـ علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق .د . فايز الداية ديوان المطبوعات الجامعية ص: 22 .

ب- الدلالة الفنية : والسياقية عامة ، وها هنا نجد أن كثرة استعمال كلمات بأعيانها في مجال اجتماعي أو علمي أو فني ، تورث انطباعا يربط بين هذه الأجواء والرمز اللغوي توهّماً أنّ الصوت من الأصوات في الكلمة له صلة طبيعية بالحدث أو بالصفة أو الشيء من الأشياء ، ومرد الأمر كما ترى الى الاعتياد لا الى حقيقة طبيعية كانت الدافع الى تشكيل الكلمة وتأليفها " (1) .

والى قريب من هذا يذهب الدكتور محمد أحمد أبو الفرج في تقسيمه المعنى إلى ثلاثة أقسام : أ- المعنى اللغوي ، ب- المعنى السياقي ، ج - المعنى الاجتماعي . (2)

إلا أن عملية الوضع والاصطلاح تخضع لمنطق ، إنّه المنطق اللغوي الذي من ميزاته في هذه الحالة السعي إلى إيجاد خيطٍ ولو رفيعا ليربط به بين عدة دلالات قد يفيدها اللّفظ الواحد ، وذلك بحسب السياق الوارد فيه ، وما دامت اللغة ظاهرة إجتماعية ، فإن العقل البشري عندما يريد التعبير عن المعاني والأفكار التي تشغله يعمد إلى هذا المخزون الجماعي ويتصرف فيه وفق منطق معين ، قوامه أنّ اللّغة والأفكار تربط بينهما علاقات متشابكة ومتداخلة ، يمكن أنْ نتمثلها على الشكل التالي :

هناك رصيد الألفاظ والتعابير الموجود في حيّزٍ معين ، يقابله مجموعة من المعاني والأفكار في حيّز آخر ، والأفكار تتجدد باستمرار لا يمكن أن نتوقّف ، وذلك بفعل المؤثرات الخارجية المحيطة بالإنسان ، والإنسان كلما إستشعر فكرة جديدة ، شرع ذهنه مباشرة في التفتيش عن اللفظة والتركيب المناسبين لها ، وعمدته في ذلك رصيده من الألفاظ والتعابير المخزونة لديه ، فاللغة في الذهن منفعلة ومستجيبة فطريًا لاستيعاب المعاني الواردة على الذهن من الخارج ، والأفكار والمعاني فاعلة ومؤثرة .

---

1- المرجع السابق ص : 21 .

2- المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث ، د . أحمد محمد أبو الفرج ط/ 1966 ، دار النهضة للطباعة والنشر ص: 12 .

تحيّز الأفكار يتسع باستمرار ويتجدد بفعل الزمان والمحيط وسائر المؤثرات، وربما مات الكثير من الأفكار والمعاني بتجاوز الزمن إيّاها فلم تعد صالحة.

أما حيّز الالفاظ فهو مخزن دوما على شكل مجموعات، كل مجموعة يربطها موضوع معيّن، على أن هذا الرباط يرجع إلى كون هذه الالفاظ إكتسبت نوعا معينا من الدلالات بمرور الزمن، لأن الدلالة اعتيادية كما سبق، فإذا إحتاج الانسان الى التعبير عن فكرة معينة، فإن فكره ينصرف مباشرة إلى مجموعة الألفاظ التي تقابل الموضوع الذي تنتمي اليه تلك الفكرة.

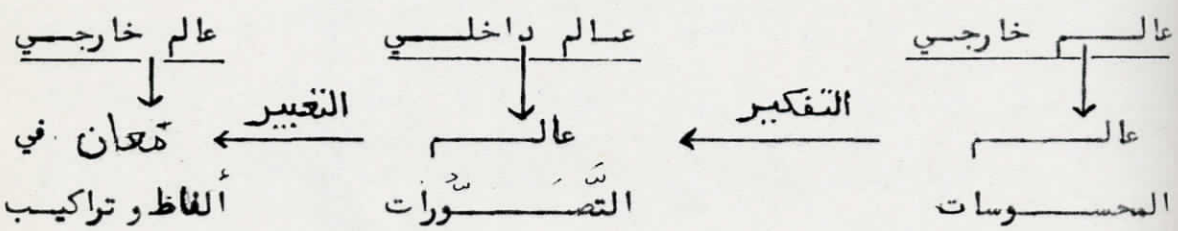
ولعل العالمين: ابن فارس، وابن جني، قد شعرا بنحو من هذا عندما راحا يبحثان عن أصل اللّغة، والجذور اللّغوية لمعرفة العلاقة بين الدّال والمدلول، ولئن كان ابن فارس قد مال إلى توقيفية اللغة، وأن الألفاظ دالة على المعاني بالتوقيف والإلهام، فإن ابن جني مال إلى أنّ اللغة اصطلاحية وأن الألفاظ دالة على المعاني بالوضع أي (بالاعتياد والاصطلاح).

ولما كانت اللغة قابلة للتدوين والكتابة فإنها بقيت محفوظة بألفاظها، وإنّ الكثير من المعاني والأفكار التي نقف عليها اليوم من خلال دراستنا اللّغة نجدها قد ماتت، وأن العصر لا يحتاج إليها، أما ألفاظها فقد بقيت في حيّزها صالحة للاستعمال من جديد، إذا دعت الحاجة إليها، ولكن ليس بمعانيها القديمة بل بمعان جديدة يراعى فيها الحفاظ على ذلك الخيط الرابط بين هذا المعنى الجديد، والمعنى الأصلي الذي أساسه الوضع والاصطلاح كما سبق.

وبناءً على ما سبق يمكننا أنْ نتصور العلاقة بين الألفاظ والمعاني كما يلي: إنّ الانسان بمشاهداته الحسية للعالم الخارجي المحيط به تتكون لديه أفكار ومعان تنتقل إلى ذهنه في شكل صور معنوية، منفصلة عن مدركاتها الحسية، فهي في ذهنه مخزنة على شكل مجموعات من التّصورات، كل مجموعة يربط بينها رابط، هو بمثابة الموضوع الذي ينتظمها، فإذا أراد الانسان إخراج هذه التّصورات إلى عالم الحسّ والتعبير عنها احتاج إلى اللغة التي هي الموروث الاجتماعي

نُختار من الألفاظ ما يساعده على تحميل تلك الأفكار دلالات معينة تفي بالغرض الذى يريده ، وذلك حسبما إصطلح عليه المجتمع صاحب اللّغة من قبل، فيما يتعلق بالألفاظ والمعاني الموضوعة لها اصطلاحا .

ثم إنّ هذه الدلالات في تطور مستمر، هذا التطور هو الذى يكسب اللغة مرونة عجيبة تجعلها تُسايِر مستجدات الحياة عبر الزمان :




إذن فعالم التّصورات يوصف بالحياة والموت ، وفقا للتطورات عبر الزمان) لأنه مربوط بالعالم الخارجي الذي هو في تغير مستمر ، بينما عالم الألفاظ لا يوصف بحياة ولا بموت ، بل بالتطور ، وذلك أن الإنسان لديه القدرة على توليد اللغة وإنشاء التراكيب وفق (منطقية) معينة ، ورغم تفاوت الناس في امتلاك القدرة على التعبير بألفاظ اللّغة عن أفكارهم ، إلاّ أنهم مؤهلون جميعا لامتلاك تلك (المنطقية اللّغويّة) والقدرة على التوليد* .

"ولا زال الجدل قائما بين العلماء في هذا المجال ، حول ما إذا كان هناك منظومين للتخزين : أحدهما للمعلومات المصورة والآخر للمعلومات اللفظية" (1) .

هذا عن الالفاظ ودلالاتها ، أما عن التّراكيب اللغوية فنقول : إنّها ناتجة عن جملة من الألفاظ والرّوابط تراصفت لتعطي فكرة أو أفكارًا ، وإذا حاولنا تفكيك أى تركيب لغوي وجدنا لألفاظه معاني أصلية أو معجمية كما سبق ، غير أنّ انسجام هذه الألفاظ وتآلفها في تركيب معين ، يكسبها دلالات ومعاني إضافية ، جاءت من التآلف فيما بينها ، وكذلك إنسجام التراكيب في سياق كلامي معين ، يكسبها دلالات جديدة ما كانت لتتوفر لها في تركيب أو تركيبين مثلا .

*- سيأتي بيان مصطلح (التوليد) في الفصل الرابع .

1- سيكولوجية التعلم تأليف سيتوارت هـ . هوارد إجث ترجمة د . فؤاد أبو الخطيب و د . آمال صادق ط/ 1983 القاهرة ص : 537 .

«ومن ثم فالتراكيب اللّغوية قائمة أساسًا على التّنظيم ... أي إنّ الجملة أو التركيب لا تستعمل بمنزلة ثابتة ومعينة، و إنما هي منتمية الى مجاميع أخرى من التراكيب..»(1)

إنّ ما يصحب الكلام من نبر و تنغيم كما سبق، يؤثر على المعنى داخل سياق النصّ أو الرّسالة، ولقد أدرك بلاغيونا ولغويونا القدماء منذ وقت مبكر ما للسياق من أثر بالغ في عملية الإفهام والتبليغ، فالجاحظ يعتبر (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) أصلا من الأصول البلاغية التي لايمكن تجاهلها، وإلّا ضاع الكثير من الرسالة ولم يصل إلى المخاطب، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال، منها ما يتصل بالنّص أي بصياغة الرسالة نفسها، ومنها ما يتصل بالمستمع أو المخاطب الذي صيغت الرسالة من أجله.

فأما ما يتّصل بالرّسالة فيتمثل في اختيار الألفاظ المناسبة للموضوع المتحدّث عنه وفي ذلك يقول الجاحظ: «ولكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف، والجزل للجزل، والإفصاح في موضع الإفصاح، والكناية في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال» (2).

يختلف

يفهم من ذلك أن موضوع الرّسالة حسب اختلاف أصناف المعرفة، إذ لكل علم ضرب من الألفاظ والمصطلحات بها تُؤدى معانيه ويُتوصل إلى فهمه، فالشرح و التفصيل من متطلبات المواضيع العلمية مثلا، والإيجاز والبلاغة من خصائص المواضيع الأدبية كالخطابة مثلا.

وأما ما يتصل بالمخاطب فيقول فيه: «حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا و تلك الحال له وقفا ... ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ...»(3)

---

1ـ اللغة بين العقل والمغامرة د.مصطفى مندور ط/ 1974 مطبعة أطلس القاهرة ص: 169.

2ـ كتاب الحيوان للجاحظ تحقيق المحامي فوزي عطوى ط1/ 1968 مكتبة محمد حسين دمشق، م1/ج 3/ 412.

3ـ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. عبد العزيز عتيق / 1980 دار النهضة العربية بيروت ص: 329، والنص من البيان والتبيين م1 ج1/ 92-93 ط4/ بيروت بدون تاريخ

وتأكيده على هذا الأصل من أصول البلاغة الذي هو ( مطابقة الكلام لمقتضى الحال ) هو الذي جعله يفرض نوعًا من الكلام لكل قوم أو كل فئة حسب ما تقتضيه أحوالهم من المعرفة والخبرة ، لذلك نراه يقرر مثلا أن الحديث المضحك والملهي الذي يدخل في باب المزاح والطيب يفسده الإعراب ويذهب بما فيه من رونق ودعابة ، كما أن كلام العرب الفصيح يفسده اللحن ويذهب بجماله وما فيه من متعة (1) .

ولقد أدرك ابن جني* أيضا الملابسات والظروف المحيطة بالموقف الكلامي وحال المخاطبين وأثرها على عملية التوصيل التي هي الهدف من الرسالة، «ولهذا الموضع نفسه ما توقف أبو بكر عن كثير مما أسرع إليه أبو إسحاق من ارتكاب طريق الاشتقاق، واحتج أبو بكر عليه بأنه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا، قد كانت لها أسباب لم نشاهدها ، ولم ندر ما حديثها (ثم ذكر قول المحتج المتمثل بقول العرب: (رفع عقيرته) إذا رفع صوته ، وشرحه له الذي مفاده أن رجلا قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى ثم نادى وصرخ بأعلى صوته ، فقال الناس: رفع عقيرته أي رجله المعقورة ، وأن الاشتقاق يفسده إذا ذهبنا نشتق لقولهم (عقر) من معنى الصوت لبعد الأمر جدًّا) ولذلك قال سيبويه في نحو من هذا : أولى من الأول وصل إليه علم لم يصل الى الآخر، يعني ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال والأوائل ، فليت شعري إذا شاهد أبو عمرو ... والخليل وسيبويه ... من علماء البلدين ، وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها وتقصد له من أغراضها، ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكايات ، ولا تضبطه الروايات ، فتضطر إلى قصود العرب ، وغوامض ما في أنفسها

---

1 ـ الحيوان م1/ج 3/ 412 ـ 413 .

* ـ أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي المتوفي سنة 392 هـ .

حتى لو حلف منهم حالف على غرض دلته عليه إشارة لا عبارة ، لكان عند نفسه ، وعند جميع من يحضر حاله صادقاً فيه ، غير متهم الرأي والنَّحِيزة والعقل» (1)

من خلال هذا النص يتبين أن ابن جني ، قد أدرك أن المقصود من المعاني لا يتم إلا بمعرفة الظُّروف التي تحيط بالكلام ، وأن السماع لا يفي بالمعاني المقصودة ما لم يدعم بالحضور والمشاهدة ، ولقد أشار ابن جني الى ذلك في مواضع أخرى من كتابه منها قوله " وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل ، وهم يريدون: ليل طويل ، وكأنَّ هذا إنما حُذفت فيه الصِّفة لما دَلَّ من الحال على موضوعها ، وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التَّطويح والتَّطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله : طويل أو نحو ذلك ، وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته ، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول : كان والله رجلا ، فتزيد في قوة اللَّفظ (باللَّه) هذه الكلمة ، وتتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصَّوت بها وعليها أي رجلا فَاضِلاً أو شُجَاعًا أو كريمًا أو نحو ذلك ، وكذلك نقول : سألناه فوجدناه إنْسَاناً ! وتمكن الصَّوت بإنسان وتفخمه وتستغني بذلك عن وصفه بقولك إنسانا سمحا أو جوادًا أو نحو ذلك ، وكذلك إنْ ذَمَمْتَهُ وصفته بالضيق قلت : سألناه وكان إنسانًا ! وتزوي وجهك وتقطبه . فيغني ذلك عن قولك إنسانًا لَئِيمًا أو لَحِزًا مبخلا أو نحو ذلك » (2) .

هكذا يرى ابن جني أن الظُّروف المرافقة للكلام ، وما يصحبه من نبر وتنغيم ، والاستعانة بإشارات من الوجه أو اليدين أو غير ذلك ، تؤثر في المعنى وتوجهه من جهة إلى أخرى .

---

1 ـ الخصائص ج 1/ 248 .

2 ـ الخصائص ج 2/ 370 ـ 371 .

ولعل نظرة عبد القاهر الجرجاني إلى اللغة تبدو أكثر نضجاً وتكاملاً، لذلك أرى أنه لا بدّ من الوقوف عند آراء هذا العالم الجليل، يقول: «والألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضرباً خاصّاً من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب، فلو أنّك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدّاً كيف جاء واتّفق، وأبطلت نَضْدَهُ ونظامه الّذي عليه بُنِيَ، وفيه أفرغ المعنى وأجري... أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان... وفي ثبوت هذا الأصل ما تعلم به المعنى الذي له كانت هذه الكلم بيت شعر أو فَصْلَ خِطَاب هو ترتيبها على طريقة مَعلومة وحُصولها على صورة من التأليف مخصوصة» (1).

يرى عبد القاهر أنّ الألفاظ لا تفيد، إذ ليست مقصودة لذاتها وإنما القصد إلى ما تفيده عندما تنسجم في نسق كلامي، ولا شكّ أنه يولي السياق أهمية بالغة في تحديد المعاني والأفكار، وذلك أنّ المعاني المعجمية المستفادة من الالفاظ منفردة لا تؤلف كلاما، ولا تبلغ أفكاراً وصُوَراً، ثم أن هذا الترتيب في الألفاظ والتراكيب ذو علاقة وطيدة بالأفكار القائمة في الذهن، فاختيار الألفاظ وما يقع فيها من تقديم وتأخير وتوكيد وتكرار إنما سببه تلك المعاني الماثلة في الذهن حسب درجة كل معنى وأهميته، «وهذا الحكم ـ أعني الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مُرتّباً على المعاني المرتبة في النفس والمنتظمة فيها على قضية العقل، ولن يتصور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير وتخصيص في ترتيب وتنزيل، وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة وأقسام الكلام المدونة» (1)

واضح إذن من كلام عبد القاهر أنّ الالفاظ إنما يحملها العقل شحنات من المعاني، وحسب ترتيب العقل لهذه المعاني ترد الألفاظ مُرتّبَةً، وواضح أيضا أنه يرى الدّلالة شيئا اصطلاحيّا، ولا علاقة لها باللفظة من حيث وضعها

---

1ـ أسرار البلاغة ص: 3 من المقدمة، وتحدث في مواضع كثيرة عن الالفاظ وتحديد معانيها في التراكيب في كتابه (دلائل الاعجاز) وسوف نذكر بعضها.

الظاهري أو أجراس حروفها، « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرًا أو يستجيد نثرًا ... فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهرة الوضع اللّغوي ، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل يقتدحه العقل من زناده » (1) .

يشير عبد القاهر إلى أنّ طبيعة اللغة تقوم على نظام معين ، فالإنسان له القدرة على تعلم اللغة وإمتلاكها على شكل ألفاظ وتراكيب ، ولديه القدرة أيضا على التصرف في تلك الالفاظ وإخضاعها للمعاني القائمة في ذهنه وفق ترتيب عقلي لها ، وعلى قدر التوفيق في صياغة التّراكيب والألفاظ حسب تحكم العقل فيها ، تكون جودة الكلام واستحسانه ، ثم هو لا ينفي ما للفظة من أثر على المعنى لذلك يقول : "اعلم أني لست أقول: إنّ الفكر لا يتعلق بمعاني الكلم المفردة أصْلاً ، ولكني أقول: إنّهُ لا يتعلق بها مجردة من معاني النّحو ، ومنطوقًا بها على وجه لا يتأتى معه تقدير معاني النحو وتوخيها فيها ... ولم تجئ إلى فعل أواسم ففكرت فيه فردًا ومن غير أنْ كان لك قصد أن تجعله خبرًا أو غير خبر فاعرف ذلك» (2) .

إذن فنظرة عبد القاهر إلى النّص اللّغوي شعرًا كان أو نثرًا، قائمة على أساس أن الألفاظ لها معان أساسية بالوضع والاصطلاح ، يتحكم فيها السياق الكلامي ليضفي عليها من الدلالات ما يناسب المقام ، وأن اختيار هذه الألفاظ أساسه المعاني القائمة في الذهن حسب درجة أهميتها بالنسبة إلى المتكلم والمخاطب ، ولا بُدّ أن ينتظم الكلام وفق تراتيب معينة يتكفل بها النحو، لذلك يولي النحو عناية فائقة ، فالنحو عنده ليس قوالب جامدة، لذلك يرد على الذين يحتقرون النحو: « وأمّا زهدهم في النحو واحتقارهم له ... فضنيعهم في ذلك، أشبه بأن يكون صدًّا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه ... إذا كان قد علم

---

1- المرجع السابق ص : 3 .

2- دلائل الإعجاز ص : 314 - 315 .

أن الالفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون المستخرج لها، وأنه المعيار الذى لا يَتَبَيَّنُ نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه، والمقياس الذى لا يعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه» (1).

واضح من هذا النَّص أن المعاني النحوية كالفاعلية والمفعولية التي تحدد الوظائف الموقعية للألفاظ داخل التركيب اللغوي، هي نفسها التي تتآلف مع بعضها لرسم المعنى الكلّي للتركيب اللغوي في ذهن المستمع، ولا يفوت عبد القاهر أن ينبه إلى أن عدم توخي المعاني النحوية التي على أساسها تكون الجملة مقبولة عند صاحب اللغة، لا يكون كلاما مفهوماً لدى السامع حتى ولو روعي فيه خاصية الموقعية النحوية في الظاهر، لذلك يقول: «وإنك إن عمدت الى ألفاظ فجعلت تتبع بعضها بعضاً من غير أن تتوخى فيها معاني النحو لم تكن صنعت شيئا تدعي به مؤلفاً» (2).

فالألفاظ بما تحمله من معانٍ أساسية بالوضع، وما تكتسبه في السياق الكلامي من دلالات، وترتيبها وفق المعاني القائمة في الذهن كلّ ذلك يشكل محصول النَّظم عند عبد القاهر، لذلك يقول «... بل ليس من فضل ومزية إلاّ بحسب الموضع وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤم، وإنما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصُّور والنقوش كما أنك ترى الرَّجُلَ قد تهدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصُّورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخيّر والتَّدَبُّرِ في أنفس الأصباغ وفي مواقعها وفي مقاديرها وكيفية مزجه لها وترتيبه إيّاها إلى ما لم يَتَهَدَّ إليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب وصُورته أغرب، كذلك

---

1ـ المصدر السابق ص: 23 ـ 24.

2ـ دلائل الاعجاز: ص: 283.

حال الشاعر ، والشاعر في توخيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم »(1) . فالنّظم اللّغوي عنده ، أفكار ومعان ، مرتبة حسب درجة أهميتها في ألفاظ مناسبة لها ، وفق الأنساق التركيبية التي تقبلها اللغة وما تلك الأنساق إلا المعاني النحوية ، وتختلف درجة المنظوم والمنثور حسب قدرة صاحبه على ترتيب المعاني واختيار الألفاظ .

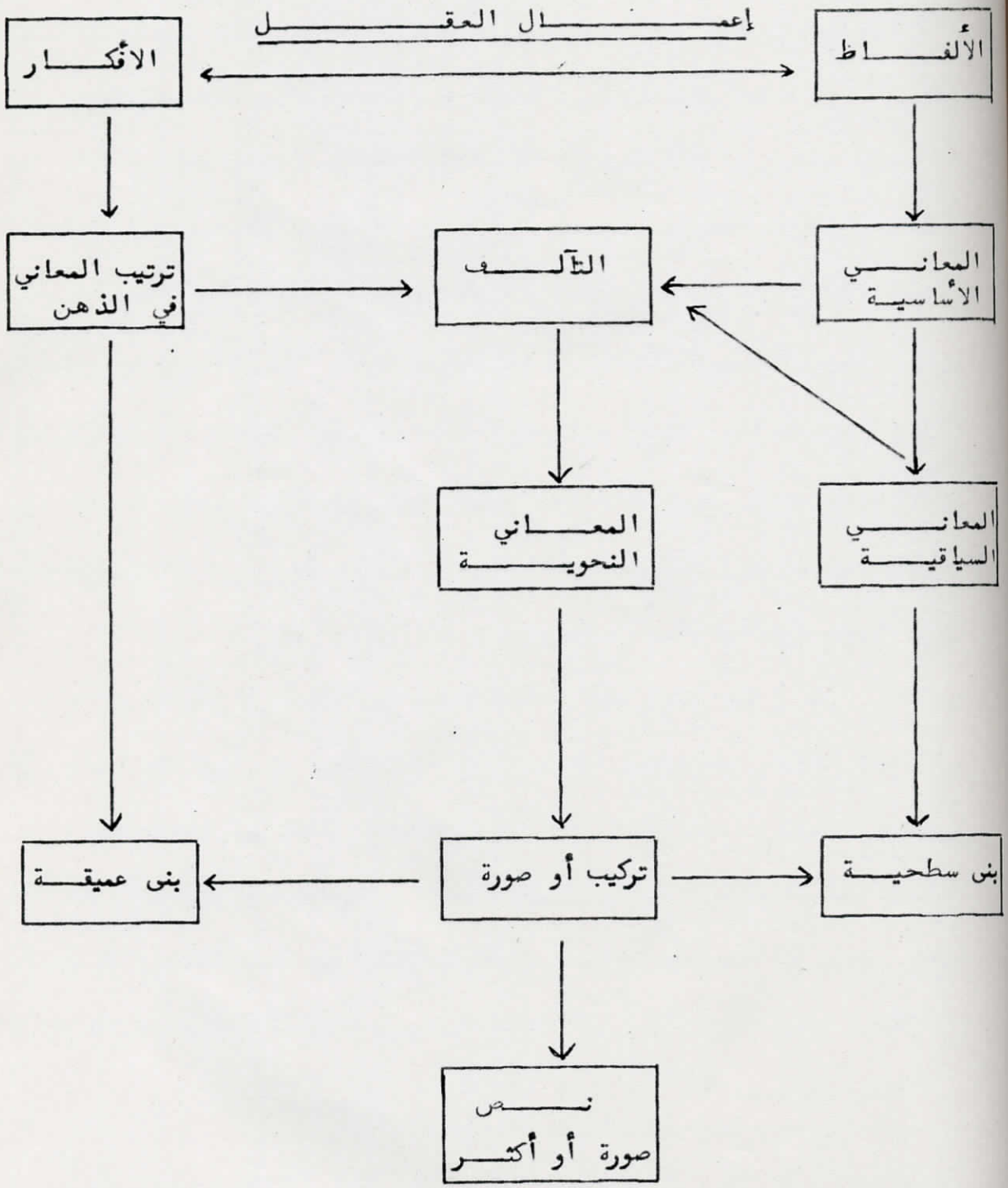
فالعلاقة عنده بين اللغة والفكر قائمة ، وأنه لا يمكن أن يكون تفكير ومعانٍ خالية من الألفاظ ، بحيث لا يمكن الفصل بين عملية التفكير القائمة على المعاني ، وعملية النّطق أو الكتابة القائمة على الألفاظ ، فالألفاظ أوعية المعاني ، وبهذا يكون عبد القاهر قد تجاوز الحدود التي وقف عندها الكثير من النحاة والبلاغيين ، ليصل بفكره الثّاقب إلى نظرية شاملة في مجال الدّراسات اللغوية أساسها الأفكار القائمة في الذهن ، وترتيبها حسب درجة أهميتها وفق المعاني النّحوية ، فيغدو النّصّ وكأنه لوحة أو صورة ذات أصباغ أو تحفة صيغت من معدن ثمين ، فهو صورة أو عدة صور متآلفة ومتجانسة الأفكار والمعاني .

ويمكننا أن نتصور نظريته هذه وفق المخطط التالي :

---

1 ـ الدلائل : 70 ، وينظر ( المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري ) د . زكي نجيب محمود ط/ 1981 دار المشرق ص : 262 ـ 267 .

مخـــطط رقـــم 8:



تفسيـر :

يبين هذا المخطط كيفية انتقال الأفكار من عالم الذِّهْن إلـــى تراكيب لغوية منطوقة أو مكتوبة ، وذلك أن العقل يرتب المعاني حسب درجـــة أهميتها، ويختار لها من الألفاظ ما يناسبها ، فيحدث بذلك تآلف بين الأفكـار والألفاظ المعبرة عنها، سواء بدلالاتها الأساسية أو السياقية، وينتج عن هذا التآلف تراكيب لغوية منظمة وفق المعاني النَّحوية ، وهذه التراكيب اللغوية ذات وجهين: وجه عميق يتمثل في تلك المعاني القائمة في الذِّهن ، ووجه سطحي يتمثل فـي الألفاظ ومكوناتها الصوتية وأثرهـــا على الأسلوب والمعنى معًا ، كما أن التركيب اللغوى إذا استوفى الفكرة المراد إبرازها ، نسمّيه صورة تعبيرية ، وقـد تتجاوز الصورة التَّعبيرية التركيبَ اللّغويَ الواحد ، أمَّا النَّص اللُّغَوِيّ فهو مجموعـة من الأفكار المترابطة التي تعبر عن موضوع واحد ، وبهذا يتألف النص اللغـــوي من عدة صور ، كل صورة تتألف من تركيب لغوي فما فوق ، ويمكن أن يكـــون التركيب الواحد صورة تعبيرية وَنَصًّا لغويًّا في الوقت نفسه ، وذلك إذا استوعـب الفكرة المراد إيصالها إلى السامع .

ولقد تناول علماء اللغة المحدثون (المعنى) بالبحث والدراسة وتعددت آراؤهم ومناهجهم فيه ، وَسَمَّوْا هذا الفرع من فروع علم اللغة الذى يبحث في المعنى (بعلم الدلالة) ، « وهو عندهم ينقسم إلى قسمين هما : (السيمانتيك المعجمي) (والسّيمانتيك النّحوي) ومن الجدير بالذكر أن هذا الفرع الثاني يلتقي في كثير من جوانبه (مع نظرية النظم) عند عبد القاهر الجرجـاني، إذ كلاهما يجري في الأساس وراء تجلية المعنى ، ودراسة مشكلاته عن طريق النظر في النحو وقواعـده »[1] .

---

1ـ دراسات في علم اللغة كمال محمد بشر ص : 53 .

و(السيمانتيك) بالمعنى الأول هو ما عرف منذ القديم تحت عناوين مختلفة منها: المعنى ، والمدلول والمحتوى .. إلخ ... ويتركز أساسًا على المعاني المعجمية للألفاظ ، وليس بإمكان أي دارس للّغة أن يتخلى كليا عن الدلالة بهذا المفهوم ، أما المعنى الثاني (للسيمانتيك) فيعتمد * في كل مراحل الدرس على مقام الكلام وظروفه أو ما نسميه بالمسرح اللغوي آخذين في الاعتبار السمات الاجتماعية والثقافية للبيئة الخاصة صاحبة اللغة ... ومن الجدير بالذكر أن هذا المنهج الاجتماعي يطبق عند هؤلاء الدّارسين على الكلمات والعبارات والجمل على السواء»(1) وعبر مستويات ثلاثة هي المستوى الدلالي ، والمستوى التركيبي (النحوي) والمستوى الصوتي*، كما أن تحليل المعنى يتطلب أن ندخل في إعتبارنا عناصر أربعة ، تلك هي : 1ـ المتكلم ، 2ـ السامع ، ـ 3ـ الرمز ، 4ـ المقصود(2) وخير من يمثل هذا الاتجاه هو جون فيرث (1890/ 1960)** الذي اعتمد في دراسته اللغة على المسار الاجتماعي ، وليس كإشارات اصطلاحية ، فاللغة عنده متصلة بالقضايا الاجتماعية ، إيمانًا منه بأنّ الدلالات تحدد من خلال استعمالاتها المتنوعة في المجتمع ، فالدلالة عنده تتكون من الوظائف العائدة الى العنصر اللغوي ، وترتبط بمضمون محيطه ، ويفرق بين نوعين من المصطلح .

المصطلح الأول : (البنية) ويقصد بها أشكال الكلمات في السياق ، والمصطلح الثاني : (التنظيم) ويقصد به العلاقات الاستبدالية القائمة بين العناصر والتي تكون قيمتها اللغوية .(3)

---

1ـ المرجع نفسه : 154 .

*ـ سيأتي الحديث عن هذه المستويات الثلاثة في الفصل الرابع .

2ـ مناهج البحث في اللغة ص: 277 .

**ـ ترجمة فيرث في كتاب (الألسنية علم اللغة الحديث) ص: 281

3ـ الألسنية علم اللغة الحديث ص: 282 .

والنص اللّغوي أو الرسالة ، ينبغي أن يُفهم في إطار الأركان الثلاثة التي أوجبها * وهي أولا : وجوب اعتماد كل تحليل لغوى على ما يسميه بالمقام، مع ملاحظة كل ما يتصل بهذا المقام من عناصر أو ظروف أو ملابسات، وهذا يشمل جميع الظواهر المتصلة بالمشتركين في الكلام والاستماع ، كما يشمل أعمالهم وسلوكاتهم ثانيا : وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته . ثالثا : الكلام عند فيرث مكون من أحداث ، وهذه الأحداث اللغوية معقدة مركبة ، ولدراستها وتحليلها لا بد من الاعتماد على تجزئتها إلى مراحل ، للوصول إلى النتيجة وهي بيان المعنى اللغوي للكلام، الذي هو الوظيفة الأساسية لعلم اللغة .

ومن هنا تبرز ضرورة السياق عند فيرث ، لتصبح نظرية حديثة في اللغة ، على ضوئها تحدد وظائف الكلمات والعبارات في النص ، والجدير بالذكر أن هناك فرقاً بين "فيرث" وعبد القاهر يتجلى في عدة نقاط منها :

أ ـ المعنى عند عبد القاهر قائم في الذهن ، بينما عند فيرث فالمعنى "ليس شيئا في الذهن أو العقل ، وليس علاقة متبادلة بين اللّفظ والصورة الذهنية للشيء ... كما أنه ليس مجموعة من الارتباطات العقلية والذهنية المستترة ، وإنما هو مجموعة من الإرتباطات والخصائص والمميزات اللّغوية التي نستطيع التعرف عليها في الموقف المعين " (1) .

ب ـ مراعاة المقام عند علماء اللغة والبلاغة العرب وخاصة عبد القاهر، مبنية على أساس معياري، وذلك لانطلاقه في نظريته من القرآن الذي هو الذروة في البلاغة والفصاحة ، أما المقام عند فيرث ، فهو إطار اجتماعي تلتقي فيه عدة عناصر كما رأينا ، والمطلوب "هو مجرد النّظر في الكلام في هذا الإطار لا وجوب أن يكون

---

* ـ أخذت هذه الأركان ملخصة من كتاب (دراسات في علم اللغة ص: 174ـ 175 ولقد تعرض كل من د . تمام حسان (في مناهج البحث في اللغة ص: 285 ود . محمود السّعران في (علم الله) ص: 310 ود . أحمد مختار عمر في (علم الدلالة) ص: 68 لدراسة السياق عند (فيرث ) .

1ـ دراسات في علم اللغة ص : 175 .

ثابتا دون تحول ، كما أنه يستطيع أن يقاوم العواطف والمشاعر ...

والأدلة المستعملة للوصول إلى البرهان تنقسم إلى قسمين شأنها في ذلك شأن البراهين نفسها، إذ منها براهين داخلية و براهين خارجية :

فالبراهين الخارجية : خارجة عن الموضوع ، يُؤْتَى بها لتدعيمه وإعطائه قوة الإقناع من ذلك مثلا : النّصوص الدّينية والوثائق المكتوبة والشّهادة والقسم والأقوال المأثورة ، فهذه كلّها تقوم مقام البراهين من أجل تحقيق عملية الإقناع لدى السامع وحمله على التّصديق بالقضية المراد تصديقها ، أو تكذيبها إن كان القصد نفيها .

وأما البراهين الدّاخلية : فهي الداخلة في الموضوع، أو أنّها تكون جزءًا منه وهي التّحديد أو التعريف ، الذي يمكن بواسطته معرفة أمر من الأمور ليكون نقطة البدء في البرهنة، أو تعداد أجزائه بحيث تذكر متتابعةً فتتعاون كلّها في بيان الحقيقة وتوضيحها ، أو معرفة جنس الموضوع ونوعه، وبذلك يمكن تكييف ميدان القول والإحاطة به، أو ذكر الملابسات والأمور الثانوية الّتي تحيط بالموضوع فتسبقه أو تلحقه ، وهناك أيضًا الأسباب والنتائج، وتستخدم في تأليف الموضوع وعرضه وما ينتهي إليه من أغراض ، ومن ذلك أيضًا المقارنة بين الحقائق والأقوال، والمواقف المتعارضة والمتناقضة ...

2- التأثيرات : والمقصود بالتأثير هو كل ما له دخل في إثارة العواطف والإحساسات عند السامع على أن يكون متصلا بالحقيقة أو بالموضوع الذي يراد البرهنة عليه ، والجدير بالذكر أنّ البرهان عن طريق التأثير يستولي على المشاعر والأحاسيس استيلاءً كليًّا ، ومصادر هذا التأثير، منها المتكلم نفسه، و الأسلوب الخطابي والحركة الخطابية ، والعنصران الأخيران هامّان لِما لهما من تأثير على السامع، فالعبارات القوية المرتفعة بما يتخللها من نبر و تنغيم مثلا جديرة بأن تتغلغل في أعماق السامع فتحرك إحساسه وشعوره .

هذا الكلام مطابقاً هذا المقام أو ذاك "[1]، كما هو الشأن عند الدارسين العرب كالجاحظ مثلاً .

وليس المقصود هُنا ، هو عقد مقارنة بين الدارسين العرب القدماء وبين الدارسين الغربيين المحدثين في هذا المجال ، وإنما الهدف هو البحث عن اتجاه لغوي عربي صالح لتدرس على ضوئه النّصوص والأساليب اللّغوية ، ولقد تراءى لي ذلك من خلال النصوص التي أوردتها للدارسين العرب القدماء وخاصة عبد القاهر ، إذ إنّها تقترب كثيرًا مما وصلت إليه الدّراسات اللغوية الحديثة عند مشاهير الغرب أمثال دى سوسير وفيرث كما رأينا ، وكذا عند تشومسكي كما سنرى في الفصل الرابع ...

طريقتا الإقناع : إنّ الوظيفة التّبليغية الّتي تؤديها الرسالة ، يُهدف من ورائها المتكلم إلى تحقيق عملية الإقناع لدى السامع ، فما هي عملية الإقناع إذن ؟ وماهي الوسائل المؤدية إلى الإقناع ؟

إنّ عملية الإقناع، هي حالة عقلية أو نفسية ، تنشأ عند السامع أثناء سماعه لنص كلامي أو خطابي تجعله يقتنع بما يسمع، اقتناعا عقليا قائمًا على الأدلة والبراهين ، أو اقتناعا نفسيًّا قائمًا على التأثير ، وقد يتعارض النّوعان ، بحيث يرضى المستمع عن الفكرة المقدمة إليه رضا عاطفيا وجدانيًّا سببه الميل والشعور دون الرضى المنطقي الذي مقره العقل ، وقد يحدث العكس ، ومن هنا نقول: هناك قوتان هائلتان يقوم عليهما النص الخطابي هما : 1ـ البراهين و 2 ـ التأثيرات .

1ـ البراهين : البرهان هو كل ما يستخدم من أجل الإقناع وكشف الحقيقة وبيانها للوصول الى اليقين عن طريق استخدام الأدلة وترتيبها، للوصول إلى النتيجة النهائية ، ومن هنا فإن اليقين مؤسس على العقل والإدراك ، ويبقى

---

1ـ المرجع نفسه ص : 65 .

وبواسطة التأثير النّاجم عن العبارات القويّة ، يتأثر الإحساس ليؤثـــر في المخيّلة فيستدعي الصّوَر ، هذا عن الأسلوب ، أمّا عن الحركة الخطابية، فهـي عبارة عن التعبير عن الإحساسات بوساطة الصّوت والملامح والإشارة (1) .

والقرآن الكريم نزل على قوم كانوا يتبارون في الفصاحة والبلاغة ، وإنّ الكلمة عندهم لَها تأثيرها وسحرها في النفوس، ومن أجل ذلك كانت لهم أسواق فـي هذا المجال ، والقرآن مع ذلك تحداهم بفصاحته وإعجازه ، ولقد أنصبت جهـود البلاغيين الأوائل على التأليف في مجال الإعجاز ، وخاصة ما يتصل منه باللّفـظ والصياغة ، ولذلك رأى عبد القاهر أنّ الإعجاز القرآني في النظم ، يقول: "أعجزهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهـم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مَضْرب كلّ مثـــل، ومساق كلّ خبر ، وصورة كلّ عظة وتنبيهٍ ، وإعلامٍ ، وتذكيرٍ ، وترغيبٍ وترهيبٍ ، ومع كلّ حجّة وبرهان وصفة وبيان ...إلى أنْ يَقول:

لم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظة يُنكر شأنها ... بل وجـــدوا إنساقاً بهر العقول وأعجز الجمهور" (2)

إنّ النتيجة التي توصل إليها الجرجاني فيما يتعلق بالنّظم يلخصها سيـد قطب بقوله : "إنّ طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى ، وإنّه حيثما اختلفـــت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد إختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن، وبذلك تربط المعاني وطرق الأداء رَبْطاً لا يجوز الحديث بعده عن المعاني والألفاظ كلّ على إنفراد ... فإذا تغيرت الصورة تغير المعنى بمقدارها ،

وقد لا يتأثر المعنى الذهني العام في ذاته ولكن صورته في النّفس والذّهـــن

---

1- نظرية الأنواع الأدبية ل م . لابي . سي . فانسان ترجمة د . حسن عون ط/ 1978 مطبعة الاسكندريـة ، ص: 374 ـ 390 .

2- دلائل الإعجـاز ص : 32 .

تتغير ، وهي المعول عليها في الفن - إذ التعبير في الفنّ للتأثير - فإذا إختلف الأثر الناشئ عنه ، فالمعنى المنقول مختلف بلامراء !»(1)

الصّورة التّعبيرية أساس الإقناع :

إنّ هذه الصورة تتحقق عندما يتم التآلف بين الألفاظ والمعاني، ولقد تناول الأسلوبيون المحدثون هذه الظاهرة ، حين رأوا أنّ الألفاظ رموز تشير إلى الأشياء ، غير أنّ وظيفة الكلمات لا تقتصر على ذلك فقط ، فهذه وظيفة عقلية تضاف إليها وظيفة إنفعالية تُعَبِّرُ عن مواقف انفعالية لإثارة الإحساس ، هذا في الأساليب الفنية المحضة ، حيث لا يعود هناك مجال للوظيفة الرمزية فيها سوى قيمة ثانوية ، أمّا في الاستعمال العلمي للغة فلا نهتم مطلقا بالآثار الانفعالية للكلام ، «ومن اليسير أن ندرك أنّه لا ضرورة مطلقاً لإحدى هاتين الوظيفتين أن تتعدى على منطقة نفوذ الأخرى »(2) ، غير أنّ الأسلوب القرآني لا يعتمد هذه الطريقة في عرض الحقائق والأدلة على الإيمان ، فيعبّر تارة بأسلوب فنّي، وتارة بأسلوب علمي ، بل الأسلوب القرآني في معظمه واحد ، فهو يعتمد على طريقة تصوير المعاني الذّهنية والحالات النفسية ، وإبرازها في صُوَر حسّية ،والسير على طريقة تصوير المشاهد الطّبيعية والحوادث الماضية ... كأنّها حاضره شاخصة ، بالتخييل الحسي الّذي يفعمها بالحركة المتخيلة »(3)

إن الأساليب القرآنية ومنها القسم ، تمزج بين الوظيفتين: الرمزية والانفعالية من أجل تحقيق تلك الصّورة ، إذ إنّ الأساليب القرآنية تتكيّف حسب أصناف الناس الذين تخاطبهم ،وحسب الأحوال والملابسات التي يجري

---

1- التصوير الفني في القرآن سيد قطب ط/ 1983 دار المشرق بيروت ص : 240 - 241 .

2- نظرية النقد الأدبي وتطورها إلى عصرنا، محي الدين صبحي ط/ 1984 الدار العربية للكتاب تونس ص: 133 .

3- التصوير الفني في القرآن ص: 241 بتصرف

فيها الخطاب القرآني ، وهذا هو الذي رأيناه عند الجاحظ من قبل فيما سمّي (بمطابقة الكلام لمقتضى الحال)، ورأيناه حديثا عند فيرث تحت عنوان (نظرية السياق)، ونراه عند الأسلوبيين المحدثين متمثلا في (مصادرة المخاطب المتلقي) حيث "إنّ الباث يكيّف خطابه الإبلاغي أو رسالته حسب النّاس الذين يخاطبهم ، فالباث يحمل المتلقي لا على فهم الرّسالة وحسب، بل على تقمص مضمونها ، فالأسلوب يمتل ضغطاً على المتلقي بغية إزالة حرية ردود الفعل لديه ، هذه الطاقة الضّاغطة التي بها تتحدد ماهية الأسلوب ، تتحل إلى فكرة التأثير التي تنطوي على الإقناع كشحنة منطقية والإمتاع كشحنة عاطفية ، والإثارة كشحنة إستفزازية محرضة "(1)

والأسلوب يمكن أن يكون محاولة لإخراج شحنات من الأفكار والمعاني بواسطة اللّغة من عالم الفكر المجرد، إلى الحيّز اللغوي المنطوق أو المكتوب، وفق ترتيب وتسلسل معيّنين ترتضيهما طبيعة اللغة ، لذلك يرى جاكوب سون أنّ الحدث الألسنيّ هو تركيب عمليتين متواليتين في الزمن ومتطابقتين في الوظيفة ، وهما : اختيار الباث لألفاظه ثم تركيبه لها حسب مقتضيات النّحو ثم البيان ... (2) وهذا ما رأيناه من قبل عند عبد القاهر الجرجاني وغيره من الدّارسين العرب .

والصورة التعبيرية في القرآن الكريم ، إنما تحقق عملية الإقناع لدى المخاطب عن طريق الاستدلال المنطقي تارةً وعن طريق التأثيرات الانفعالية تارة أخرى ، وفي الحالتين توظف دلالات لغوية مختلفة ؛ قد تحمل شحنات نفسية أو شحنات اجتماعية أو غيرَ ذلك ، والطريقة التّصويرية في القرآن «تؤلف على التقريب أكثر من ثلاثة أرباع من ناحية الكم وكلها تستخدم طريقة التّصوير في التعبير ، فلا يُستثنى من هذه الطريقة إلّا مواضع التّشريع وبَعض أحوال الجدل ، وقليل

---

1ـ نظرية النقد الأدبي وتطورها إلى عصرنا ص : 198 ـ 199 .

2ـ نظرية النقد الأدبي وتطورها الى عصرنا ص : 201 .

من الأغراض الأخرى التي تقتضي طريقة التقرير الذهني المجرد، وهي على كل حال محصورة فيما يوازي ربع القرآن." (1)

عناصر الصّورة التعبيرية :

بناءً على ما سبق يمكننا أن نقول: إنّ هناك ثلاثة خصائص تتوفر في الأسلوب القرآنيّ لتجعل صوره التّعبيريّة تتبوّأ الدّرجة الفنّيّة الرفيعة وهَذِهِ الخصائص هي: أ- مراعاة حال المخاطبين والظروف التي يجري فيها الخطاب أو المناسبة التي تدعو إليه .

ب- المعاني الرفيعة المرتّبة حسب درجة أهميتها في التراكيب والمعبرة عن الإيمان بشتى الوسائل والطرق .

جـ- النمط اللغوي الرفيع الذي تتجسد فيه معاني البلاغة والبيان وتتخذ فيه ألفاظ اللّغة أبعاداً دلالية : عقلية ونفسية واجتماعية، هذه الأبعاد تساهم في صياغة المعاني الذهنية ونقلها إلى الحِسّ والمشاهدة لترسم بذلك صُوَرًا تخييلية واسعة أو تأملات عقلية وكلها تسعى إلى تحقيق عملية الإقناع التي عليها مدار الإيمان .

والصورة التعبيرية حسب تصوري لمنهج الجرجاني كما هو مبيّن بالمخطط رقم : 8، تتألف من تركيب لغوي فأكثر، ويشترط فيها إفادة فكرة معينة تَفِي بالقصد، وأما منشأ الصورة فقد يكون أسلوبًا إستفهاميا أو تعجبيًّا أو شرطيا أو توكيديًا ومنه القسم .

وللصورة التعبيرية محور، هو أحد عناصرها إذا كانت مؤلفة من تركيب واحد، أو هو أحد تراكيبها إذا كانت مؤلفة من أكثر من تركيب، والمقصود بمحور الصورة هو العنصر أو التّركيب الذي تلتحم حوله أو تتفرع عنه، أو تنتهي إليه بقية العناصر أو التّراكيب الأخرى .

---

1- التصوير الفني في القرآن ص: 254 .

القسم محور الصورة التعبيرية : والذي يهمّنا في هذا المقام، هو الأسلوب القسمي عندما يشكل محور الصورة التعبيرية ، وعلى هذا الأساس ، سوف نختار النّماذج القرآنية الآتية ، أما التّصور الكامل لهذه الخطة فسوف نراه في الفصل الرابع ...

يمكننا أن نقول : إنّ الألفاظ تؤثر في بعضها في السلسلة الكلامية بما تحمله من إيحاءات وظلال نتيجة انتظامها في السياقات المختلفة ، راسمة بذلك صوراً تعبيرية ذات شحنات منطقية فتعطي للصورة حينئذ بعدًا عقليًا تأمليا ،أو شحنات تأثيرية انفعالية ،فيكون للصورة بعد اجتماعي أو نفسي .

الأبعاد الدلالية للصّورة :

أ ـ البعد العقلي التأملي : إنّ الأساليب القسمية التي (احتلت المحورية ) في رسم الصور التعبيرية القرآنية الداعية إلى التأمل والتدّبر ، المتجهة إلى عقل المخاطب مباشرة ، يمكن عدّها من الصور ذات الأبعاد العقلية التأملية وذلك بما تنقله إلى السامع من أخبار الماضين وأحوالهم ... أو ما تصوره له ، من صور تقع تحت الحسّ والمشاهدة كالظّواهر الكونيه العظيمة ، فينشأ عن ذلك كله صور تأملية كثيرة، تجعل المخاطب يتأملها تأملا عقليا واسعًا ، والبعد العقلي لدلالة القسم غالبًا ما يتأتّى من خلال السياق العام الّذي يرد فيه القسم ، عقب ذكر الأحداث والوقائع ، وخاصة حينما يتعلق الأمر بذكر قصص الأنبياء وما أصاب المكذبين بهم من العقاب ، أو قبل أحداث ووقائع ،أو متخللا تلك الأحداث والوقائع ...

فمن الأولى قوله تعالى: "إنّ في اختلاف اللّيل والنّهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون" (1).

لقد سبق عدّ هذا النوع من الأساليب قسما، ويكون في الغالب بأداتين إنّ واللام الواقعة في خبرها وكلاهما للتوكيد، وحينئذ يكون صدر جملة القسم محذوفاً، وفي إحتواء العبارة على مؤكدين دليل عليه، ولقد كثر هذا النوع من الأساليب في السور المكية كثرة مفرطة، ولقد أحصيت منه في الفصل السابق أكثر من عشرة تراكيب.

لقد جاءت الآية السّابقة بعد خمس آيات، تعظم من شأن القرآن الكريم وتنعى على الكفّار تعجبهم من نزول الوحي على محمد (صلى الله عليه وسلم) بقولهم (إنّ هذا لسحر مبين) (2)، ثم تذكرهم بعظمة الله وأنه خالق السموات والأرض ومدبر الأمر كله، وهو الذي يحي ويميت، ويجزي (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (3) ويعذب الكافرين، وهو الذي سخر ما في الكون لعباده، ليتدبّروه ويستخلصوا العبر منه، ثم يأتي بعد ذلك أسلوب القسم في الآية السادسة كما سبق ليجمل تلك المعاني السابقة كلّها في صيغة توكيدية متينة داعية إلى تأمل وتدبّر أحوال تعاقب الليل والنّهار اللّذين عليهما مدار الكونِ كلِّه، وما فيه من أحداث ومستجدات مما يقع عليه الحسّ ومالم يقع عليه، من آيات دالة على أن المسير هو الله تعالى، وتلك حقيقة لا تنكرها الفطرة الإنسانية الصّافية، ولا يجحدها العقل السليم، والمتقين هم أولى من يصدقون بذلك، ولقد "خصّ المتّقين لأنّهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النّظر والتّدبر" (4) وكأنّ في تخصيص المتّقين بالخشية دعوة غيرهم الى الاقتداء بهم والدّخول في الإيمان مثلهم.

---

1- سورة يونس / 6.

2- سورة يونس / 2.

3- سورة يونس / 4.

4- الكشاف م 2/ 226.

والذى نلاحظه ؛ أنّ الأسلوب القسمي في هذا السياق قد إحتـــــل (المحورية) في السياق لتلتحم حوله بقية الأجزاء لرسم الصورة الفنيّة بعناصرها الثلاثـة السابقة ؛ فحال المخاطبين تستدعي البرهان وإقامة الحجة على صدق الرسالة المحمدية، لأنهم بين كافر و متردد ، لذلك إبتدأ السياق بذكر النتيجة المرجوة مباشرة ، فكانـت بداية السورة (ألـر تلك آيات الكتاب الحكيم )[1] ، تعظيما لشأن السّورة أو القرآن كلّه وما تضمنه من آي ، ثم تأخذ الصّورة الفنية في التّفريع عبر ثلاثة إتجاهات بـارزة :

1ـ أحوال الكافرين واستهزائهم بمحمد (ص) و تكذيبهم رسالته .

2ـ قدرة الله تعالى على الخلق و تدبير شؤونـه .

3ـ إماتة الخلق و بعثه للمحاسبة والمجازاة .

رتّبت تلك المعاني كلها في نمط لغوي رفيع، تآلفت فيه معاني الألفـاظ الأساسيّة في سياق رفيع أكسبها دلالات إضافية ، خلعت عليها جوّا من الرّهبة والخشوع يجعل الجاحد يقف أمامها مبهوتًا ، وقد ملكت عليه سمعه وعقله فلم تترك له حجّـة يحتج بها .

هكذا تتلاحم الاتجاهات الثّلاثة في نقطة محورية هي أسلوب القسـم (إنّ في اختلاف ..) لتكتمل خيوط الصورة مؤكّدة ما سبق ذكره في أسلوب بلاغـي راقٍ ، تقدم فيه خبر إنّ لأنّه شبه جملة ، وتأخّر الاسم نكرة مقرونًا بلام التّوكيـد ، وكون الاسم نكرة يحمل دلالة عظيمة ، ويجعل ذهن السّامع يذهب في شتّى الاتجاهات للبحث عن هذه الآيات في السّماء و في الأرض وفي نفسه وفي سائر أحواله ... فكلّ ما حوله يدعوه إلى التّأمل والتّدبر وإعادة النّظر فيه ، فهذه الأمور الّتي ألفها حتى لم يعد يعيرها اهتماماً ، لم تخلق عبثا بل وراءها خالق لا بدّ من الإيمان به .

---

1ـ سـورة يونـس / 1 .

النوع الثاني : قوله تعالى :"والنّازعات غرقاً ، والنّاشطات نشطاً ، والسّابحات
لسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً ، يوم ترجف الرّاجفة ، تتبعها الرّادفة ،
ٍ واجفة ، أبصارها خاشعة "(1)

تعالى : "هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربّه بالواد المقدس طوى ، اذهب
إنه طغى "(2) إلى قوله تعالى : "فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إنّ في
برة لمن يخشى "(3) .

الذي يُلاحَظ أنّ هذه المقسمات بها قد فُسّرت على أكثر من وجه :
كون النّازعات هي الملائكة تنزع أرواح النّاس حين الموت ، فهي بالنّسبة إلى
تشبث بالدنيا إنتزاع أي إقتلاع ، وأمّا بالنسبة إلى المؤمن ، فإن روحه تنشط
بسهولة مثل الأنشوطة أي العقدة المُعقَدة لتحلّ بسهولة لذلك قال : "والنّاشطات
ما قوله تعالى "والسّابحات سبحًا" فقد يكون المقصود بـ الملائكة تسبح في
لأنّ لها مهمّات تؤدّيها بأمر الله ، لذلك قال تعالى "فالمدبّرات أمرًا" هذا
وجوه التفسير ، وكأنّ الحقّ سبحانه أقسم بخلق من خلقه وهم الملائكة الذين
هم مهام مختلفة .

الوجه الثّاني : فقد يكون المُراد فيه أنّ (النازعات غرقًا) الكواكب المغرقة في
سبح فيها مجهدة ، ومنه قولهم: (نزعت الخيل إذا جرت) إذن النّازعات
كب الجارية في مسارات محددة لها (والنّاشطات نشطا) : تكون ، إنتقال هذه
و النّجوم من فلك إلى فلك ومنه قولهم (نشط الدّلو) ، (والسّابحات سبحًا) فهي
لتي تسير بسرعة واحدة ، أما قوله (فالمدبرات أمرًا) : يعني أن هذه الكواكب
ن الله تعالى لتدبير أمور العباد الدينية والدنيوية .

ك وجه ثالث : وهو أنّ النازعات : نفوس المؤمنين أو الغُزاة المجاهدة في
له ، والنازعات غرقًا ، أي التي تنزع القوس بالوتر لينطلق السهم ، وهذا النزع

---

النازعات / 1 ــ 9 .

النازعات / 15 ــ 17 .

النازعات / 25 ــ 26 .

يكون بإغراق (أي إلى آخر ما يمكن أن يتحمل القوس) ويترك القوس بعد ذلك لينشط السّهم في خروجه إلى العدو، (والسابحات سبحا) هي الجياد التي هي وسائل الغزو، تسبح أي تجري جريًا لا اضطراب فيه، فكأنها تسبح في الماء، و (فالسّابقات سبقا) أي أنها تتسابق إلى أن تصل إلى العدو، و (فالمدبرات أمرًا) أي منوط بها سبب من أسباب التّدبير، وليست هي التي تدبر الأمور[1]، وهذا وجه من التفسير يتعلق بأمر الجهاد في الإسلام ...

بعد هذه المقسمات بها التي احتملت أكثر من تفسير، يأتي المقسم عليه وهو قوله تعالى: "يوم ترجف الراجفة .." ظرفًا لما يتعلق بيوم القيامة وقد حذف هنا المظروف (أي لتبعثن) لأنه ذكر في موضع آخر كقوله تعالى: "والذّاريات ذَرْوًا، فالحاملات وَقْرًا، فالجاريات يُسْرًا، فالمقسمات أمرًا، إنما لتوعدون لصادق، وإن الدّين لواقع"[2].

كما ذكر المقسم عليه أيضا في قوله تعالى: "والمرسلات عرفًا فالعاصفات عصفًا والنّاشرات نشرًا، فالفارقات فرقًا، فالملقيات ذكرًا عذرا أو نُذْرًا، إنما توعدون لواقع"[3]، فلما ذكر المقسم عليه في هذين الموضعين حذف من الآية السابقة وبقي ما يدل عليه وهو (يوم ترجف ...)، والذي رأيناه هنا، أن هذه المقسمات بها قد تعدّدت واكتنفها شيء من الإبهام والغموض جعلها تفسر على أكثر من وجه، واللغة تقبل كلّ ذلك، وهذا الإبهام يجعل الفكر يذهب مذاهب شتى فتكون الصّورة أبلغ في التأمل وأقوى في البرهان والاستدلال، فهي إما صورة غيبيّة تتمثل في الملائكة وما أوكل إليهم من أعمال، وإما صورة مشهدية من صور الكون تتمثل في حركة الكواكب، وإما صورة تتعلق بقضية الإسلام (أي الجهاد)، وكل صُورة من هذه الصور تجعل المستمع يتأمل ويتدبّر ما فيها من أمور عظيمة تملأ

---

1ـ المختار من تفسير القرآن ج 2/ 95 و تفسير البيضاوي ج 5/ 171.

2ـ سورة الذّاريات / 1 ـ 6.

3ـ سورة المرسلات / 1 ـ 7 .

عليه الأفق وتجعله في جوٍّ من الخشوع لا يملك معه إلا الإذعان والخضوع لعظمة الله ، وتتبع هذه الأمور المقسم بها بالظرف الزماني (يوم ترجف الراجفة) ليدل على أنّ الجواب محذوف تقديره (لتبعثن) بدليل التصريح به في آيات أخرى كما سبق، وهو يوم القيامة .

وتزداد الصورة التأملية تأكيداً في ذهن السامع ، حين يعرف ما يجرى في ذلك اليوم (تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ..) لتخبر عن هول يوم القيامة ، وما يصيب النفوس فيه ، وينتقل القرآن من وصف يوم القيامة الذي هو وصف غيبيٌّ إلى الواقع، فيأتي بلقطة من قصة موسى تناسب السياق: (هل أتاك حديث موسى) على شكل استفهام تقريري لا يدع المجال للشك ومفاده: ما لهؤلاء القوم يبالغون في التكذيب ويبالغون في العناد، ألم يعرفوا حكاية موسى مع فرعون ؟ وفي ذلك كله تخويف للقوم المنكرين وإيناس لقلب الرسول (ص) ولم يستعرض القرآن قصة موسى مع فرعون كاملة وإنما ذكر محل العبرة فيها وهو طغيان فرعون وادّعاؤه الألوهية من دون الله وعصيانه موسى عليه السلام ، فكانت نتيجة ذلك كلّه هي (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) فكان عذابه مضاعفاً لأنه ادّعى الألوهية من جهة ، وكذّب الرسول من جهة ثانية (1) ، وتختم الصورة التعبيرية بأسلوب قسمي آخر (إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى) أي في هذه اللقطة من قصة فرعون .

والذى نلاحظه أنّ الصورة التعبيرية قد تشكّلت من ثلاثة محاور هي :

1ـ افتتاحها بأسلوب قسمي ، تعددت فيه الأمور المقسم بها، واتخذت أكثر من اتجاه ، لتبعث الفكر إلى التأمل وتحثه على التدبر ،

---

1ـ تفسير البيضاوى ج 5/ 172 بتصرف

كما أن هذه الأمور المقسم بها تنبّه الذّهن وتهيّئه إلى تقبل ما يُلقى عليه.

2- وَصْفُ شدّة هول يوم القيامة وما يجري فيه، وكأنّ في عدم التصريح مباشرة بالمقسم عليه الذي هو (البَعْث) والاكتفاء فقط بذكر ما يجري فيه، تقريبُه من الأذهان واختصار المسافة الزّمانية التي تفصل بيننا وبينه، فانتقالُ الذّهْنِ من الصّورة التي رسمتها الأمور المقسم بها إلى الصورة الغَيْبيّة لِمَا يحدث يوم القيامة، صعود من حالة ذهنية تأملية محسوسة، يقفُ الفكر أمامها حائرًا مَبْهُوتًا، إلى درجة أعلى من التّأمل الذّهنيّ لا يجد المتأمل فيها إلا التّسليم والإذعان إليها، فإذا كان الفكر عن إدراكِ المحسوس عاجزًا فهو عن إدراك غيره أعجز.

3- يعود الذهن بعد ذلك إلى صورة من الواقع تسندها الأخبار والرّوايات إنّها قصة فرعون مع الرّسول موسى عليه السّلام، التي ينبغي على العاقل أن يستخلص منها العبرة.

والّذي لاحظناه هنا هو أن سورة (النازعات) قد افتتحت بالقسم، وكان هذا القسم محذوفَ الجواب ليتسع المجال إلى التوسع فيما يتبع القسم من تهديد ووعيد المكذبين بالبعث وذكر الأمثلة لهم مِمّا يطابق أحوالهم، بل ما هو أشدّ إنكارًا عمّا هم فيه، وهو ادّعاء الألوهية زيادة على تكذيب الرّسل، «والاتّساع بالإعجاز أولى منه بالصّدور»[1] لأن الصّدر مفتاحُ المعنى، والصّورةُ التّعبيرية هنا يتجاذبها محوران: المحور الأول هو أسلوب القسم المفتتح به، الدّاعي إلى التأمل والتّدبر وتهيئة الأذهان للاستماع، والمحور الثاني هو أسلوب القسم المختتم به الّذي أكد النّتيجة المنطقية الّتي تكون جزاءً للكفر والعناد وهي قوله تعالى «فأخذه الله نكال الآخرة والأولى» والذي لاحظناه هو أنّ هذه الصّورة التعبيرية قد روعي فيها:

أ- حال المخاطبين والظروف المحيطة بهم وأحوالهم النّفسيّة وهم يومئذ بين مؤمن، وكافر، ومتردد، فكان الأسلوب القسمي في هذه الحالات أنسب.

---

1- الخصائص ج 2/ 362.

ب ـ المعاني الرفيعة التي لاقِبَلَ لهم بها كالإخبار عن الأقوام التي سبقتهم وذكر أحوال يوم القيامة .

ج ـ النمط اللغوى الرفيع الذى يجسد معاني البلاغة والبيان كقصر الفواصل وتساويها وقوة وقعها على النفوس ...

ومن النوع الثالث : الذى يكون فيه الأسلوب القسمي متخللا الأحداث والوقائع قوله تعالى : "فلا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، لتركبن طبقا عن طبق ." (1)

فهذا أسلوب قسمي تعددت فيه الأشياء المقسم بها وصرح فيه بجواب القسم ، تقدمته أحداث ووقائع تمهد له ، وتلته أخبار تتوعد المكذبين والكافرين بسوء العاقبة .

والملاحظ أنَّ هذا الأسلوب القسمي قد احتل (المحورية) في السورة كلها ، والذى يقرأها من أولها إلى آخرها ، يجد أنها متكاملة الجوانب مرتبطة الأجزاء ، بحيث تشكل صورة تعبيرية واحدة ، فهي مكونة من خمس وعشرين آية ، يمكن تصورها على الوجه التالي :

1 ـ الآيات الخمس عشرة الأولى : قبل القسم ، رسمت مشهدًا لما يحدث يوم القيامة حين تقوم الساعة ، إنه مشهد مهول يبتدئ بما يقع تحت الحس ، السماء والأرض (أي هذا الكون العظيم) الذى يراه الإنسان كلَّ لحظة ، ولم يخطر بباله يومًا أنه سيخرج عن رتابته ونظامه فجأة وفي وقت ما بأمر الله ، لذلك إبتدأت السورة بأسلوب الشرط دون ذكر لجواب الشرط الذي كثيرًا ما يُحذف ، مثلما يحذف جواب القسم كثيرًا ، وبقي ما يدل عليه وهو قوله تعالى : "يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه" (2) ومفاده : أنَّ نهاية الإنسان ، إلى الله فمجازيه ، وهنا يتفرع الجزاء إلى فريقين :

1 ـ حساب يليه يسر وسرور "فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يُحاسب حسابًا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا" (3) .

---

1 ـ سورة الانشقاق / 16 ـ 19 .

2 ـ سورة الانشقاق / 6 .

3 ـ سورة الانشقاق / 7 ـ 9

2 ــ حساب يليه عسر و سعير « وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعـــو ثبورا ، ويصلى سعيرا ، إنّه كان في أهله مسرورا ، إنّه ظن أن لن يحور بلى إنّ ربّه كان به بصيرا » (1)

وبذلك ينتقل الفكر من التّأمل في عظمة الله الّتي تأمر السّماء فتتشـــق والأرض فتمدّ ، وهو يحاول أنْ يتصوّر كيفيةَ هذا الانشقاق وهذا المدّ على غرار مـا ألفه في لغته من معاني الانشقاق والمدّ ، غير أنّه لا يعرف له كيفيّة مضبوطة ، المهمّ أنّ فيه من معاني الانشقاق والمدّ ما يجعل الفكر يذهب المذاهب و يتصوّر شتّى الصّـور.. ليعرف في النهاية أن الأمر مهول صعب ، وخارج عن المعهود المألوف ، ينتقل الفكر من هذا التّأمل إلى تأمل آخر غيبي إنه يوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء ، وفكرة الجزاء منطقية يستسيغها العقل البشري ، من آمن استحق الإحسان و من كفر استحـــق العقـاب .

الآيات التي تلت القسم : من الآية العشرين إلى الآية الخامسة والعشرين : زادت المشهد تفصيـلا :

1ــ فمستحق العقاب هو الكافر بالقرآن : " فما لهم لا يؤمنـون و إذا قرئ عليـهم القرآن لا يسجدون ، بل الذين كفروا يكذّبون ، والله أعلم بما يوعون ، فبشرهم بعذاب أليم " (2)

2ــ ومستحق الثواب مستثنى من ذلك : " إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهـم أجر غير ممنـون " (3) .

يمكننا أن نتساءل بعد ذلك ، ما هو الغرض الذّي أداه أسلوب القسم في هذه السورة ؟

لقد وردت السّورة كلها في سياق يفيد التوكيد من ذلك ؛ افتتاحهـــا بالشّرط ، واشتمالها على الاستفهام ، وبعض الأدوات الأخرى كأما التّفصيلية ، والأكثر من ذلك فإن أسلوب السورة مبني على التدرج وفق طريقة معينة من الاستدلال ، تسيـــر

---

1ــ سورة الانشقاق / 10 ــ 15 .

2ــ سورة الانشقاق / 20 ــ 24 .

3ــ سورة الانشقاق / 25 .

*ــ وتفيد الشرط في هذا المقام ولا تخلو من توكيد أيضا ، المغني ج 1 / 57 ــ 58 ــ 69 .

سيرًا تصاعديًا ، بَدْءًا بالمحسوس المشاهد، فالغيبيّ المجرّد ، وانتهاءً بالجزاء المستحق، وكل ذلك لا يخلو من تأكيد ، زيادة على أسلوب القسم الذي هو أكد المؤكّدات كلها. وبهذا تنقسم السورة إلى ثلاثة مشاهد، تتكامل فيما بينها لترسم صورة فنّية بليغة ، وهذه المشاهد هي :

1ـ مشهد حسي منقول من الكون المرئي ، الدّاعي إلى التأمل العقلي، وهذا ما تمثله الآيات الأولى من السورة (من الآية الأولى إلى الخامسة) .

2ـ مشهد غيبيّ مجرد ينتقل إلى الحس والمشاهدة عن طريق التخيل، وكأنّ مشهد يوم القيامة ماثل أمام أعيننا والناس وقوف للحساب ، يتقدمون الواحد تلو الآخر أمام الملأ كُلِّه ، ولا أحد يستطيع إخفاء شيء من أعماله ، فالحساب دقيق والأعمال محصية كبيرها وصغيرها، عظيمها ودقيقها، فمن رجحت كفّة صالحاته فاز، ومن غلبت سيئاته خاب، كلّ هذا يتمثله الذّهن في لحظة معينة وهو يتلو الآيات من الآية السادسة إلى الخامسة عشرة ، فتختفي عنده فكرة الزمان ، فلا يعود هناك فرق بين زمان تَلَقّي المستمع هذه الآيات، وبين زمان حدوث الحساب ،

ويتداخل المشهدان: الأول والثاني ليُتمّ كل منهما الآخر و يصدقه ، فبينما فكر المستمع مستغرق في تأمل المشهد الأول المستمد من الحِسّ والمشاهدة (صورة السماء والأرض) وما أصاب الأولى من انشقاق والثانية من مَدّ واستواء، فلفظت ما في بطنها من مخلوقات ، ووسعتهم جميعا على كثرتهم التّي لا تُعَدُ ولا تحصى فوقفوا للمحاسبة والجزاء أمام قوة قاهرة لا يستطيعون الخلاص منها ولا الاحتيال عليها ، بينما فكر المستمع كذلك ، إذ ينقله الخطاب القرآني إلى مشهد آخر، هو امتداد للمشهد الأول ونتيجة حتمية له ، إنّه هذه المرة غيبيّ ، يتّجه عكس الأول ، من عالم الحس والمشاهدة إلى عالم الغيب ، وفي الانتقال من التأمل العقلي الى الانفعال الوجداني ، مزج المحسوس بالمجرد في تآلف عجيب لرسم الصورة الفنية

في القرآن الكريم القائمة على المنطق الوجداني* الذي تقبله الفطرة الانسانية السليمة، وهو وحده الكفيل بتحقيق عملية الإقناع، تلك الصورة التي تنظم فيها الألفاظ بدلالاتها المعجمية، وظلالها المستفادة من السياق العامّ بسبب تآلفها في النَّظم وتأثير بعضها في بعض، وأفكارها السَّامية التي عبرت عنها معاني النحو، وتلك أرقى مراتب البلاغة التي وقف العربي أمامها عاجزًا.

3- تبلغ الصورة الفنية قمتها المتمثلة في أسلوب القسم" فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق، والقمر إذا اتسق، لتركبن طبقا عن طبق"؛ ولقد سبق ذكر المراد من الأقسام المسبوقة بالنَّفي، إذ المقصود منها تعظيم المقسم عليه، وأنه لا داعي للقسم عليه، غير أنه يمكن أن نُضِيفَ هنا أن تناسق هذا القسم مع السياق العام للسورة واحتلاله (المحورية) يأتي من كون الأمور المقسم بها مناسبة لِمَا سبق ذكره في أول السُّورة: (السَّماء والأرض)، إذ، إن الشَّفق والليل والقمر، ما هي إلا أجزاء من الآية الكبرى، آية الكون المتمثلة في السماء والأرض، كما أن المقسم عليه (لتركبن طبقا عن طبق)** مناسب أيضا لما يليه من مشهد البعث والحساب الغيبيّ، إذ إن المقسم عليه جاء مُعَبِّراً عن البعث: وهو انتقال الإنسان من طور إلى طور إلى أن يصل إلى الطَّور النِّهائي، أي البَعْث والحساب، وهذا ما أفادته دلالة المقسم عليه (لتركبن طبقاً عن طبق) ففي الصورة إذن إبهام يذهب فيه فكر المستمع شتَّى المذاهب، لذلك تعددت أوجه التفاسير هنا، ولقد أورد منها صاحب التبيان عددًا نجمله فيما يلي: «يجوز أنْ يكون القسم مَحْذُوف الجواب، ولتركبن وما بعده استئناف، وقرئ (لتركبُنَّ) بضم الباء للجمع، ويفتحها لخطاب الإنسان، وقيل هو النَّبي (ص)

---

* - "وكل ما عرض من مشاهد يوم القيامة وصور النَّعيم والعذاب، يُعَدُّ في جملة هذا المنطق الذي يلمس الحس، ويوقظ الخيال، فيلمس البصيرة ويوقظ الوجدان ويهيء النفس للاقتناع والاذعان". التصوير الفني ص: 230.

** - «أي حالاً بعد حال "كل واحدة مطابقة لأختها في الشدة والهول" الكشاف م4/36

وقيل التاء للغيبة أي لتركبن السماء طبقاً عن طبق أي حالا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى من الانشقاق والانفطار والطي وكونها كالمهل مرة وكالدهان مرة أخرى ... ودل على السماء ذكر الشفق والقمر ، وعلى هذا يكون قسما على المعاد وتغيير العالم ، أو هو تنقل الإنسان حالاً بعد حال من حيث كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار ، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان (والقسم بشقيه : الصدر والعجز) من أعظم الآيات الدالة على الربوبية وتغيير الله سبحانه العالم وتصريفه له كيف أراد ... كما يدل على صدق الله وصدق رسوله وعلى المعاد ولهذا عقب ذلك بقوله (فما لهم لا يؤمنون) إنكاراً على من لا يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام »[1] وهذا ما يجعل المستمع يتخيل مشهدا مهولا عظيما مخيفا دل عليه الفعل "ركب" المؤكد بمؤكدين ، وكلمة "طبق" المكررة مرتين لإفادة وجودهم على حالة بعد حالة ووضع بعد وضع ، وهذا ما يستفاد من التعبير بالأداة (عن) المرادفة (لِبُعْدَ)[2] ، إذ لا إرادة للإنسان في ركوب هذه الأحوال ، ولا يخفى على صاحب اللغة ما تفيده اللفظتان (ركب ، وطبق) : «الطبق ما طابق غيره ... ومنه قيل للغطاء الطبق ، وأطباق الثرى ما تطابق منه ، ثم قيل للحال المطابقة لغيرها طبق »[3] وإنما الذي يخفي عليه هو هذا النظم العجيب الذي تآلفت فيه هذه الكلمات ، فأعطت صورة تبعث على الخوف والتهويل ، تثير الانفعال وتحرك الوجدان ، حتى إذا ارتعدت القلوب لهذه الصورة المرعبة المجهولة ، تلي المقسم عليه بخطاب قرآني مفسراً ومفصلاً متوعداً وواعداً ؛ متوعدا المشركين والجاحدين بعذاب أليم (فبشرهم بعذاب أليم) والبشرى لا تكون عادة إلا خيراً وكأن التعبير عن العذاب بالبشرى ، استهزاء وسخرية بالكافرين الذين طالما

---

1 ـ التبيان في أقسام القرآن ص : 75 ـ 76 ـ 77 بتصرف

2 ـ المغني ج 1/ 158 .

3 ـ الكشاف م 4/ 236 .

استهزؤوا بالرسول (ص) وما جاء به ، وواعداً المؤمنين بالجنة ومخففاً عنهم من هول القيامة (إلاّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) .

وبهذا تكتمل الصورة الفنية ، وقد سيقت في تناسق عجيب أساسه التّدرج في الاستدلال والصعود بالخطاب في اتجاه العقل والوجدان معاً ، فالأسلوب رفيع والمعاني سامية لا قبل للمخاطب بمثلها ، فلا يملك أمامها إلا الإذعان والتّصديق بها. هكذا يصور القرآن الكريم المعاني الذّهنية والحالات المعنوية في أسلوب متين وَقَدْ "اختيرت لها صور حية وقيست بمقاييس حية ، ومرت من خلال وسط حي".(1)

ولا يسعنا أن نتتبع جميع الأساليب القسمية للوقوف على ما تحمله من صور عقلية وتأملية ذهنية ، غير أنه يمكننا أن نعد من هذا القبيل جميع الأساليب القسمية التّي وردت في السياقات القرآنية الهادفة إلى وحدانية اللّه تعالى والإيمان بما جاء به محمد (ص) بواسطة التأمل العقلي والتفكر الذّهني ، وذلك من خلال الأحداث والوقائع التّي عبرت عنها بأسلوب يتصل مباشرة بالعقل فيدعوه الى التأمل واستخلاص العبرة من أحوال الامم السّابقة وأخبارها ، ويدخل تحت هذا الصّنف أغلب الأساليب القسمية التّي وردت في مفتتح السور ، وتليت بسلسلة من الأحداث لإثبات البعث والجزاء ، أو النّبوة ، أو ذكر أحوال المكذبين وما ينتظرهم يوم القيامة وكذا حروف التهجي التّي افتتحت بها بعض السور ، عند من يراها للقسم ، إذ تدعو العاقل إلى التّنبه وتهيّئ الذّهن إلى ما سيُتلى عليه من أخبار ، كما في قوله تعالى: "ق، والقرآن المجيد" (2) ،

وقوله : "ص ، والقرآن ذي الذكر" (3) ، والتوكيد لا يخلو من تنبيه ، والقسم توكيد ،

---

1 ـ التصوير الفني ص : 249 .

2 ـ "ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم" سورة ق / 1 ـ 2 .

3 ـ "ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق" سورة ص / 1 ـ 2 .

يقول صاحب التبيان "الصحيح أن (ن) و (ق) و (ص) من الحروف التي يفتتح بها الربّ سبحانه السور، وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ولم تجاز الخمسة، ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إمّا مقسما به، وإمّا مُخبراً عنه، ما خلا سورتين: سورة (كهيعص) و (ن)* [1]، وكل ذلك لا يخلو من توكيد على حقيقة القرآن وما تضمنه من معانٍ وأخبار.

ب ـ البعد الاجتماعي والنفسي: أما حين تتجه الأساليب القسمية في رسم الصورة التعبيرية إلى إثارة الانفعال والشعور وتحريك العواطف، وتتجلى من خلالها صور النّعيم والعذاب، وترسم نفسيات الجاحدين والكافرين وما يَختلج فيها من خبث وأذى، فإنّ الصّور حينئذ تتّخذ أبعادًا نفسية، وأما حين تتجه إلى غرس مبادئ وقيم اجتماعية كالتّعظيم من شأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) واتخاذه قدوة لا يقوم نظام المجتمع الجديد إلا بها، أو تسعى إلى ترسيخ قيم ومبادئ جديدة وتصحيح أوضاع وإزالة أخرى، فإنّها حينئذ تتّخذ أبعادًا اجتماعية، من ذلك قوله تعالى: والسماء ذات البروج واليوم الموعود وشاهد ومشهود قتل أصحاب الأخدود"[2]، أقسم تعالى بالسماء وهي آية من آياته وما يحل فيها من أبراج، ثم أقسم بيوم القيامة الذي هو أعظم الأيام ثم بما هو أعظم وأهمّ وهو (الشاهد والمشهود) "وأعم المعاني فيه أنه المدرِك والمدرَك والعالم والمعلوم والرّائي والمرئي وهذا أليق المعاني به"[3]. ولمّا كان السياق العام للسورة واردًا في تثبيت المؤمنين أمام أذى قريش لهم، كان الارتباط والتناسب واضحين بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها، على أنها دالة على ربوبيته وقدرته، وبين قصة أصحاب الأخدود الذين عَذّبوا المؤمنين من قبل[4].

---

*ـ "كهيعص، ذكر رحمة ربك عبده زكريا" سورة مريم / 1 ـ 2.

ـ "ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربّك بمجنون" سورة القلم / 1 ـ 2.

1ـ التبيان ص: 135.

2ـ سورة البروج / 1 ـ 4.

3ـ التبيان ص: 60 ـ 61.

4 ـ الكشاف م 4/ 238 وقد سبق ذكر أصحاب الأخدود بالصفحة 90 من الفصل الثاني.

إن استحقاق العقاب الذّى عبرت عنه هذه الصّورة ، جاء مؤكداً بثلاث آيات عظيمة؛الأولى محسوسة وهي السماء وأبراجها ، والثانية والثالثة غائبتين وهما : يوم القيامة وما يجرى فيه ، وذلك ليقوم المحسوس شاهداً على المغيب ، وكأن المقصود هو أن حقيقة يوم القيامة وما فيه كحقيقة هذه السماء وما يشاهد فيها من أبراج .

وافتتاح السورة بالقسم بالسماء، يُلفت النّظر إليها وسرعان ما يبدأ العقل في التأمل في شأن هذه السماء وانتظار ما يتلو ذلك من أخبار، فيأتي المقسم به الثاني (واليوم الموعود ) ، وما اليوم الموعود ؟

إنّه مبعث الخَوْف و الرّعب، خاصة حين يستشعر الكافر في نفسه طغيانه وأذاه غيره ، ويحمل إيحاءات نفسية كثيرة ( يوم يجتمع فيه الناس جميعا ، تعرض فيه الأعمال.. لماذا ؟ للمحاسبة ! كُلّ شيء لا بُدّ له من نهاية ! )

نعم إنها حقيقة تقبلها الفطرة الإنسانية السّليمة ، هذا قسم والعربي يعظم القسم عادة ، وبينا هو مشغول الفكر والبال، يأتي القسم بالآية الثالثة (وشاهد ومشهود ) بكل ما تحمله من معاني التّقابل والظهور والرّؤية والانجلاء ، ثم تتوالى الآيات الأخرى فتزيد تلك الأمور المقسم بها توضيحا وتعميقاً في النّفس، تكتسي بطابع الخوف والهول بما يهيمن على الموقف من عظمة وإجلال لم يألفهما من قبل في لغته . فالألفاظ معروفة لديه ،غير أنّ الشيء الذّى يجهله هو نظم هذه المعاني على هذا الوجه من التأليف ، ويتأمل المتلقي الصّورة بوجهيها إنهما :

1ـ متقابلان : صورة كفار قريش وهم يُحادّون الرسول (ص ) ،ويعذبون أصحابه ، تقابلها صورة لكفار قبلهم يحرقون جماعة من المؤمنين .

2ـ مختلفان في الزمن : فالأول في عصر الرسول محمد (ص) والثاني قبله ،جاء به القرآن للدلالة على توعد المشركين وأن ما يقومون به ليس جديداً على الأرض فهناك من قام به قبلهم وكان موعده النار .

وجواب القسم محذوف دل عليه قوله تعالى " قتل أصحاب الأخدود" وهذا ليس بجواب لأن الأصل في جواب القسم حين يكون مركبا فعليا ماضيا موجبا أن يُتلقّى باللام وقد أو بقد وحدها، وكأن التقدير هو "إنّ كفار قريش ملعونون مثلما لُعن أصحاب الأخدود"، وتستمر السورة في التشنيع بأصحاب الأخدود وتتوعدهم بأقصى أنواع العذاب ثم تُعمّم لتتوعد أمثالهم من المشركين " إنّ الّذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عَذَابُ جَهنّمَ ولهم عذابُ الحريق "(1)، وعطف (عذاب الحريق) على (عذاب جهنم) لإفادة أنّ لهم في الآخرة عذاب جهنم بكفرهم، ولهم عذاب الحريق وهي نار أخرى عظيمة تتسع كما يتسع الحريق بإحراقهم المؤمنين ...(2) وبهذا يضاعف لهم العقاب، عقاب بنار جهنم لهم ولجميع المشركين أمثالهم، وعقاب ثانٍ من جنس ما عاقبوا به غيرهم وهو (عذاب الحريق) وهذا عين الحكمة والصواب (كما يدين المرء يدان).

والمعنيون بهذا الخطاب القرآني هم كفار قريش دائما والسياق القرآني حينما يستطرد إلى ذكر قصة (أصحاب الأخدود) إنما للزيادة في التهويل والتضخيم صورة العذاب الذى سيلحق بالمكذبين برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) مثلما لَحِقَ بأصحاب الأخدود، وفي حذف جواب القسم الكثير من الإيحاءات النّفسية التي تفتح المجال واسعًا أمام المتلقي لتخيل المجهول بشتى الدّلالات والإيحاءات وفي ذلك ردع وزجر أكثر من التصّريح والمباشرة.

والذى يستوقفنا هنا هو، تلك الصورة النفسية القائمة على التخييل والتشخيص، الّتي صوّرت أعمال الكافرين في الدّنيا، والجزاء المترتّب عنها في الآخرة، وهي صورة ذات وجهين:

---

1- سورة البروج / 10

2- الكشاف 4 / 239

1- متشابهين في المحتوى : فهؤلاء قد آذوا المؤمنين والرسول وعذبوا الضعفاء منهم، وأولئك عذّبوا أيضا وأفرطوا في التعذيب إلى حدّ الإحراق .

2 - متحدين في المصير : فالدّعاء عليهم بالقتل (قتل أصحاب الأخدود) يتضمن دعاء بالقتل أيضا على كفار مكة ، والتوعدُ بالعذاب المضاعف يشملهم جميعا .

تنزل الصورة على الكافر الجاحد ، قوارع زاجرة تكشف عن نفسه وتفضح نواياه فلا يملك أمام هذا الخطاب السّموَ إلا الإذعان لِلّهِ فيؤمن استجابة للفطرة التي فطره عليها اللّه ، أو يستمر في الجحود والعناد وهو يعلم أنه يُغالب الفطرة ويخالف الحقيقة .

وأما المؤمن فتزيده إيمانا وثباتاً على الحَقِّ وتعده أحسن الوعد "إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير" (1) .

هذه صورة فنية من الصّور ذات الدّلالات النفسية الإيحائية ، وهي كثيرة في القرآن الكريم لا يمكن حصرها، وتتحقق بشتى الأساليب البلاغية كالاستفهام والتّعجب والتّشبيه والتوكيد، بجميع أنواعه ومنه القسم الّذى هو محلّ هذه الدراسة .

لقد رأينا أن الصّورة الفنيّة في الآيات السّابقة كان التّركيز فيها على الجانب النفسي المتمثل في فضح المشركين وتوعدهم بالعقاب ...

ولنر الآن قوله تعالى : « والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علّمه شديد القوى » (2) .

حيث أقسم بالنّجم وهوآية من الآيات المحسوسة التي تشاهد حين تهوى وتتدثر أو يرجم بها فتتقض ، وما يسترعي الانتباه في هذا القسم ، هو وصف المقسم به بصفة ونفي هذه الصّفة عن المقسم عليه ، فقد وصف النّجم بالهوي ، ونفى الضّلالة والغواية عن الرسول (ص) والفعلان ( هوى وغوى ) متشابهان نطقاً ووزناً ومعنى ،

---

1- سورة البروج / 11 .

2- سورة النجم / 1 - 5 .

والصورة النّفسيّة هنا مبنيّةٌ على المقارنة لفضح النّوايا وتوضيح الحقيقة الّتي لا زال بعض القوم يُمارُونَ فيها، إنّها حقيقة النبوة ، ولقد كشفت ما كان يتردد في نفوسهم وعلى ألسنتهم من أنّ الرسول (ص) شاعر أو مجنون أو به غواية ، فالصورة المحسوسة للنّجم حين يَهْوِي ويندثر حقيقة مشاهدة لدى الجميع، ولكنّهم لا يعرفون سبب ذلك الاندثار، ولا يتأملونه تأملا عقليّاً ، فالّذي سَخّر هذا النجم ووقّت له وقتاً معلوماً يسطع فيه ثم يهوي حيث لا يَدْرُون هو الّذي بعث الرّسول (ص) صادقاً أميناً في تبليغ ما أمره به من غير ضلال ولا غواية ولا هوى، كما يزعمون ، فإذا كانوا عن معرفة أحوال هذا النّجم – رغم مشاهدتهم إيّاه – عاجزين ، فهم عن فهم أمر الوحي أعجز، وفي دلالة (النجم) بعد اجتماعي مُتَرسّب في أذهان الأمة صاحبة اللغة ، كانوا يترقبون حركات النّجوم فيحصون مطالعها ومساقطها لأنّها مرتبطة بحلّهم وترحالهم وتنظيم أوقاتهم ، لذلك قال عنهم القرآن الكريم : " وبالنجم هم يهتدون "(1) . فما لهم يغفلون ما يأفل ويزول فيهتدون به ويعرضون عما جاءهم به هذا النّبي (صلى الله عليه وسلم ) فلا يؤمنون بالله خالق النّجم الّذي يدعوهم إليه ، وربّما حمل النّجم عندهم دلالة اجتماعية أخرى متمثلة في عبادة بعضهم إيّاه ، فتكون الصّورة حينئذ أنّهم يعبدون ما يزول وما يندثر ، ويتركون عبادة الواحد الّذي لا يزول فلا يجدون أمام هذه المفارقة بين الصورتين إلاّ التصديق والإيمان ، أو الاستمرار في العناد مع الافتقار إلى الحجة والدّليل .

هذا الجانب النّفسي التأثيري يتجلى أكثر فأكثر في تلك المقاطع المتتابعة التي تلت المقسم به (ما ضَلّ ...) فهي شديدة الوقع ، قصيرة المقاطع، عنيفة الرد ، تشابهت فواصلها ، فجاءت قوية النّبر، تؤثر في الإحساس والشعور وتجعل الكافر يشعر بالخزي، لأنها صورت ما يدور في نفسه وعلى لسانه من صفات الضّلال والغواية

---

1- سورة النحل / 16 وعلامات وبالنجم ...

والهوى ، التي وصف بها هذا الرسول، من جهة ، كما سلبته كُلَّ حجة يعتمد عليها من جهة ثانية ، إنها صورة توبيخيّة تبقى عالقة بالنَّفس والعقل لا تبرحهما وتشد بتلابيب المخيلة لتصرخ بها أنْ كفى عن هذا القول كُلَّما راود نفسَ صاحبها التَّصدّي لهذا الرَّسول بأذىً .

وهذه الصّورة ذات شقّين: شق قوامه البرهان والاستدلال، القائمان على التأمل والتدبر وهذا ما يمثله المقسم به (والنَّجم إذَا هوى )،وشق قوامه التأثيرات النَّفسية القائمة على التَّشخيص والتصوير وهو ما تلا المقسم به .

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى : "والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنَّهار إذا جلاّها ، والليل إذا يغشاها، والسَّماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ونفس وما سَوَّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زَكَّاها" (1) .

حيث جاءت الواوات عواطف نائبة عن الواو الأولى، وقائمة مقام الفعل والباء معًا، وسادّة مسدهما، و "(ما) موصولة وإنما أوثرت على (من) لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل والسَّماء والقادر العَظيم الَّذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها" (2)، وجواب القسم محذوف لطول الكلام "تقديره لَيُدَمْدِمَنَّ الله عليهم، أي على أَهْلِ مكة ، لتكذيبهم رسول الله (ص) كما دمدم على ثمود من قبل لأنهم كذبوا صَالِحًا وأمَّا قد أفلح من زكاها فكلام تابع لقوله : فألهمها فجورها وتقواها على سبيل الاستطراد وليس من جواب القسم في شيء" (3).

فهذه جملة من الأمور المقسم بها ، أعطت صورة متكاملة لحركة الكون بكلّ ما فيها من كائنات مما يقع تحت الحس ومما لم يقع .

فهذه (السماء والأرض ، والشمس والقمر، والنَّهار والليل) آيات محسوسة مشاهدة

---

1ـ سورة الشمس من / 1 ـ 9 .

2ـ الكشاف م 4 / 258 .

3ـ المصدر السابق م 4 / 259 .

تتمثل فيها مظاهر العظمة للمتأمل المتبصر في أحوالها وتعاقبها وسائر أمورها ، بل وفي منافعها إذ بها تستقيم الحياة وينتظم الكون ، ويعطف على هذه الظواهر الكونية العظيمة بشيء لم يقع تحت الحس والمشاهدة إنّه النفس (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ... وتنكير (نفس) فيه تفسيران : الأول : أن يراد بها نفس خاصة من بين النفوس وهي نفس آدم عليه السّلام ، والثاني : أنْ يُراد كُلّ نفسٍ وينكر على سبيل التكثير (1) وأنّ هذه النّفس قد أفهمها اللّه وأعقلها معاني الحسن والقبح، وبها يستطيع الإنسان حسب إرادته أنْ يختار الطريق الّذي يريد، إما طريق التزكية وهي الإنماء والإعلاء بالتّقوى ، وإمّا التدسية وهي النّقص والإخفاء بالفجور ...

فهذه صورة قسمية تصور حال النفس البشرية التّي سواها الخالق وأعطاها ما تميز به بين الخير والشّرّ ، وجعل جزاءها مترتبا على ما تجنيه من أعمال سواء كانت أعمال خير أو أعمال شر ، وفي ذلك امتنانٌ من الله على عبده ، يتضمن دعوة إلى عمل الخير الّذي أساسه الإيمان ، لذلك أغنت هذه الأمور المقسم بها عن الجواب ، وذلك لاكتمال العبرة فيها وتمام القصد عندها .

ولا تخلو المقسمات بها هنا من دلالات اجتماعية ، ربما ارتبطت بأمر من أمور الدّين والاعتقاد ، وهي دلالة (الشمس والقمر ..) فقد كانا ممّا يعبد قديما* والقسم بها هنا يُبيّن ما يعتريها من تبديل وتغيير ، يُزيل عنها صفة العبودية التّي قد لا تزال عالقة بأذهان البعض ، لأنّ المعبود لا يتبدل ولا يتغير ولا تعتريه حال الضّعف والزّوال .

---

1 ـ المصدر السابق م 4/ 258 .

* ـ أشير إلى ذلك بالفصل الثاني ص : 85 .

ومن الأقسام ذات الأبعاد النّفسية ، ما عبرت عنه جوابات القسم في قوله تعالى : "إن الإنسان لربّه لكنود" [1] فهو قسم على ما انطوت عليه النّفس الإنسانية من صفات أبرزها الكنود ، والكنود هو الكفور أو البخل أو العصيان واللّغة تقبل كُلّ هذه المعاني وكأن المعنى المراد " أنه لنعمة ربّه خصوصًا لشديد الكفران ، (وإنه على ذلك لشهيد) [1] يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحد لظهور أمره ، وقيل إن اللّه على كنوده لشهيد ، على سبيل الوعيد ، (وإنه لحب الخير لشديد) [1] والخير المال ... والشّديد البخيل الممسك ... أو أراد بالشديد القويّ وأنه لحب المال وإيثار الدّنيا وطلبها قوي مُطيق ، وهو لِحُبّ عبادة اللّه وشكر نعمه ضَعِيفٌ متقاعس » [2] .

صورة أخرى للنّفس البشرية تطالعنا بها سورة البلد وهي قوله تعالى: "لقد خلقنا الإنسان في كبد ، أيحسب أنْ لن يقدر عليه أحد ، يقول أهلكت مالا لُبَدًا ، أيحسب أن لم يره أحد ، ألم نجعل له عينين ولسانًا وشفتين ، وهديناه النّجْدَيْنِ ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فَكُّ رقبة أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا مترية ، ثم كان من الّذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة .." [3] .

حيث أقسم تعالى بالبلد الحرام ( لا أقسم بهذا البلد ) "على أنّ الانسان خلق مغرورًا في مكابدة المشاق والشدائد .. وأصل المكابدة من كبد الرجل إذا وجعت كبده وانتفخت ثم تَوَسّع فيه فاستعمل في كُلّ تعب ومشقة" [4] ، ويتلى المقسم به (لقد خلقنا الإنسان في كبد) بما يفسر بعض مظاهر هذا الغرور وهذه المكابرة ، من الاعتزاز بالقوة وشدة الخَلْق وإنفاق المال فيما يسميه مكارم ومفاخر

---

1ـ سورة العاديات / 6 .. 8

2ـ الكشاف م 4/ 278 و 279 .

3ـ سورة البلد / 4 ـ 17 .

4ـ الكشاف م 4/ 255 .

كانوا يَحتَدّون بها في الجاهلية ، حتى ظن أن لن يقدر عليه أحد (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) * ويستمر الخطاب القرآني في الامتنان عليه ، وتذكيره بما منحه اللّه من قدرات حسية كالإبصار والنّطق ، وصفات معنوية كالعقل الّذي يُفكر به ويميز بين الخير والشر ، وهذه ليست كل الصّفات وإنّما أهم ما منح اللّه لأنها مدعاة إلى التفكر والتأمل في عظمة اللّه ، ومع ذلك لم يشكر تلك النّعم بعمل الصالحات من فكّ الرّقاب وإطعام اليتامى والمساكين بل أهلك المال الكثير ، رئاء النّاس وافتخارًا بينهم ، ثم عطف على ذلك عطف تراخٍ بثم "لإفادة أفضلية (العتق والصّدقة) من حيث الرّتبة والفضيلة على الإيمان ، وليس من حيث الوقت ، لأنّ الإيمان هو السّابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلّا به" (1) ، وتختم الصورة القسمية ببيان مصير كل فريق فالّذين آمنوا "أولئك أصحاب الميمنة" والميمنة اليمين أو اليمن ، فهؤلاء ميامين على أنفسهم بما وعدهم الله من نعيم وأولئك مشائيم من الشمال أو الشؤم "والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار موصدة" (2) أي محيطة بهم مغلقة عليهم لا يستطيعون عنها فكاكًا ، تلك كانت بعض الصور التي رسمتها المقسمات عليها فأعطتها أبعادًا نفسية وكان التركيز فيها على المقسم عليه وما يتبعه من أوصاف ودلالات متفرعة عنه ، إذ كان هو الأصل الّذي انبنت عليه الفروع ، لذلك كان لا بد من الاستطراد الّذي جعلني أميل إلى التفسير أحيانًا أكثر من البقاء في حدود الدّلالات اللغوية .

وأمّا من الصور القسمية ذات الأبعاد النفسية الّتي مصدرها المقسم به في حدّ ذاته ، فيمكننا الاقتصار على الآية التالية : "لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنّفس اللّوامة" (3)

---

* ـ والخطاب يفيد الالتفات إلى بعض صناديد قريش الّذين كان الرسول (ص) يكابد منهم ما يكاد . الكشاف م 4/ 255 .

1 ـ الكشاف م 4/ 257 .

2 ـ سورة البلد / 20 ـ .

3 ـ سورة القيامة / 1

فجاء القسم بالنفس التي بها أكد ثبوت الجزاء، وعليها يقع الجزاء، وهذا ما يفيده قوله تعالى : " أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه " [1] دالا على جواب القسم المحذوف المقدر بـ (لتبعثن) فقد تضمن القسم ثبوت الجزاء ، وذلك يتضمن إثبات الرسالة والقرآن والمعاد " (2)

وأما النفس اللوامة فقد يكون المقصود منها هو النفس البشرية على العموم سواء منها المؤمنة أو المسيئة ، عن عدم ازدياد تلك في الإحسان أو عدم إقلاع هذه عن الغيّ ، كما أقسم في موضوع آخر على النفس مطلقا " ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها ".

وعن الأبعاد الاجتماعية أيضاً نجد : "عناية القرآن الكريم بالجانب الاجتماعي كانت فائقة ، وخاصة ما نزل منه في مكة إذ كان يهدف إلى تربية العقيدة في النفوس والإيمان بما جاء به الرّسول (صلى الله عليه وسلم) ، ويشكل القصص القرآني بجميع ما تكرر منه حيزا كبيرًا من القرآن المكي ، لذلك تكفل بذكر طائفة كبيرة من حوادث الأمم ووقائع الرّسل مع أقوامهم ، وكانت طريقة عرضه لهذه الأحداث والوقائع متصلة دائما بإثبات العقيدة والبعث ، وترغيب المؤمنين وإنذار وترهيب المعرضين، ودليلا على النّبوة وتثبيتاً لقلب الرسول (ص) كل ذلك يذكره القرآن بطريقة تتّفق مع الأغراض الّتي أعْتَنَى بها في المرحلة المكية وهي ترسيخ العقيدة في النفوس" (3).

ومن الأساليب القسمية الّتي تحمل أبعادًا اجتماعية قوله تعالى: "ولقد بعثنا في كل أمّة رسولا" (3).

---

1- سورة القيامة 2.-

2 - التبيان ص : 14 .

3 - المجتمع الانساني في القرآن الكريم د. محمد التومي ط/ 1986 مطبعة القومية للنشر تونس ص : 71 .

4 - سورة النحل / 36 .

إذ يذكرهم بأنّ بعثة الرّسول ما هي إلا لإقامة الدّين الّذي يصلح به (الاجتماع)، فدلالة (الرسول) التي تكررت في القرآن مع ما يتصل بها من أحداث ما هي في الغالب إلا قيمة دينية يسعى القرآن إلى غرسها في النفوس لتصبح المحور الذي يقوم عليه المجتمع الإسلامي الجديد ففيها يتجلى الربط بين الدّنيا والآخرة وهذا ما كان مجهولا من قبل .

وكذلك في قوله تعالى: "والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر . ألم تر كيف فعل ربّك بعاد إرَمَ ذاتِ العماد" (1) فبعدما أقسم بهذه الأمور المحسوسة على أن البعث حقّ، عقّب على ذلك بذكر قصة إرم وعاد وثمود، زيادة في الاعتبار بما مضى، والملاحظ أنّ هذه الأمور الحسّية المقسم بها (الفجر والليالي العشر...) زيادة على أنها من الآيات العظيمة الّتي تبعث على التأمل والتدبر، فإنها كذلك ارتبطت بأمور دينية لها قيمتها الاجتماعية في نفوس المؤمنين، نظراً لما يؤدى فيها من عبادات .

وقد يعبر عن تلك الدلالات الاجتماعية ما يتلو المقسم به كما في قوله: "ألم تر كيف فعل ربّك بعاد ..." إذ التّذكير بما أصاب عاداً وغيرها له أثره الاجتماعي في النفوس، وكذلك ما تلا المقسم عليه في سورة الضّحى (ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى فأمّا اليتيم فلا تقهر وأمّا السّائل فلا تنهر وأمّا بنعمة ربّك فحدّث" (2) ألا يجوز أن يكون الخطاب الموجه من خلال هذه الآيات إلى الرسول (ص)، خطاباً موجها إلى جميع المسلمين للالتزام بهذه المبادئ الدينية لإيواء اليتيم وهداية الضّالّ وإطعام الفقير وإكرام السّائل ؟ ومن ثم تُعْدُو هذه التعاليم أُسساً من ضمن أُسُس المجتمع الاسلامي .

---

1ـ سورة الفجر / 1 ـ 6 .

2ـ سورة الضحى / 6 ـ 11 .

في كُلِّ ما سبق كان الأسلوب القسمي هو محور الصورة التعبيرية ، بحيث يعطيها من الأبعاد الدلالية ما يناسب الموقف والسياق ، سواءً كان متبوعاً أو تابعاً أو متوسطاً السياق ، كما أنَّ هذه الدلالات قد تتداخل مع بعضها بحيث لا ينفرد كل أسلوب أو صورة تعبيرية بدلالة معينة منها ، يمكننا أن نقول :

إنَّ محور التركيب القسمي قد يكون هو المقسم به (صدر جملة القسم) وذلك حين يكون هو المراد لذاته ، وغالباً ما يحمل هذا النوع دلالات عقلية تأميلية تطغى على الصُّورة التعبيرية ، وخاصَّة عندما يكون من الظواهر الكونية العظيمة ، كما في معظم السور المفتتحة بالقسم ، أو يكون مُعَبِّراً وكاشفاً عن أحوال النفس البشرية وأطوار خلقتها وغالباً ما يكون هذا النَّوْعُ من القسم غير مُصَرَّحٍ فيه بفعل القسم ، بل وجد ما ينوب عنه كالواو ، كما قد يعبر عن الدّلالات العقلية التأميلية المقسم عليه (عجز جملة القسم ) عندما يكون الصدر محذوفاً ، ويكون المقسم عليه مسبوقاً في السياق بما يدل على تلك الدّلالات ، ويمكن أن يدمج هذا الصّنف الأخير مع ما سبقت تسميته بالدلالات الاعتبارية والدلالات الكونية .*

أما حين يكون محور التركيب القسمي هو المقسم عليه (عجز جملة القسم) فالغالب أن تكون الدّلالات ذات أبعاد اجتماعية أو نفسية ، ويكون المقسم عليه هو المقصود ، وإنما يؤتى بالمقسم به لتوكيده فقط ، أو يكون المقسم عليه مَحْذُوفاً ، وينوب عنه ما ينبئ به فيزيد الصورة التعبيرية عمقاً وتهويلاً ، كما قد يُحذف المقسم به تماماً ، وحينئذٍ يطغى على الصُّورة التعبيرية جو من الانفعال وإثارة الشعور والعواطف ، وتصوير أحاسيس النفس من حب وكراهة وإيمان وكفر ، ويجيء هذا النَّوع من القسم ، إما بفعل القسم أو ما ينوب عنه كما رأينا في النَّماذج السَّابقة ، وإما أنْ يكون صدر القسم مَحْذُوفاً كما رأينا في الدّلالات العقابية والثوابية .**

---

* ـ الفصل الثاني ص : 133 .

** ـ الفصل الثاني ص : 133 .

ومجمل القول: إن الأساليب القرآنية سواء منها القسمية أو غيرها تشخص المعنى وتضفي عليه نوعًا من الحركة والحياة، ففي قوله تعالى " فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنّس والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفّس " (1).

نلاحظ أنّ التعبير هنا يشخّص الكواكب والليل والصبح، ويخلع عليها نوعا من الحياة والحركة كأنها الظباء تجري وتختبئ في كناسها، وكذلك قوله تعالى: " والليل إذا يسر " (2) فالليل مخلوق حيّ يسرى في الكون، كأنه ساهر، ومن طبيعة الأسلوب القرآني عندما يتحدّث عن الأمور الغيبيّة أنه ينقلها من عالم الغيب إلى عالم الحسّ والمشاهدة ليقربها بذلك إلى الأذهان، والقرآن الكريم حين يسعى إلى تحقيق عملية الإقناع لدى المخاطب لا يتناول جانبًا معينا فقط، بل يتناول جميع الجوانب ويخاطب الكينونة البشريّة بجملتها، يخاطب العقل فيدعوه إلى التأمل ويخاطب النفس والوجدان ليحرك المشاعر والأحاسيس "ويطرق كلّ أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة ... وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها" (3).

يمكننا الآن أن نطرح السؤال التالي: ما هي الطّريقة التي تحققت بها عملية الإقناع في الأساليب القسمية؟ هل هي طريقة الاستدلال والبرهان؟ أم طريقة التأثيرات المبنية على إثارة الأحاسيس والعواطف؟

"إنّ القسم من الأساليب الخطابية التي يتخللها البرهان المفحم، واستدراج الخصم إلى الاعتراف بما يجحد" (4).

سبق أنّ النّص الخطابي يقوم على دعامتين هائلتين من أجل تحقيق عملية الإقناع هما:

1 ـ البراهين، و 2 ـ التأثيرات.

---

1 ـ سورة التكوير / 15 ـ 18.

2 ـ سورة الفجر / 4.

3 ـ في ظلال القرآن لسيد قطب ط/ 1953 دار إحياء الكتب القاهرة ج 3/ 1788.

4 ـ التعبير الفني في القرآن لبكري شيخ أمين ص: 237.

والملاحظ أنّ النّص القرآني أثناء تسلسله في النّزول ، قد راعى أحوال أولئك الّذين نزل عليهم ، والظروف الاجتماعية والنفسية لهم ، فلم يكونوا على درجة من العلم والمعرفة ليخاطبهم بالأساليب العلميّة الخالصة المبنية على الاستدلا ل الخالص، بل كانوا يعرفون الخطابة والشعر وفنونهما ، وإلى جانب هذا كان لهم من رجاحة العقول ما يسمح لهم بتقبّل البراهين والأدلة على صدق الرّسالة المحمدية.

ولم يكن الأسلوب القرآني (النّظم) ممّا تعارفوا عليه كالخطابة والشّعر والسّجع وغيرها ... بل هو كلام عربيّ فصيح في قمة الفصاحة والبلاغة ، لم يألفوا مثلـــه من قبل ، ولم تغب عنهم أكثر معانيه وألفاظه ، فقد وجدوا أنفسهم أمام أمرين : -كلام عربيّ لهم صلة به تسمح لهم بفهمه، - وأسلوب عربيّ لم يألفوه من قبل ، راح المكابرون منهم يقيسونه بمقاييس قد ألفوها كالشعر والخطابة والسجع فلم يستقم لهم ما أرادوا، يسترسل الأسلوب القرآني في بعض الأحيان استرسالا تتآلف فيه الفواصل وتتشابـــه حتى يطمئن الكفار منهم إلى أنّه شعر، ثم سرعان ما تتغيّر الفواصل فتتغيّر الظّنون معها ويخيب الأمل ، ويقرعهم بمقاطع قصيرة أشبه ما تكون بالأوزان الشعرية ، لكنه لا يستمر على تلك الوتيرة ، ويرد على ظنونهم ويكشف النّقاب عمّا في نفوسهم ، بأنّ هذا الرّجل محمد (ص) ليس بشاعر ولا ساحر ولا مجنون ، ويضعهم أمام معانٍ وأفكار وتصـــوّرات سامية، لا قِبل لهم بها ، من مظاهر كونية ، وأحوال نفسية خفية ، وأمور غيبية معنوية كمشاهد الحساب والجزاء ، فلا يجدون لذلك كلّه تفسيرا، ولا يقدرون على ردّه ردّا يطمئنون إليه ، وفكرة الألوهية تعلو لتحيط بكلّ شيء، ولتشعر السّامع بأنّ اللـــه على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، وبيده تدبير جميع الأمور ، فالألوهيـــة بارزة مسيطرة شاملة، تسيطر على الكون وعلى حياة الإنسان ، وترسم للمرء حيـــاة أخرى للحساب والجزاء تحتل جانبًا هاما من الأساليب القرآنية المكية ، فهنا الحديث عن الدنيا وما فيها، وعن خلقة الإنسان وأطوار حياته وسائر أحواله ، وهناك حديث

عن الأمم السابقة وأحوالها مرتبط بالحديث عن الآخرة وما ينتظر الناس، وهنالك مشاهد كونية عظيمة، تتحدث عن حركة الكون وعظمته، لكل مقامه الذى يناسبه ويدعو إليه، فلا يطغى جانب منه على الآخر، ولا يقبل حَذْفًا أو تبديلا، في صور متكاملة الأجزاء، متقنة الأسلوب، عجيبة النَّظم.

كل ذلك أدَّته أساليب بلاغية، منها القسم باعتباره أعلى درجات التوكيد، والطَّريقة الأسلوبية التي انبنت عليها الصُّور التعبيرية في القرآن والّتي احتلّت الأساليب القسمية (المحورية) في رسمها، استولت على المشاعر والأفكار والعقول في آن واحد، بحيث أدَّت وظيفتها التبليغية كاملة من أجل تحقيق عملية الإقناع، المبنية مرة على البرهان والاستدلال، ومرة على التأثير، ولقد سبق أنْ رأينا أن طريقة البراهين تعتمد على استخدام الأدلة وترتيبها للوصول إلى النتيجة، ويمكن أن نعد من هذا الصِّنف القائم على البرهان والاستدلال أغلب الأساليب القسمية التي جاء منشأ الصُّورة التعبيرية فيها مَبْنِيًا على المقسم به، وخاصة عند ما تكون تلك الأمور المقسم بها من الآيات الكونية العظيمة الواقعة تحت الحس والمشاهدة كاللّيل والنّهار، والشمس والقمر، والنّجم والكواكب...

ويكون فعل القسم معها مَحْذُوفًا مُعَبَّرًا عنه بما ينوب عنه كالواو، أَوْ مُصَرَّحًا به مسبوقا بنفيٍ منسوبًا إلى الله تعالى (لا أقسم)، وغالبا ما تقوم المقسمات بها مقام المقدمة الّتي تتسلسل فيها الأدلة وترتب، لتنتهي إلى النّتيجة المرجوة الّتي هي الإيمان بجميع فروعه، سواء صرح في ذلك بالمقسم عليه أو لم يُصَرَّح.

والبراهين إما أن تكون خارجية، وإما أن تكون داخلية كما سبق، فمن البراهين الخارجية التي يُؤْتَى بها لتدعيم الموضوع وإعطائه قوة الإقناع تلك الأساليب القسمية الّتي تكون فيها مهمة المقسم به توكيدَ حقيقة المقسم عليه، وهذا هو الأصل في القسم، إذ ليس المقسم به هو المراد، وإنما جيء به برهانا على

صحة المقسم عليه الذى هو محل التوكيد وصلب الموضوع ، كما في قوله تعالى " والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ..." (1) وقوله " لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الانسان في كبد ..." (2) وقوله : "والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى ..." (3)

حيث جيء بهذه المقسمات بها وهي من الأمور المحسوسة المشاهدة للتأكيد في الآيات الأولى على إختلاف أنواع السعي وتعدده، ثم تمضي الصورة التعبيرية لترسم حدودًا لهذا السَّعي ، فتبين الصالح منه وجزاء صاحبه ، والطالح وما ينتظر صاحبه من عقاب ...

وفي الثانية تكشف عن نوايا الإنسان وتصرفاته وتَمُنُّ عليه بما أنعم الله ...، وفي الثالثة تسلية للرسول وذكر فضائل الله ونعمه عليه ، في جميع هذه الحالات الثلاثة محور الصورة التعبيرية هو ما تفرع عن المقسم عليه .

وَأَمَّا من البراهين الدَّاخلية التي تُعد جُزْءًا من الموضوع ذاته ، فيمكننا أن نصنف تلك الأساليب القسمية الَّتي يكون محور الصُّورة التعبيرية فيها هو المقسم به باعتباره جزءًا من الموضوع العام المراد توكيده ، كأن يكون : من الظواهر الكونية العظيمة أو من الأشياء العادية أو من عالم الغيب كالملائكة ، فتضفي على الصورة التعبيرية جَوًّا من الألوهية تَبْدُو فيه قدرة الخالق مهيمنة على كل شيء لدى المخاطب :

---

1 ــ سورة الليل / 1 ــ 4 .

2 ــ سورة البلد / 1 ــ 4 .

3 ــ سورة الضحى / 1 ــ 4 .

فمن الأول ما رأيناه في سورة الشمس ، ومن الثاني في سورة العاديات ومن الثالث في النّازعات ، وسورة المرسلات ، وسورة الذاريات .

كما قد تكون تلك الأمور المقسم بها مكملة الموضوع الذى وردت فيه ، وذلك بما يتقدمها أو يتلوها في السّياق العام ، من ذلك قوله تعالى " وإنه لقسم لو تعلمون عظيم "(1) حيث جاء التّعظيم من شأن القسم بمواقع النجوم (فلا أقسم بمواقع النجوم )(2) بعد أربع وسبعين آية تتحدث عن قيام الساعة وما يصاحبه من اختلال نظام الكون ثم ما يتلو ذلك من الحساب والجزاء في وصف مُطنب لِمَا يَنتظر المؤمنين (أصحاب الميمنة ) من نعيم مقيم ، وما ينتظر الكافرين (أصحاب المشأمة) من عذاب جزاء كفرهم وتكذيبهم بالبعث ، إلى جانب ذلك تعداد نعم الله على الإنسان (كالنبات والماء والحرث والنار) ، ثم يتلى القسم بجواب (إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ، لا يمسه إلاّ المُطَهّرون )(3) وتستمر الآيات بعد ذلك لتؤكد حقيقة البعث والجزاء ، وأن الذى جاء في هذه السورة أو في القرآن كُلّه لهو حق ، " إنّ هذا لهو الحق المُبينُ ، فسبّحْ باسم رَبّكَ العظيم "(4)

والذى يستوقفنا هنا ، هو المقسم به عندما يكون داخلا ضمن الموضوع المراد تأكيده ، (فمواقع النجوم ) «مساقطها ومغاربها ... وله تعالى في ذلك من الدليل على عظيم القدرة والحكمة ما لا يحيط به الوصف»(5) ، والمعنى أنه لما أورد في الآيات السابقة ما يدل على البعث والجزاء وفناء الدّنيا وإنعامه على عباده ، أمر بإحداث التّسبيح (فسبّح باسم ربك العظيم ) وهو أنْ يقول الانسان (سبحان الله ) «إمّا تنزيها له عمّا يقول الظالمون الّذين يَجْحَدُون وحدانيته ويكفرون نعمته ، وإما تعجبا من أمرهم في غمط آلائه وأياديه الظاهرة ، وإما شكرا لله

---

1ـ سورة الواقعة / 75 .

2ـ سورة الواقعة / 74 .

3ـ سورة الواقعة / 77 ـ 79 .

4ـ سورة الواقعة / 95 ـ 96 .

5ـ الكشاف م 4/ 58 .

على النّعم التي عدها وَنبّه إليها »(1)، والقسم بمواقع النجوم ووصفه بالعظمة يتناسب مع كل ما سَبَق ، إذ هو داخل في نعم الله المذكورة ودالّ على عظمة الخالق ومضخم أمر تلك النّعم في نظر المتأمل البصير، كما يتناسب مع ما يتلوه وهو وصف القرآن بأنه كريم «أي نَفّاعٌ جَمٌّ الفوائد »(2)

ومن البراهين الداخلية أيضا : الملابسات والظروف المحيطة بالموضوع وهي إما أن تكون سابقة أو مصاحبة أو لاحقة له ، من ذلك مثلا الأساليب القسمية التي وردت في صور تعبيرية تتحدث عن الأقوام السّابقة وتذكر أحوالهم مع أنبيائهم ، وتتدرج في ذلك تدرجا ترتبط فيه الأسباب بالمسببات ليُفْضِيَ إلى نتيجة حتمية غالبا ما تكون صورة عقابية جزاء التكذيب والجحود ، تؤكد فيها الحادثة بأسلوب قسميّ مقتصر فيه على جواب القسم المصدر (بلقد) أو (إنّ) غير مصرح فيه بالصدر، ولقد رأينا من هذا الصنف عدة أساليب ، ولا بأس من التمثيل لذلك في هذا المقام :

فمن الأساليب القسمية التي تكون سابقة الموضوع مؤكدة أحداثه قوله تعالى : "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال: يقوم أعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره ، أفلا تتّقون . . ."(2) فكذب به قومه واستنكروا ما طلبه منهم ، ووصفوه بالجنون وهموا بقتله ، فدعا الله أن يصيبهم بعذاب ، فكان وعد الله حقا ، فأصابهم الغرق فهلكوا أجمعين ، وتنتهي هذه الصّورة التعبيرية بقوله تعالى "ثم أنشأنا من بعدهم قَرْناً آخرين "(3) دليل على أنهم أهلكوا جميعا .

والذى يمكن ملاحظته هو أنّ محور الصورة التعبيرية هنا هو المقسم عليه "ولقد أرسلنا"، إذ إبتدأ الحدث برسالة الرسول ودعوته قومه إلى الإيمان ،

---

1- الكشاف م 4/ 58 . 2- الكشاف م 4/ 59

3- سورة المؤمنون/ 23 .

4- سورة المؤمنون/ 31 .

وانتهى بالهلاك الذى سببه العصيان والكفر ومحاداة الرسول ، ومثل هذا كثير في القرآن الكريم ، بحيث يصدر الخطاب بـ (لقد) ثم تتتابع الأحداث بعده دالة على العصيان والتمرد ، ومذكرة بنعم الله على الإنسان ثم تنتهي بإنزال العقاب بالمكذبين ، فتشخص الصورة أمام المخاطب وتأخذه من جميع الجوانب وهو يرى ربط الأسباب بالمسببات في أسلوب قائم على التدرج والاستدلال فيحمله على الإقناع والتصديق بما يسمع .

ومن الأساليب القسمية التي تكون تابعة الموضوع قوله تعالى:

«الذى جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وأرعوا أنعامكم إنّ في ذلك لآيات لأولى النهى»[1]، حيث ابتدات الصورة التعبيرية بتعداد نعم الله على الإنسان وأنّه سخر له ما في الأرض ليتنفع به ، وتنتهي تلك الصورة بأسلوب توكيدى (إن في ذلك لآيات لأولي النهى) أي أنّ العاقل المتبصر في ما أنعم الله به عليه؛ وفي هذا الكون العظيم المنظم ، لا يملك إلاّ أن يؤمن بالله فاطر السّموات والأرض وما بينهما ، وأن جواب القسم هنا جزء من الموضوع الّذى هو نعم الله ، فهذه النّعم كلها آيات تدل على عظمة الخالق لدى العاقل المتبصر .

ومن الأساليب القسمية المصاحبة الموضوع : ما نجده في سورة النحل من تلك المقسمات عليها: (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون)[2] و (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون)[3]، و (إن في ذلك لآية لقوم يذكرون)[4]،

حيث وردت هذه المقسمات عليها جزءًا مكملا ومؤكداً لما ورد في الصّورة التعبيرية من تعداد آلاء الله ونعمه التّي أخذت جزءًا كبيرا من السورة ، واسم الإشارة (ذلك)

---

1- سورة طه / 53 - 54 .

2- سورة النحل / 11 .

3- سورة النحل / 12 .

4- سورة النحل / 13 .

في كُلِّ مَرة يشير إلى هذه النعم إشارة تعظيم وتفخيم تدعو العاقل الى النظر إليها مرة نظرة تفكر ، ومرة نظرة تعقل، وثالثة نظرة تذكر، وهذه النعم تتعدد و تتنوع لتشمل كل شيء ، السماء ، والأرض، والحيوان والنبات ، والليل ، والنهار، والشمس والقمر والنجوم ... هكذا تغدو الأساليب القسمية (المقسم عليه) جزءا من الموضوع المراد تأكيده ، ألا وهو الإيمان بجميع متطلباته إذ هو الموضوع الأساسي الذي يهدف إليه القرآن ، وإن لم يذكر صراحة ، قد ذكر ما يدل عليه وهو تعداد تلك النعم الدالة عليه .

أما الطريقة الثانية وهي طريقة التأثيرات المبنية على إثارة العواطف والإحساسات كما سبق ، فيمكن أن نصنف ضمنها أغلب الأساليب القسمية التي يكون فيها جواب القسم هو الأساس الذي تتفرع عنه الصورة التعبيرية لترسم أموراً مغيبة غير واقعة تحت الحس والمشاهدة، فتنقلها إلى السامع وتشخصها له حتى كأنه يراها تتحرك أمامه ، ويكون الاعتماد فيها على التأثير النفسي وإثارة الشعور وتحريك العواطف ، وغالباً ما يكون هذا الصِّنف من القسم مرفوقاً في السياق القرآني بما يمهد له أو يتبعه ليضفي عليه ظلالا وصورا تزيده عمقاً وتأثيرا ،كما هي الحال في تصوير مشاهد القيامة وما يتعلق منها بالوعد والوعيد ، من ذلك قوله تعالى:

"أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ، وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتَبَيَّنَ لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال " (1)

فهذه صورة تعبيرية ترسم حال الكافرين يوم القيامة وقد رأوا العذاب بأعينهم، فيندمون على ما فرطوا فيه من الطاعة في الحياة الدنيا ( فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ) ، ولكن لا سبيل الى الرجوع إلى الحياة الدنيا ، وقد كانوا فيها وكفروا بالبعث وأقسموا أنهم لا يزولون بالموت والفناء ، وساروا سيرة من قبلهم في الظلم والفساد، ولم يعتبروا بما جاءهم

---

1 ـ سورة إبراهيم / 44 ـ 45 .

من أخبار، ولا بما ضرب لهم من الأمثال ، ولم يعلموا أنّ الله عليم بكل شيء ومجز على كل شيء (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لِتَزُولَ منه الجبال فلا تحسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وعدِهِ رُسُلَه إنَّ اللَّه عزيز ذو انتقام يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسَّمواتُ وبرزوا لِلَّه الواحد القهار) 1.

فماذا يكون جزاء قسمهم حينئذ ؟ «وترى المجرمين يومئذٍ مُقَرَّنِينَ في الأصفاد، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار» 1 ، إنّها صورة منقولة من عالم الغيب إلى عالم الحِسّ والمشاهد تملأ الإحساس والشعور، وتجعل المخيلة تتصور كُلَّ أنواع البشاعة والهَوان التّي تلحق بأولئك المجرمين ، وذلك من خلال تصور المخاطب تلك الدلّالات التي تُوحِي بها كلمات : ( مقرنين ، الأصفاد ، سرابيل ، قطران ، تغشى وجوههم النار ) :

- مقرنين : مقرونة أيديهم إلى أرجلهم أو مقرونين مع بعضهم أو مع الشياطين في قيود ، ماهي هذه القيود ؟ وما نوعها ؟ كيف هي ؟!

- مطلية جلودهم بالقطران : والقطران معروف لدى العرب إذ تطلى به الإبل الجرب «ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النّار وقد يُستسرج به ، وهو أسود اللَّوْن منتن الرّيح فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسَّرابيل وهي القمص لتجمع عليهم أربع : لذع القطران وحرقته ، وإسراع النّار في جلودهم ، واللّون الوحش ، ونتن الريح » (2)

- تغشى وجوههم النار : والوجه أشرف وأعز موضع في ظاهر البدن ، وفي ذلك دلالة على الإهانة وسُوء العذاب ،

و محور التركيب القسمي هنا ما تفرع و ترتب على المقسم عليه وهو التكذيب بالبعث و الجزاء أي عدم الإيمان ... كما نلاحظ هنا أن صورة العقاب قد سبقت

---

1- السورة إبراهيم 46-50.
2- الكشاف م 2/ 385 .

بما يمهد لها وهو تكذيب الرسل وعدم الاعتبار بالأخبار والأمثال المضروبة ، لتكون أبلغ إثـــارة وأقـــوى دليلاً وأشد رَدْعـــاً وزجـرًا للكافرين الذين كذبـــوا محمدًا ( ص ) .

وما يمكن استخلاصه هو أن الأساليب القسمية بما تحمله من دلالات في السياقات القرآنية الواردة فيها ، تتداخل فيما بينها حيث لا يمكن الفصل التام بين الصورة القسمية القائمة على البرهان والاستدلال، والأخرى القائمة على التأثير والانفعال .

بناءً على ما سبق نستطيع أن نقول: إنَّ الأساليب القرآنية المتنوعة ومنها القسم، قد خاطبت العقل والروح معًا، خاطبت العقل فدفعته إلى التدبر والتأمل في كل ما يحيط به ، وخاطبت الروح لإثارة الشعور والإحساس ، وإيقاظ الوجدان وبهذا حققت الإقناع في أكمل صوره ، هذا الإقناع الذى جعل الإرادة تستجيب لما تسمع فتؤمن ، وذلك لأنَّ الإقناع المنطقي يسلب العقل حريته وليس له على القلب أو على الروح أدنى سلطان ، ومن أجل ذلك فإن إرادة المرء تستمر في معارضتها القوية العنيدة حتى مع الاستسلام الكامل من جانب العقل ، وعلى العكس من ذلك، الإقناع عن طريق القلب فإنه يجرد الروح تجريدًا لا شعوريا من كلّ أنواع المعارضة حتى ولو لم يصل الإقناع المنطقي إلى نفس الدرجة التي وصل إليها الإقناع القلبي ، إن سلطة الإقناع المنطقي تعتبر سلطة ظاهريـــة مكشوفة ، وأما سلطة الإقناع القلبي فإنها تتسرب بعمق في كل ثنايا النفس الداخلية وتستغل كل الوسائل الممكنة لكي تصل الى الاستمالة والإغراء والتأثير ، فالأولى تسيطر على العقل قوة سلبية ، والثانية تكتسب فتأسر ، فتؤثر في كلّ إمكانيات الروح الإيجابية ثم في الخيال وفي الإحساس ، ثم بواسطة هذين العاملين المهمين تستطيع أن تستحث الإرادة *(1) .

---

1 ـ نظرية الأنواع الأدبية ص : 384 ـ 385 .

قلت: إنّ القرآن خاطب الجانبين معًا ، العقل والروح ، وذلك أن الإيمان مبني على الاعتقاد ، والاعتقاد قوامه الفطرة الإنسانية بجميع قواها العقلية والروحية ، لذلك عمدت الأساليب القرآنية ومنها أساليب القسم إلى «لمس البداهة وإيقـــاظ الإحساس لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة ويتخطاهما إلى الوجدان وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة والحوادث المنظورة أو المشاهد المُشَخَّصة والمصائر المصورة كما كانت مادته هي الحقائق البديهية الخالدة التي تتفتح لها البصيرة المستنيـرة وتدركها الفطرة المستقيمة»[1].

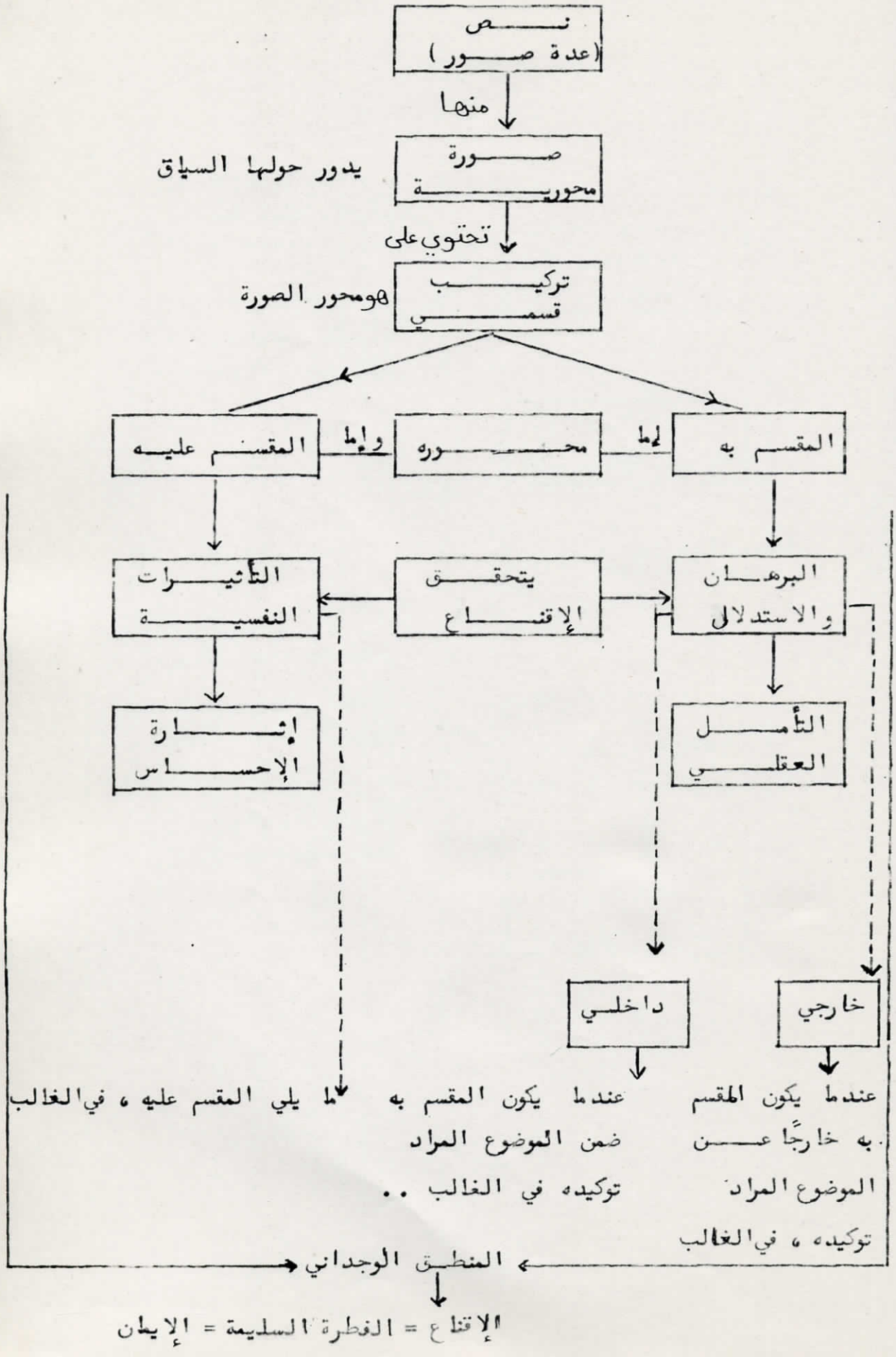
وذلك أن الاقناع في الأساليب القرآنية أساسه المنطق الوجداني الذى يخاطـــب الكينونة البشرية برمتها .

ويمكننا أن نوضح ما سبق بوساطة المخطط التالي :

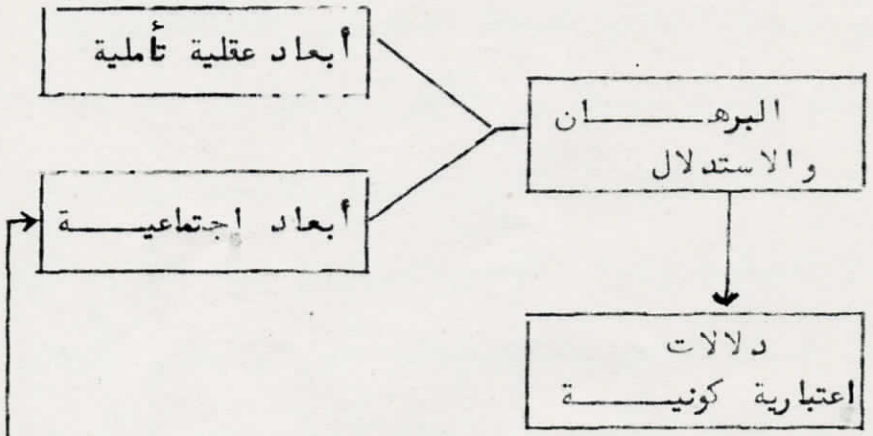
---

1ـ التصوير الفني في القرآن : ص : 229 .

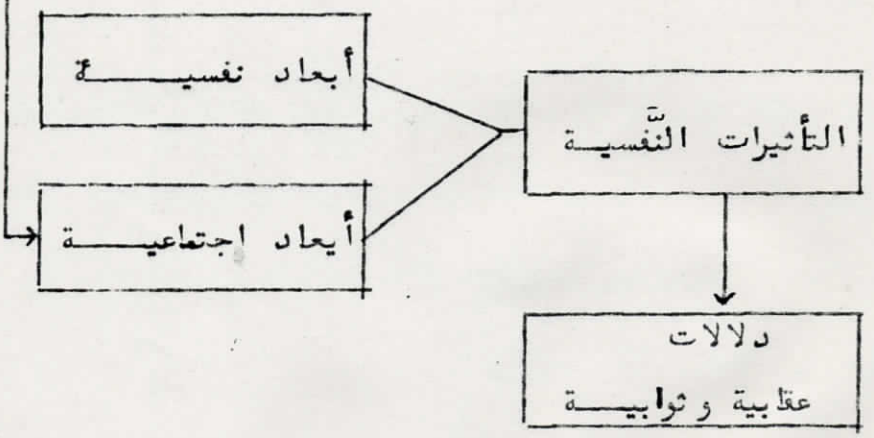
المخطـــــط رقم 9 :



المخطـــــط الفرعي : أ




المخطط الفرعي ب :



لقد رأينا في هذا الفصل الأسلوب القسمي، عندما يكون محورَ الصورة التعبيرية في القرآن الكريم، سواء كان في ذلك سابقا أو مسبوقا أو متوسطا السّياق الكلامي، ووظيفته في الحالات الثلاث تحقيق عملية الإقناع لدى السامع، عن طريق البراهين العقلية أو التأثيرات النّفسية.

إنّ المناهج الدّلالية أصبحت تنظر إلى النّص اللّغوي باعتباره وحدة متكاملة الجوانب، تعبر عن فكرة أو مجموعة من الأفكار، ويتكون من وحدات قابلة للتحليل اللّغوي، هي الجمل أو التّراكيب اللّغوية المفيدة، تتجسد فيها المعاني النّحوية ومعاني الألفاظ الأساسية وجمال الأسلوب، وتؤثر هذه التراكيب في بعضها البعض فيكسبها السياق الكلامي دلالات إضافية تفهم من خلال النّص، والموقف الّذي يجري فيه الخطاب، وأحوال السّامعين، وهذا ما رأيناه عند الدّارسين العرب القدماء ومنهم عبد القاهر الجرجاني الذي لا زالت نظريته في النظم تحتاج الى من يطورها ويرسي معالمها، لتصبح منهجا لغويًا عربيا أصيلا في مواجهة المناهج اللغوية الغربية.

كيف يمكننا تصور، اتجاه لغويّ يجمع بين الأصالة اللّغوية على غرار ما نعل القدماء، وبين المناهج اللّغوية الحديثة، بحيث ينظر منه إلى النّص اللّغوي باعتباره وحدة متكاملة، يُدرس عبر مستويات ثلاثة: نحوي، ودلالي، وصوتي ؟

هذا ما نتناوله في الفصل الرّابع.

# الفصل الرابع

## من أصالة الاتجاه اللّغوي

## إلى حداثة المنهج

## جهود بعض المدارس اللّسانية المعاصرة :

اتجهت الدراسات اللغوية الحديثة ، حتى نهاية القرن الماضي الى الجانب التاريخي للغات وتطورها والمقارنة بينها ، وذلك إبتداءً من إعلان السيروليم جونز آراءه عن اللغة السنسكريتية عام 1786 ، وساد منهج المقارنة بين اللغات بصفة خاصة لدى المدرسة الألمانية (1) .

ومع بداية القرن الحالي ، ظهر المنهج الوصفي على يد فردينان دى سوسير* ومن أهم أعماله كتابه (محاضرات في علم اللغة العام) ، ولقد أقام منهجه على أساسين هما : البعد الداخلي للألسنية ، والبعد الخارجي لها .

« فالأول يعتمد على النظام الداخلي للغة ، في حين يرتبط الثاني بتاريخ الشعب المنتفع بها وبحضارته وبأدبه وبالأبعاد الجغرافية السياسية الخاصة به »(2)

والبعد الأول عنده عرف بالدراسة الآنية أو الوصفية المصطلح عليها بالدراسة (السّانكرونية) ، والبعد الثاني هو ما يسمى بالدّراسة التاريخية أي (الدياكرونيه) والجدير بالذكر أن دى سوسير أراد أن يقيم الدراسات اللّغوية على منهج علمي واضح ، ليخرج بها عن النظرة التّاريخية والمقارنة التي كانت سائدة من قبل .

ولقد كان متأثراً في ذلك بمنهج العالم الاجتماعي الذى كان معاصرا له ، وهو (أميل دوركايم) ، الّذى إعتنى بدراسة الظواهر الاجتماعية .

ومن هنا انطلقت نظرة دى سوسير إلى اللغة من ثلاثة مصطلحات رئيسية هي كلام الفرد (LAPAROLE) واللّغة (LeLANGAGE) بمفهومها العامّ ، واللغة

---

1ـ النحو العربي والدرس الحديث د . عبده الراجحي ط/ 1979 دار النهضة العربية بيروت : ص : 29 ومناهج البحث في اللغة ص : 35 .

*ـ ولد فردينان دى سوسير في 1857/11/17 من أصل فرنسي ومات 1913 (الألسنيّة علم اللغة الحديث) ص : 223 .

2ـ الالسنية علم اللغة الحديث ص : 225 .

المعينة ( LALANGUE )؛ المصطلح الأول ( كلام الفرد ) فهو ليس واقعة اجتماعية لأنه يصدر عن وعي وأنه خاصّ ، على حين الظّواهر الاجتماعية ينبغي أن تكون عامة. وأما المصطلح الثاني (اللغة بمفهومها العامّ ) فهي مجموع الكلام الفردي ، وليست اجتماعية أيضاً لأنها تتضمن العوامل الفردية المنسوبة إلى المتكلمين الأفراد ، وبالتالي فإنّ ما يصلح للدراسة فهو اللغة المعينة ، وهي عنده مَا يُعبّر عن العادات التي تتعلمها في المجتمع اللغوي ، والّتي على أساسها نتّصل بالآخرين في المجتمع، ويكون بيننا الفهم المتبادل ، ومن هُنَا قَدَّر أن اللغة ينبغي أنْ تدرس في حالة استقرارها في بيئة مكانية ، وزمانية محددة ، واتخذ لذلك مصطلح السّانكرونية للدلالة على هذا المنهج المعروف بالمنهج الوصفي ، فهو يشبه دراسة اللغة بدراسة النبات ، حين يُعتمد فيها على شريحة مقطوعة قطعًا أفقيًا ، وأخرى مقطوعة قطعًا عموديا ، حيث يمكن ملاحظة الخلايا والألياف والحلقات عبر القطع الأفقي بسبب وضوح مكانها على السّطح ، وفحصها لا يقتضي أن نعرف شيئا عن تاريخها ، ومن هنا كان اعتماده على الدّراسة الوصفية الآنية للغة ، عوض الدراسة التاريخية لها ، واعتمد على فكرة (العلامة اللغوية ) باعتبارها ( شيئا مُحَدَّدًا ) ورأى بأنّ اللغة نظام من العلامات ، ( إنّ العلامة اللّسانية لا تربط شيئا باسم، بل تصوّرًا بصورة سمعية ... إنّ الصّورة السمعية هي حسية وإذا ما دعوناها (مادية) ، فإنّما تكون في هذا المعنى فَضْلاً عن مقابلتها مع التّصور الذى هو العبارة الأخرى للتّرابط الأكثر تجريدًا بشكل عام ، وعندما نلاحظ لساننا الخَاصّ فإنّ الصّورة النفسية لصورنا السمعية تبدو جيدًا ، إذ بوسعنا أن نتحدث إلى أنفسنا ... إننا نقترح الاحتفاظ بكلمة علامة للدلالة على الكل ، وتبديل كلمتي تصور، وصورة سمعية بكلمتي المدلول والدال على التوالي ... »(1)

---

1 ــ محاضرات في الالسنية العامة فرديناند دى سوسير ص : 88 ــ 89 .

وأما ليونارد بلومفيلد* ، فقد فَسَّر الظواهر اللغوية تفسيرًا سلوكيا ، ولقد شرح منهجه في كتابه ( اللغة ) الذى عده الأمريكيون ( إنجيل علم اللغة الأمريكي ) إلى فترات قريبة ، ويتمثل منهجه في بحث (الحدث الكلامي) من الوجهة السلوكية ، رافضاً طريقة التناول العقلية القديمة ، فالخطوة الأولى في دراسة اللّغة هي أن نعتبرها صورة من السّلوك (الجسماني) .

وكما يمكن فهم هذا السّلوك من خلال الظروف البسيطة التي تكتنفه فكذلك يكون فهم الحدث الكلامي مبنيا على قاعدة ( المثير والاستجابة) :

فالمثير أو الحافز هو الأحداث السّابقة لعملية التكلم ، والاستجابة هي عملية التكلم نفسها (1) ، وتلك نظرة آلية إلى اللغة ، وهذه النّظرة « ترى أن أعمال الإنسان ومن ضمنها عملية التكلم اللّغوية ، تخضع للحافز وللإجابة له ، تذهب هذه النّظرية إلى أبعد من ذلك ، إذ تقول بأن الإنسان عادة ، يستجيب للحوافز نفسها على النمط نفسه ... والإنسان في هذا المجال شبيه بالحيوان ، إذ يعتبر تكلمه بمثابة استجابة مباشرة للحافز ، كما تعتبر اللغة كناية عن سلسلة من الاستجابات للحافز أو للمثير (2) » .

فالمدرسة السلوكية إذن اعتبرت اللغة وعملية التكلم سلوكاً أساسه مثير واستجابة ، وكادت تهمل دراسة المعنى ، بل أجلتها إلى حين تقدم الدراسات اللغوية « إنّ تقدير المعاني هو أضعف نقطة في دراسة اللغة ، وسوف تبقى هكذا حتى تتقدم المعرفة الإنسانية إلى أبعد من حالتها الراهنة » (3) .

---

* ـ ولد 1887 تخصص في اللغة الالمانية ، أصدر أول كتاب له سنة 1914 ( مدخل الى اللغة ) تأثر بالمدرسة السلوكية في علم النفس ، واتّخذها أساسًا لبناء اتجاهه اللغوى مات سنة 1949 .

1ـ النحو العربي والدرس الحديث ص : 37 ، والألسنية علم اللغة الحديث ص 231 .

2ـ الألسنية علم اللغة الحديث ص : 235 .

3ـ النحو العربي والدرس الحديث ص : 41 نقلا عن كتاب (اللغة) لبلومفيلد ص : 140 .

ولقد بدأت الثورة على المنهج الوصفي عموما ،والمنهج السلوكي خصوصا، عندما أصدر نوام تشومسكي* كتابه الأول (المباني التركيبية) سنة 1957 (1)، ورأى بأن المدرسة الوصفية والمدرسة السلوكية لا تقدمان إلا الأنماط الشكلية ، وأن فكرة استقلالية الدّرس اللغوى وعلميته «لا تقدم شيئا يتصل بالإنسان باعتباره إنسانا ، وإنما تسعى تحت سيطرة الفكرة العلمية إلى الوصف الآني خشية السقوط في التأويلات الميتافيزيقية» (2).

لا بأس أن نعرض هنا المبادئ التي أقام عليها نوام تشومسكي منهجه اللغوى، لقد ثار نوام تشومسكي على المنهج الوصفي وخاصة السلوكي منه ،الذى اعتبر اللغة سلوكا كلاميا قائما على المثيرات الدّاخلية وعلى الاستجابات الخارجية ، فكل نطق لغوى عند أصحاب المدرسة السلوكية هو استجابة لمثير لغوى أو غير لغوى ، وأضعف نقطة يراها تشومسكي في المنهج السلوكي هي اعتباره السلوك الخارجي للإنسان أساسا للتحليل اللّساني بغض النّظر عن العمليات الذّهنية الداخلية ( من قدرة وغريزة وفطرة ) ، هذه القدرة الداخلية «مختصة بالفصيلة الإنسانية وحدها ...

ومن هنا فقد أراد تشومسكي من التحليل اللساني أن يشرح اللغة ويعللها من الداخل وليس من الخارج» (3) ، لذلك فإنّ الاتجاه الذى أخذ به هو اتجاه ذهني ، وعرفت نظريته الذهنية هذه بنظرية القواعد التوليدية التحويلية (ق. ت.ت)

وتقوم على أساسين هما : أ- الكفاية اللغوية والأداء الكلامي: فالكفاية اللّغوية هي المعرفة الضمنية لمتكلم اللّغة المثالي بقواعد لغته ، والأداء الكلامي هو طريقة استعمال المتكلم الكفاية اللغوية بهدف التواصل في ظروف التكلم الآنية .

---

*- ولد في 7/ 12/ 1918 ، درس اللغة والرياضة والفلسفة في جامعة بنسلفانيا أشتغل بالسياسة ، وكان ضدّ سياسة الولايات المتحدة في حرب الفيتنام، وألف في ذلك ، اختص في اللغة العبرية ونال فيها شهادة الماجستير .

1- النحو العربي والدرس الحديث ص : 109 .

2- المرجع السابق ص : 112 .

3- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث مدخل د . مازن الوعر ط1/ 1988 دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر سوريا ص 115

إنَّ الأداء أو السَّطح يعكس ما يجرى في العمق من عمليات لغويـــة ، أي يعكس الكفاءة اللغوية ، وعلى هذا الأساس فإنَّ (بنية السَّطح) تقدم لنا التفسير الصَّوتي للغة ما ، أما الكفاية أي (بنية العمق) فتقدم لنا التفسير الدلالي .

ب ـ الكليـات اللغوية :

يكتسب الطفل مادته اللغـوية من لغة كلية محددة، فيقتصر عمله علـــى تحديد لغته من ضمن مجموعة اللّغات المحتملة أي من ضمن ما يمكن تسميته ( باللغـة الكلية ) ، التي تخضع لها قواعد اللّغات عامة ، كما أنَّ هذه القواعد تحتوى علـــى الشروط الواجب توافرها في صياغة قواعد اللّغات وعلى المبادئ الَّتي تحدد كيفيـــة تفسير قوانينها و تعرف هذه القواعد ( بالقواعد الكلية ) .

وجملة القول: إنَّ اهتمام تشومسكي باللّسانيات بشكل عام يتمثل في :

ـ تحويل المنهج اللساني من منهج سلوكي إلى منهج ذهني عقلي .

ـ جعل الهدف من النظرية اللّسانية هدفًا تعليليًا أكثر من كونه هدفًا وصفيـــا تقريريًّـا .

ـ تركيزه على الاستنباط والاستنتاج أكثر من تركيزه على الاستقراء التجريبي* وذلك إنطلاقًا من إعتبار اللّغة أداة للخلق (اللامتناهي) وأنَّ التحليل اللّغوى، ليس لِما كَانَ قد قاله المتكلمون، وإنَّما هو شرح و تعليل للعمليات الذهنية الَّتي من خلالها يمكـن للإنسان أنْ يتكلم جُمَلاً جديدة وغريبة عن مسمعه ، لذلك كانت أهم المبادئ الَّتِـي ركزت عليها اللّسانيات التوليدية التحويلية هي :

---

* ـ يقتضي الاستنباط الانطلاق من المقدمات المنطقية الأولية الَّتي إختبرت صحتهـــا للوصول إلى النتائج الحاصلة بناءعلى الأنموذج المختار لتوضيح القوانين أو القواعد الضمنية الَّتي تسمح لمتكلم اللّغة أن ينتج عمله، ويُعتمد الاستنتاج للتأكيد من صحة القضايا التي يستطيع الأنموذج تفسيرها، أمّا الاستقراء فينطلق من تعميم القضايا الملحوظة وتطبيقها على القضايا التي لم تخضع للدراسة..

1ـ الذهنية وليس السلوكية .

2ـ الشرح والتعليل وليس الوصف .

3ـ الاستنباط والاستنتاج وليس الاستقراء والتجريب (1) .

ليس الهدف من ذكر المدارس الغربية الثالث (المدرسة الوصفية، و السلوكية ، والمدرسة الذهنية ) هو دراسة هذه المدارس بالتفصيل والوقوف على خصائص كل واحدة منها ، وإنما خصصتها بنظرة إجمالية لمعرفة مدى ما وصلت إليه الدراسات اللغوية الحديثة في المغرب .

تعتبر المدرسة الذهنية التي أسسها نوام تشومسكي، أحدث المدارس اللغوية الغربية ، كما أنها تقترب كثيرًا من منهج الدراسات اللغوية القديمة عند العرب ، وخاصة منهج عبد القاهر الجرجاني ، الذى اعتبر النحو لُبّ الدّراسات اللغوية ، وذلك أنّ المدرسة الذّهنية اعتمدت مبدأ القواعد ، وتعني كلمة قواعد؛ النّحو والصّرف والنّظام الصّوتي ، والنّظام الدّلالي ، وهذه القواعد وسيلة لتوليد جميع الجمل الصحيحة في لغة معينة ، فالجملة الأساسية* هي الوحدة اللّغوية الرّئيسة عند أصحاب النّظرية الذّهنيّة أي (القواعد التوليدية والتحويلية ) ، وأما الجمل الفرعية الأخرى فهي ناتجة في نطاق مفهوم الجملة الأساسية ، لا بُدّ من الإشارة إلى مفهومي التوليد والتحويل عند تشومسكي ؛ لقد رأى تشومسكي أنّ هناك كثيرًا من الجمل تحمل معاني مختلفة لا يميز الشكل الخارجي بينها ، وهذا ما دعاه إلى أن يقرر أنّ لكل مبنى ظاهريّ أو خارجي مبنى باطنيًا عقليًا ، فالتركيب اللغوى الأساسي عنده له بنيتان: بنية سطحية ظاهرة، وبنية عميقة مختفية ، ولا بُدّ من وجود العلاقة بين البنيتين، فالبنية السّطحية تخضع لنظام اللّغة من نحو وصرف ، وتعكس من النّاحية الدلالية

---

1ـ للتعريف بمنهج تشومسكي وأصول نظريته، رجعت إلى الألسنية (علم اللغة الحديث ) ص : 260 وما بعدها، والنحو العربي والدرس الحديث ص : 109 وما بعدها وقضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث ص : 85 وما بعدها .

*- سيأتي قريبًا بيان الجملة الأساسية عند أصحاب هذه النّظرية .

الأفكار الكامنة في ذهن المتكلم صاحب اللّغة ، فالألفاظ وما تحمله من دلالات لا يمكنها أن تكوّن بنية عميقة إلا إذا صيغت وفق النّظام النّحوي والصّوتي المعبّر عنه بالبنية السطحية ، فالنحو عند تشومسكي هو القواعد الّتي على أساسها تكون جملة ما مقبولة لدى صاحب اللّغة ، فالجملة النّحوية عنده هي أن تتوافق البنية السطحية مع البنية العميقة .

إنّ القواعد النحوية التي تسمح لمتكلم اللغة بإنتاج وتوليد عدد غير متناه من التّراكيب والجمل ، يعرف في النّظرية الذهنية بالقواعد التوليدية ، فالقواعد التوليدية هي الّتي تسمح لمتكلم اللغة بتأليف جمل صحيحة يقبلها منطق اللغة وسائر من يتكلمون هذه اللّغة ، ولا رابط يحدد ما هو مقبول أو غير مقبول لغويا سوى ما يسميه تشومسكي (بالحدس) .

فما هو الحدس اللغوي إذن ؟

إن متكلم اللغة الذى يتمتع بكفاية لغوية وقدرة على الأداء الكلامي ، يجد نفسه بإزاء مجموعة من الأفكار لا بُدَّ من تنظيمها وترتيبها حسب درجة أهميتها قبل أن تظهر في أداء كلاميّ على السّطح ، هذا من جهة ،كما أنّه يَجِدُ نفسه أمام مجموعة من الألفاظ مرتبة مسبقا عن طريق الوضع والاصطلاح بدلالاتها المعجمية من جهة ثانية ، ثم أنّ تفاعل الأفكار والتّصورات مع الألفاظ المعبّرة عنها في ذهن المتكلم لا بُدَّ أنْ يتمّ وفق تنظيم لغوي تظهر فيه «مقدرة المتكلم على أنْ يُدْلِي بمعلومات حول مجموعة من الكلمات المتعاقبة من حيث هي تؤلف جملة صحيحة في اللغة أو جملة غير منحرفة عن قواعد اللغة»(1) ، فهذه المقدرة هي الّتي تسمى الحدس اللغوى الخاص بمتكلم اللغة ، الّذى يتيح للباحث اللّغوى استنباط القوانين اللّغوية الّتي على ضوئها يستطيع المتكلم توليد الجمل المقبولة نحويا .

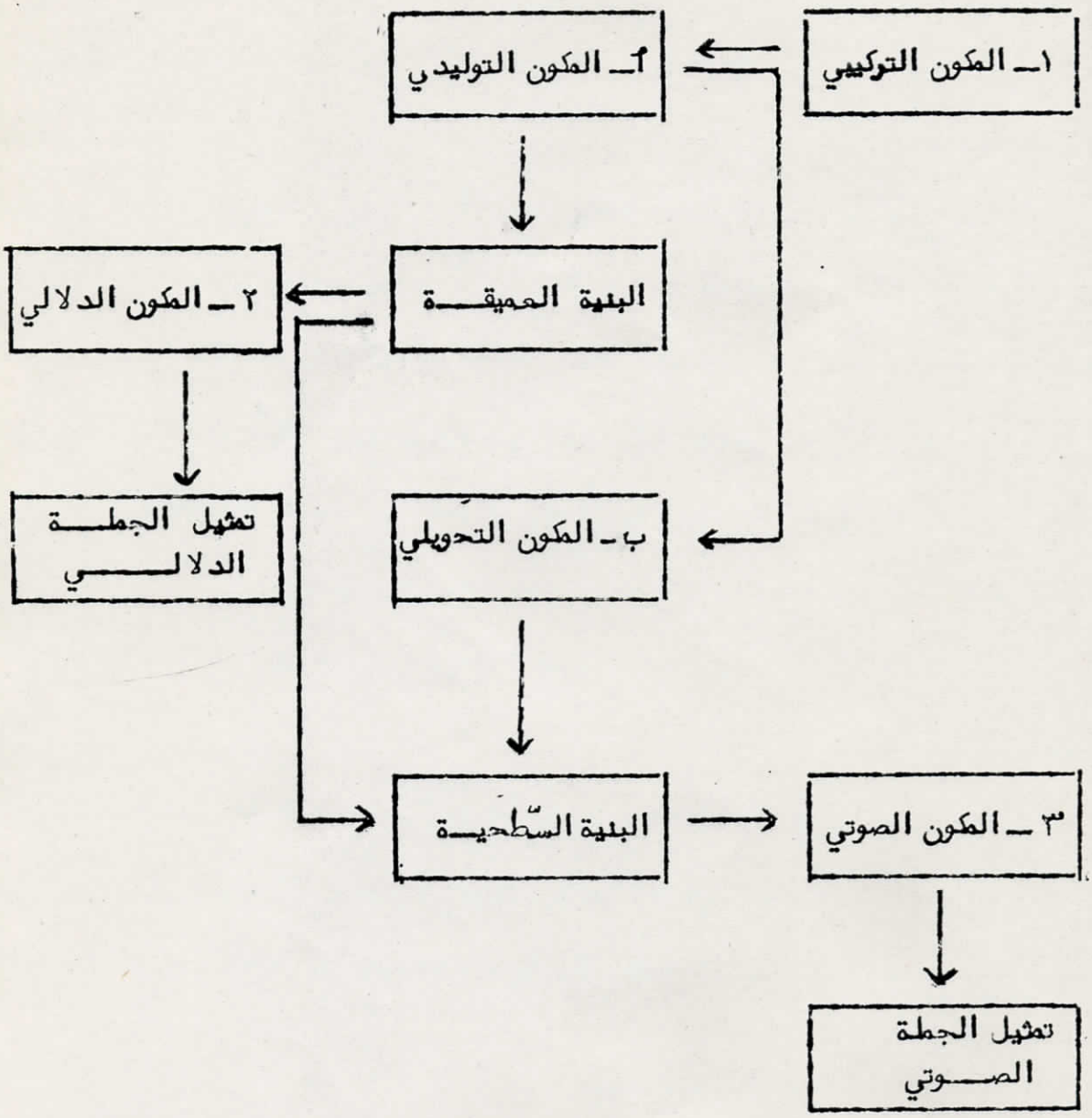
1ـ الألسنية علم اللغة الحديث ص : 157 .

وعلى هذا فإنّ القواعد التوليدية تضبط التّركيب اللّغويّ من النّاحية الدّاخِلية وفق ما يسمى بالحدس اللغوى كما سبق .

وهذا الضّبط الدّاخِلي ، هو ما يُعرف بالبنية الدّاخلية أو العميقة لأنها قائمة أساسًا في ذهن المتكلم ، وعند تطبيق القواعد اللغوية السابقة ( أى النظام النحوى والصّوتي ) تتحوّل البنية العميقة إلى السّطح في تركيب لغوي ظاهري ، وحينئذ تسمى تلك القواعد الصّرفية والنّحوية المعنوية بالقواعد التحويلية .

فالعلاقة وطيدة بين البنيتين : السّطحية والعميقة ، إذ الأولى انعكاس للثانية . ولا يمكن الفصل بينهما ، فالأولى تعبر عن الشكل باعتباره أصواتا ملفوظة ، والثانية تعبر عن الفكر باعتباره مجموعة من المعاني والتّصورات، لأنه لا يمكن لها أن تظهر إلا في أشكال تركيبية سطحية ، ومن هنا فالعلاقة وطيدة أيضا بين مجموعة القواعد التحويلية ومجموعة القواعد التوليدية ، فالأولى مرتبطة بالبنية السّطحية والثانية مرتبطة بالبنية العميقة ، ومن هنا جاءت التسمية العامة لمنهج تشومسكي في أحدث مراحله ( نظرية القواعد التوليدية التحويلية ) ، والشكل العام له كما يلي :

المخطط رقم : 10*




---

* نقل هذا المخطط من كتابين هما : « نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية » للدكتور مازن الوعر، ص: 66 و« الألسنية علم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام » للدكتور ميشال زكريا ص: 215، مع إجراء بعض التعديلات عليه..

إنَّ المخطط السَّابق يبرز المنهج الجديد لنظرية القواعد التوليدية والتحويلية ، ويتبين منه أنَّ العملية النحوية المعبرة عن الفكرة أو المعنى، لتنتقل من عالم الذهن المجرد، إلى عالم الظاهر المحسوس (أي من البنية العميقة إلى البنية السَّطحية ) لا بُدَّ لها من المرور عبر ثلاثة مكوّنات :

«هذه المكونات الثلاثة ، هي التي تشكل أصول اللغة وتربط بين الأصوات والمعاني وتكون متلاحقة :

1ـ المكون التركيبي : يتألف هذا المكون من : أ ـ المكون التوليدي الَّذي يحتوى على مجموعة قواعد بناء [1] و(قواعد إعادة كتابة ) ، [2] وعلى معجم يشتمل على المداخل المعجمية ، ويحتوي كلّ مدخل معجمي على سمات تركيبية وصوتية ودلالية ، تولِّد قواعد التكوين (مشيرًا ركنيا) [3] يتعلق بكل جملة وتستبدل رموزه النّهائية بالمداخل المعجمية (المورفامات ) ويتم الحصول هكذا على الجملة في البنية العميقة ، ويخضع هذا الاستبدال لضوابط محددة ، تبعًا لسمات المداخل المعجمية .

ب ـ المكون التحويلي : يحتوى على مجموعة التحويلات التي يبدل كل منها مشيرًا ركنيا بمشير ركني آخر .

2ـ المكون الدلالي : يقوم بتخصيص معنى لكل تركيب، انطلاقا من الدلالة الفردية للكلمات، ويتناول التَّراكيب الَّتي يولِّدها المكون التركيبي ويخص كُلاًّ منها بتمثيل دلالي .

3ـ المكون الصوتي : يقوم بتخصيص كُلِّ تركيب لغوى بنطق خاص ، ويفسر الأصوات انطلاقا من الكلمات ». [4]

---

1ـ قاعدة البناء تمثل الشكل النَّحوي الذي يحكم الجملة (العملية الإسنادية ) هكذا:

ج ← أداة + إسناد .

2ـ قواعد إعادة كتابة : تمثل سلسلة من العمليات تقوم على تفريع عناصر قاعدة البناء إلى وحدات أصغر مثل : تفريع الإسناد إلى (مسند ومسند إليه وفضلة) ثم التعويض عن تلك الوحدات بوساطة (مورفامات) إلى أنْ يتم توليد الجمل .

3ـ المشير الركني : هو المخطط المشجر الذي يحتوى على المؤلفات المباشرة للجملة، بحيث يشير رأس المشجر إلى الجملة، وأسفله إلى المورفامات ، وتشير كل عقدة فيه إلى مؤلف مباشر من مؤلفات الجملة ...

4ـ الألسنية علم اللغة الحديث ص: 212و213و214 بتصرّف

وإذا كانَ المكون التَّوليدى هو المسؤول عن توليد الجمل الأساسية في اللُّغة التي يشترط فيها أن تكون :*

1ـ بسيطة .

2ـ تامة .

3ـ صريحة .

4ـ معلومة .

5ـ مثبتة إيجابية .

فإنَّ المكون التحويلي من خصائصه أنْ ينقل الكلام الأساسي إلى كلام مشتق بوساطة نقل جملة إلى جملة مع إجراء بعض التَّعديلات على التَّراكيب اللغوية وحينئذ يوصف الكلام المشتق بما يناقض الصفات الخمس السَّابقة أي بأنه :

1ـ معطوف، 2 ـ غير تامّ، 3ـ معقد، 4 ـ استفهام، 5 ـ نفي أو نهي .

فالتَّحويل إذن يساعد على إبراز الجملة في شكلها الظاهرى السَّطْحِيّ ،كما يكشف عن المعاني الضّمنية لها .

هذا عن المكون التركيبي بشقيه : التوليدى والتحويلي، أما المكونان الآخران (الدلالي والصَّوتي )، فإنَّهُمَا تفسيريَّان : الأول يفسر المعاني، والثاني يفسر الأصوات كما يبق .

بعد هذه النظرة المجملة الَّتي كان لاَبُدَّ منها تَبَيَّنَ لنا أن المدارس اللُّغَوية الحديثة ، كانت ثورة على المدرسة التقليدية التي إعتمدت على القاعدة المعيارية الَّتي تهدف إلى اتباع أنماط معينة من الاستعمالات اللغوية وفق الأصول الموضوعة ، و ( القواعد التوليدية ) تسعى إلى توليد كل الجمل الصحيحة والمحتملة الصياغة دون سواها من الجمل الأخرى .

والملاحظ أنَّ المدرسة الذهنية هذه لم تدخل في حساباتها المعنى في مرحلتها الأولى ، كما أن المدرسة الوصفية لم تنطلق أيضا من المعنى وعلاقته بالفكر،

---

* ـ أخذت صفات الكلام الأساسيّ والمشتق من كتاب (قضايا أساسيّة في علم اللّسانيّات الحديث) ص: 143، 144 .

والمدرسة التوليدية أيضا انطلقت من صياغة القاعدة أولا ثم سعى أصحابها إلى إدخال المعاني لكونها عنصرًا أساسيا في تحليلهم اللّغوى ، وأدركوا أنّه لا ينبغي إهمال المعنى من أجل الوصول إلى نظرية لغوية متكاملة تشمل جميع الجوانب ، فالمدرسة الذهنية إذن إعتمدت على عقل الإنسان في توليد التّراكيب اللغوية ، وهي تسعى جاهدة للوصول إلى الكيفية الّتي عن طريقها ينتج الفكر الإنساني اللغة وفق قواعد معينة يتحكم فيها ويضبطها الحدس اللّغوى ، فالحدس اللّغوى هو محل دراسة عالم اللّغة وعالم النّفس من أجل الوصول إلى صوغ نظرية لغوية شاملة، تستطيع أنْ تفسر البنية الدّماغية الخاصة بإنتاج اللّغة لدى الإنسان، وإنطلقت من تصوّر الضّوابط الّتي تضبط التركيب الكلامي محاولة الوصول إلى البنية العميقة عن طريق ما أسمته بالقواعد التّوليدية والقواعد التحويلية ، وذلك بتغيير أو إستبدال بعض العناصر في التركيب ببعض ، للوصول بذلك إلى البنية العميقة عن طريق التوليد ، وتمثيلها على السّطح عن طريق التحويل ، ومبدأ التوليد الذى إعتمدته قائم على آلية مطلقة ، وهذه الآلية قابلة لتوليد عدد غير متناه من التّراكيب حتّى التراكيب غير المقبولة نحويا ، هذا ما أدّى بأصحاب هذه النّظرية إلى تحديدها ، وجعل التّوليد خاصًا فقط بالتّراكيب المقبولة نحويًا ودلاليًا دون غيرها .

ولعلّ السّبب في ذلك هو إنطلاق هذه المدرسة من مستوى التركيب اللّغوى ولم تنطلق من مستوى الدلالة .

كما أن مبدأ التوليد عندها يسمح بإنتاج جمل تبتعد عن المعنى الجوهرى ، ومن هنا يَتَبَيَّنُ أنّ المدرسة الذّهنية لا تنطلق من العلاقة بين الفكر واللغة ، هذه العلاقة التي لا تسمح بتوليد جمل تنفصل عن المعنى الجوهري وتبتعد عنه .

---

* ـ مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة لـ كاترين فوك وبيارلي قوفيك ، تعريب ، د . منصف عاشور ط/ 1984 ديوان المطبوعات الجامعية ، ص : 75 .

كما أنّها ابتعدت عن المعيارية ولم تأخذ بمبدأ المفاضلة مثلا بين تركيب و تركيب ، أو بين معنى و معنى ، فهي لم تراع النّواحي البلاغية و الأسلوبية ، بل اعتمدت منهجا عمليا رياضيا قائما على الدقة و الضبط .

ولعل عذر أصحاب هذه المدرسة يكمن في أن نشوءها حديثا قد رافق إزدهار المناهج العلمية الحديثة و تقدم العلم وظهور العقول الالكترونية ، و تطور وسائل الاتصال ، و استعمالها في شتى المجالات إستعمالا مكثفاً ، لذلك فهي تسعى إلى إيجاد الضوابط الكلية للغات التي تنتظم فيها جميع التراكيب اللّغوية في جميع اللغات البشرية من أجل الوصول إلى تفسير البنية اللّغوية في الدّماغ البشرى ، من جهة ، و إلى (كمبتة*) اللّغة لمسايرة تقدم العلم في هذا العصر من جهة ثانية ، وهذا ما جعلها تسقط الجوانب البلاغية و الأسلوبية للتراكيب ، خاصة عندما يتعلق الأمر بلغة كاللّغة العربية ، التّي لم تشهد التّطور نفسه الّذى شهدته اللّغة اليونانية مثلا ، فاللغة العربية منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرناً ، وجد فيها كتاب شامل هو القرآن الكريم الذى حفظ لها عددًا لا يُحْصَى من الأنماط التّعبيرية الرفيعة ، و مخزوناً هَامًّا من المعاني المختلفة ، و بذلك منع انقسامها إلى عدّة لغات من جهة ، كما منع من تجريدها من سماتها الجمالية و البلاغية من جهة ثانية ، و هذا لا يَعْنِي أنّ اللّغة العربية بقيت إلى الآن على حالها التي كانت عليها عند نزول القرآن الكريم ، فلا أحد يستطيع أن ينكر أن اللغة قد شهدت أنواعاً من التّطور على مستويات : التّراكيب و الدلالات و الأصوات ، كما لا أحد يستطيع أن يثبت أن هذه التطورات موازية كما أو نوعًا ما شهدته اللّغات الغربية مثلا .

وعلى هذا فإن الدرسات اللغوية الغربية الحديثة تَخَلَّصت من عنصر المعيارية القائم على المفاضلة بين الأساليب و الدّلالات ، و اعتمدت في (عملية توليد التراكيب ) على عنصر القياس فقط في صياغة الجمل المقبولة نحويًا و دلاليا ، مع ما يطرأ على الدّلالات من تطور .

---

* إخضاعها إلى الدّقة العلمية ، وفق الطّريقة التي يسير عليها العقل الإلكتروني (الكمبيوتر) .

والقياس* عنصر هام عند الدارسين العرب القدماء أيضا ، غير أنهم جعلوه بابا لتعلم اللّغة وإلحاق من لا يفهم بلاغة العرب بالطبع والسّليقة بأهل هذه اللّغة فيتسنّى له الوقوف على خصائص أساليبها اللّغوية والبلاغية ، وكأنّ القياس عندهم باب لتذوق الفصيح من كلام العرب والتمييز بين أساليبهم ، وإنْ كانت في مستوى واحد من الصّحة اللّغوية ، أي أنّه باب إلى المعيارية .

بعض الجهود اللّغوية العربية القديمة :

يمكننا تقسيم الدراسات اللّغوية العربية القديمة إلى قسمين كبيرين هما :

1ـ الدراسات النحوية والصرفية .

2ـ الدّراسات اللغوية والبلاغية .

1ـ ظهرت الدّراسات النحوية والصرفية في عمل متكامل هو كتاب سيبويه ، تلقّاه الدّارسون الذين جاؤوا بعده بكلّ إهتمام وعناية ، تقصى فيه صاحبه الأساليب اللغوية العربية ونبّه على أوجه استعمالاتها وخصائصها ، وتحدث عن العناصر الأساسية التي تتألف منها الجملة العربية (المسند والمسند إليه والفضلة) ، وسار النحاة بعده في هذا الاتجاه الذى هو وسيلة عند سيبويه وليس غاية ، غير أنهم توقّفوا كثيرًا عند حدود الجملة وقضية الإسناد ، وقضية العامل ، ممّا تحول معه النحو العربي عند الكثير منهم إلى غاية في حدّ ذاته ، وليس وسيلة إلى فهم النصّ العربي كما كان عند سيبويه .

وربّما استحوذ على الأفكار أحيانا مبدأ الغلبة والتنافس مما أدى إلى إختلاف الأمثلة واصطياد الشواذ ومحاولة قياسها على كلام العرب ، وتحمل التأويلات

---

* ـ "فلو لم يجز القياس واقتصر على ما ورد في النّقل من الاستعمال ، لبقي كثير من المعاني لا يمكن التعبير عنه لعدم النقل" السيوطي النحوى د . عدنان محمد سلمان ط1/ 1976 دار الرسالة بغداد ص : 281 ، ولئن كان النّحاة العرب قد أجازوا القياس ، فإنّ البلاغيين والنقاد لم يتقبلوا بسهولة معاني وأساليب المولدين بعد عصر الاحتجاج اللغوى .

لها أحياناً*، وهكذا أصبحت الدراسات النحوية عند البعض غاية لذاتها ، وليس وسيلة لفهم التراكيب و النصوص و الوقوف على جوانبها البلاغية (الدلالية و الاسلوبية) .

و بهذا تكون الدّراسات النحوية قد انطلقت من النّص العربي عامة و القرآني خاصة ، أي من (الكل) ، و اتجهت إلى التركيب اللغوى أو الجملة ، أي إلى (الجزء) ليُتوقّف عندهُ طويلاً .

2ـ الدّراسات البلاغية و اللغوية : انطلقت هي الأخرى من النص العربي عامة و القرآني خاصة ، و يُعَدّ (الكتاب) لسيبويه رائداً في هذا المجال أيضاً ، و لعلّ أبرز من يمثل هذا الجانب من الدراسات في نظري على الأقل ، الجاحظ ، وعبد القاهر الجرجاني و الزمخشري** في البلاغة ،

و ابن جني و ابن هشام*** في النحو و اللغة ،

فقد كان اهتمام هؤلاء جميعًا بالنّص اللّغوى و الأساليب اللّغوية المنتظمة في السّياق الكلامي ، لذلك دَرَسُوا أساليب اللّغة من حيث جمالياتها الأسلوبية و دلالاتها اللّغوية بالنّظر إلى ما يسبقها أو يليها في السّياق .

و لقد كنا نجد في التراكيب اللّغوية ما يراه النّحويّون زائداً كبعضِ الحُروف مثلاً و ذلك إنطلاقاً من تصوّرهم القائم على عملية الإسناد ،

أمّا اللّغويون و البلاغيون و من سار على منوالهم ، فقد راحو يُعَلِّلُونَ هذه الزّوائد بالوقوف على وظائفها الدّلالية و الجمالية ، كما أنّهم لم يَنْسَوْا الملابسات و الظروف

---

* ـ من ذلك مثلا : المسألة الزّنبورية المشهورة بين سيبويه و الكسائي و بعض أمثلة النّحاة "هذا جحر ضبّ خرب" و "لا تأكل السمك و تشرب اللّبن" ، عن المسألة يُنظر كتاب (المدارس النحوية) د . شوقي ضيف ط3/ 1972 دار المعارف بمصر ص : 58 .

وعن الأمثلة كتاب ( آثار الشيخ البشير الإبراهيمي) ط1/ 1978 الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ج 1/ 270 ـ 273 .

** ـ أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة 538 هـ .

*** ـ أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المتوفي سنة 708 هـ .

المحيطة بالموقف الكلامي وما يقتضيه حال السامعين ، لذلك قالوا "لكل مقام مقال" وهذه الأشياء مجتمعة هي ما عُبِّر عنها حديثًا (بنظرية السياق) *.

وجملة القول : إن الدّراسات اللّغوية عند الدّارسين العرب قد أولت المعنى اهتماماً كبيراً ، وأبقت على العلاقة القائمة بين اللغة والفكر ، انطلاقا من البحث في الدلالات اللغوية للألفاظ ثم الدّراسات البلاغية .

لعل الجهود الّتي بذلها عبد القاهر الجرجاني في مجال الدّراسات اللّغوية والبلاغية ، جديرة بكلّ عناية واهتمام ، إذ إنّه حاول أن يعود بالنحو العربي إلى الهدف الّذي أنشئ من أجله ، والكامن وراء الضّوابط السّطحية للتراكيب اللّغوية ، والهادف إلى تفهم الدّلالات العميقة الّتي تتضمنها التّراكيب .

والحقيقة أن النّحويين العرب الأوائل وعلى رأسهم سيبويه** كان اهتمامهم دائما متجها إلى المعنى أي (البنية العميقة) وهم يدرسون التراكيب اللّغوية العربية ، ولَعَلَّ المصطلحات الّتي استعملوها في الإعراب ما هي إلا مؤشرات تلفت الذّهن إلى المعنى المراد ، من ذلك مثلا ( التقدير والوجوب والجواز والاستتار...) كما أن قواعد الحذف ، والزيادة ، والتقديم والتأخير ، تتجه إلى كشف النقاب عن المعنى ( أي البنية العميقة) ، ومن ثم فإنّ القواعد التحويلية الّتي جاء بها المنهج الغربي الحديث ، لها ما يماثلها في النّحو العربي .

---

* ـ وقد سبق الحديث عنها بالفصل الثالث تحت عنوان « أهمية السّياق في تحديد الدّلالة »

** ـ وأستاذه الخليل ، فقد رحل كل منهما إلى البادية من أجل إلتقاط اللغة من أفواه أصحابها والوقوف على الاستعمالات الصّحيحة لها ، واقتفى أثرهم الكوفيون ، كانوا ينظرون إلى النّص ، بوصفه وحدة كلية تجمع بين الألفاظ ودلالاتها وسياقاتها وبين الجوانب الجمالية في الأسلوب ، ينظر كتاب (النحو العربي دراسة نصية) د . صابر بكر أبو السعود ط/ 1988 دار الثقافة القاهرة ص: 131 ـ 132 .

وتمثل (المعيارية) عنصرًا أساسيًا في الدّراسة عند سيبويه لأنّها أساس المفاضلة بين الأساليب من الناحية الدّلالية، هذه المفاضلة الّتي على أساسها تتحدّد درجة الأسلوب اللّغوي، من الحُسْن أو القبح، يقول سيبويه عن الكلام "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأمّا المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسآتيك غدًا، وأما المحال فأنْ تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدًا وسآتيك أمسِ، وأما المستقيم الكذب، فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر، ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأنْ تضع اللّفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدًا رأيتُ، وكي زيدًا يأتيكَ، وأشباه ذلك، وأما المحال الكذب، فأنْ تقول: سوف أشرب ماء البحر أمسِ"(1).

يتضح من كلام سيبويه أنّ النّحْو العربي في بدايته كان مهتما بالمعنى الّذي يفيده التركيب اللّغوي أي (بالبنية العميقة)، ولا تكفي الصّياغة الظاهرة للتركيب إذا جاءت موافقة لعناصر التركيب العربيّ المتمثلة في العملية الإسنادية، فنظام (التوليد) في النّحو العربي ارتبط منذ البداية بالبنية العميقة، وذلك أنّ اللغة عندهم مرتبطة أساسًا بالفكر، والنحو منظم البنية العميقة (المعنى) وفق أنماط تركيبية متعارف عليها عند أهل اللّغة، ولا عبرة في نظام نحوي لم يُراعَ فيه جانب المعنى، أمّا نظام التّوليد في المدرسة الغربية الحديثة (مدرسة تشومسكي)، فيعتبر النحو جهازًا آليا قادرًا على توليد كلّ الجمل النّحوية وغير النّحوية.

وعلى هذا الأساس، نرى أنّ الكلام عند سيبويه لإفادته معنى يحسن السّكوت عنده، لا تكفي صياغته وفق مقتضيات العملية الإسنادية فقط، بل لا بُدّ من مراعاة المعنى المستفاد، فهناك:

1ـ المحال: ما تناقض طرفاه، ولم يستقم معناه فاستحال تحقيقه.

2ـ المحال الكذب: ما تناقض طرفاه أيضا، وخالف الحقيقة فاستحال تحقيقه.

3ـ المستقيم الكذب: ما خلا من التناقض، وخالف الحقيقة فاستحال تحقيقه.

---

1ـ الكتاب ج 1/ 25-26

4ـ المستقيم الحسن و المستقيم القبيح : الأول أرفع درجة من الثاني ، فأساس التقويم هنا (معياري) إذن .

و الاتجاه الذي رسمه الجرجاني (عبد القاهر) ، يجمع بين اللّغة (الدلالة) و النحو و البلاغة * منطلقاً من العناصر الأساسية للتركيب اللّغوي (عملية الإسناد) ليدرس النّص اللّغوي ، دراسة متكاملة من جوانبه الثلاثة (النحو و الدلالة و البلاغة) و هذا الاتجاه يتجلى عنده من خلال القضايا النحوية و ربطها بالدّلالة و البلاغة ، عندما يتناول الكثير من الأمثلة بالدّراسة .

و لقد مَرَّ بنا في الفصل السّابق مفهوم النحو عنده ، كما تكررت عنده أيضا لفظة (تصوير) ، و مفاد الصّورة ، هو الفكرة أو مجموعة من الأفكار معبّر عنها بتركيب أو تراكيب لغوية تتآلف فيها المعاني الأساسية للألفاظ مع المعاني النحوية مع الأصوات في أسلوب جميل ، و لقد تردّد ذكره الصّورة الكلامية في مواضع شتّى و بأوصاف مختلفة منها (الرسم ، و النقش ، و النسج ، و الألوان ...) لتحقيق ما يسميه (بالنّظم) و ما النظم عنده إلاّ التآلف و الانسجام التّامّان بين الألفاظ و المعاني في تراكيب ذات نمط بلاغي رفيع ، ليكون التّعبير عن المعاني في مستوى الحقيقة الراسخة في نفس المتكلم ، و الّتي يريد أن ينقلها إلى السّامع ، فالمعنى لا بُدَّ أنْ يُصَوَّر في صُورة حسية ذات ألوان و ظلال ، و هذه الجوانب مجتمعة ينبغي أن تنتظم جميع التّراكيب المكونة الصّورة التعبيرية أو الفنية ، وكذا جميع الصّور المكونة النّص المعبّر عن موضوع واحدٍ ، و بهذا ، فإنّ الألفاظ و دلالاتها ، و المعاني النّحوية ، و جماليات

---

* ـ يقول الدكتور فتحي أحمد عامر : « و بذلك يكون أول عالم أخرج النحو من نطاق شكليته و جفافه ، و سما به فوق الخلافات و التّحلات حول الإعراب و البناء ، و بعث فيه دفء اللّذة الشعورية و العقلية معًا ، و أخضعه لفكرة النّظم ، و أخضع فكرة النظم إليه ... و ذلك هو الإعجاز الذى أذاب فيه الرجل عصارة أيامه و لياليه » عن كتاب (من قضايا التراث العربي) : دراسة نصية نقدية تحليلية مقارنة ... د . فتحى أحمد عامر . منشأة المعارف الاسكندرية ص : 195 .

الأسلوب كلّ لا يتجزأ ، ينبغي أنْ تكون في خدمة النّص اللّغوي ، وهذا هو النظم الّذي يتفاوت فيه النّاس ، وأرقى درجات النّظم هو ما نجده في القرآن الكريم لفظا ودلالة و أسلوبًا ، وهو أساس الإعجاز القرآني .

## اتّجاه لغوي عربي حديث

الآن يمكننا أن نتساءل : ما الاتّجاه الذي يمكن الاعتماد عليه في دراسة الأساليب اللّغوية ومنها القسم ؟

هل هو المنهج الغربي الحديث ؟ أو الاتجاه العربيّ القديم ( النّحوي أو البلاغي ) ؟

لا شك في أنّ عصرنا هذا بمختلف خصائصه العلمية والتقنية يجعلنا لا نتغاضى عن المناهج الحديثة في مجال الدّراسات اللّغوية ، في المقابل نجد أنفسنا أمام لغة ( لغتنا العربية ) لها خصوصيتها كسائر اللّغات وتتمتع بقدرة اشتقاقية كبيرة تجعل المتكلم قادرًا على توليد العديد من التّراكيب والجمل الّتي تدور حول المعنى المقصود بدرجات متفاوتة حسنًا ، وقبحا ، أو رداءة ، وجودة ، وهذا الجانب هو موضوع البلاغة العربية بشقيها ( الدّلالي والأسلوبي ) أي أنّه ( معياري ) ، ولا يفهم من هذا أنّه دعوة إلى الإلمام بألفاظ اللّغة أو اللّجوء إلى التّعابير التقليدية واستعمال الصّيغ الجاهزة ، فلم يكن هذا من البلاغة في أيّ عصر من العصور ، ذلك أنّ البلاغة من معانيها بلوغ القصد والإبانة عن المعاني المتوخاة ، وهذا يتأتى بطرق مختلفة ومتفاوتة ، يتحكم فيها السّياق بمفهومه الواسع ، وَما يُرافق التراكيب من نبر وتنغيم ، وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير ، وحذف وإثبات فكل هذه تعمل على بيان البنية العميقة للكلام ، وعلى هذا الأساس لا يمكننا إسقاط الجوانب البلاغية الّتي بها يتم التفاضل بين الكلام ، والدّعوة إلى إسقاطها من شأنها أنْ تسوّي الأسلوب القرآني لأيّ أسلوب آخر وبالتالي تؤدي إلى إنكار كلّ ما ألفه القدماء في مجال الإعجاز ، ولا يستطيع أحد أن ينكر ما وصلنا بالأخبار المتواترة عن وقوف العرب عاجزين أمام الأسلوب القرآني* هذا الإعجاز

* كقصة الوليد بن المغيرة عند سماعة القرآن الكريم ( الإتقان في علوم القرآن ) ج2/ 117 .

الذي لا يتمثل في الناحية الأسلوبية الجمالية وحسب ، بل أيضا في المعاني والأفكار التي جاء بها القرآن الكريم * .

إن الجهود التي بذلها الدارسون العرب في مجال الدراسات اللغوية والبلاغية والنحوية ، وخاصة عبد القاهر الجرجاني ، تجعلهم يقتربون أكثر مما وصلت إليه المدارس اللغوية الحديثة " ولقد كان عبد القاهر سليم الذوق ، حين قام تيار اللفظية أشد مقاومة وقال بأن الألفاظ خدم للمعاني ، واهتدى في العلوم اللغوية الى مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية فذّة ، منقطعة النظير ، وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك (دلائل الإعجاز) ، هذا المذهب هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا لأيامنا هذه ، هو مذهب العالم السويسري الثبت فردينان دى سوسير»(1)

ولقد رأينا من قبل ، (بلومفيلد) ، يعتمد في دراسته المعنى على السلوك المبني على الإثارة ورد الفعل ، وهو بذلك يحاول" التخلص من آراء العقليين الذين يعتمدون في دراساتهم على عد الفكرة أو الصورة الذهنية للشيء أو إدراكها ، أساسا في تعريف المعنى وتوضيحه»(2) ، ورأينا أن (فيرث) يبعد الارتباطات العقلية والذهنية عن المعنى ، كما مرّ معنا في بداية الفصل الثالث . .

كما أن الدارسين الغربيين الذين تناولوا نظرية تشومسكي وجدوا أنه ركز كثيرًا على اللغة (الإعراب) على حساب الدلالة لذلك عمدوا إلى تعديلها ، واهتموا بما أسموه (نحو الحالة) للتركيز على الدور (السيمانتي) للكلمات في الجمل ، الذى يعد حاسما في فهم وحفظ مادة اللغة وفي (نحو الحالة) ، جميع المفردات المنتظمة في التراكيب اللغوية حسب طبيعة الإسناد ، تقوم بأدوار (سيمانتية) مختلفة في الجمل ، وإن البنية العميقة للجملة تتألف من مفاهيم مرتبطة (سيمانتيا) ، تحدد أحكاما معينة يصدرها

---

* ـ لقد سبق بالفصل الثالث ، تحليل عدة نماذج قرآنية على ضوء الصورة التعبيرية عند عبد القاهر .

1ـ من قضايا التراث العربي ص: 207 .

2ـ دراسات في علم اللغة ص : 171 .

الأشخاص على الوقائع التي تدور حولهم ، "وعند التعرض بواقعة ما فإن المفترض أننا ندركها في ضوء من قام بها (الوسيط أو الفاعل) ومن وقعت عليه (العميل) ، وما وقعت عليه (الشيء أو المفعول به)"(1) ، و بذلك يقتربون كثيرًا من عبد القاهر*.

بناء على ما سبق ، يبدو لي أن المنهج الذي أخذ عبد القاهر ، أكثر نضجا ، لأنه قائم على العلاقة بين الفكر واللغة ، ولا ينكر ما يضفيه السياق على الالفاظ من دلالات زيادة على دلالاتها المعجمية ، كما أنه يولي النحو عناية فائقة في ضبط التراكيب ، ولذلك يمكن أن نتصور الأسس التي أقام عليها نظريته في النظم كما يلي : أ ـ ترتيب المعاني في الذهن .

ب ـ إتباعها الالفاظ المناسبة .

جـ ـ صياغتها في تراكيب لغوية وفق المعاني النحوية (المخطط رقم 8) .

وعليه فإن الاتجاه الذي يمكن تصوره ، أرى أنه يقوم على الأسس التالية :

1ـ اعتماد نظرية النظم عند عبد القاهر، كما رأينا .

2ـ الاستفادة من الدراسات اللغوية الحديثة وخاصة (منهج القواعد التوليدية التحويلية) لقربه من المناهج النحوية العربية القديمة من جهة ولاعتماده على الضبط المنهجي الحديث من جهة ثانية .

3ـ مراعاة السياق بمعناه الواسع ومقتضى حال المتكلمين .

الخطوات المتبعة :

استنادًا إلى المعطيات السابقة ، يمكننا أن نتصور هذه الخطوات على الشكل التالي :

1ـ النص اللغوي : هو مجموعة من الأفكار تتجانس وتتكامل فيما بينها مكونة موضوعًا واحدًا ، يمكن أن ينظر إلى النص على أساس تكوينه من عدة صور تعبيرية كل صورة تمثل فكرة من أفكار النص ، منها صورة محورية تستقطب بقية صور النص

---

1ـ سيكولوجية التعلم ص : 535 ـ 536 .

*ـ وذلك من خلال النصوص التي أوردناها له .

قد تكون في أول النص أو وسطه أو آخره .

2ـ الصورة التعبيرية : هي تركيب لغوي فأكثر، ولها محور عليه مدار الاهتمام .

3ـ التركيب اللغوي : هو أقل ما يمكن أن يتتابع من الألفاظ في سلسلة كلامية ، يكون قابلا للتحليل إلى وحدات أصغر، وهذا ما يمكن تسميته بالجملة البسيطة الممثلة بعملية إسنادية بسيطة ( مسند إليه ومسند وفضلة) أو (مسند ومسند إليه وفضلة) و يشترط أن تفيد معنى يحسن السكوت عنده ،

ويكون أحد عناصر التركيب اللغوي محورا ،والغالب أن يكون الركن المحوري في صدر التركيب ، يقول ابن خلدون« فمن قال:(جاءني زيد) أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند إليه ، ومن قال:(زيد جاءني)أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند» (1)، كما أن عملية الإسناد قد تتعدد في التركيب اللغوي الواحد .

4ـ الألفاظ : هي وحدات صوتية ودلالية تتآلف في التركيب اللغوي لتعطي معاني سياقية زيادة على معانيها الأساسية .

فالنص اللغوي إذن مكون من سلاسل كلامية تتآلف فيها الأصوات والكلمات والتراكيب ، ويؤثر بعضها في بعض ، وبهذا تكون وحدة متكاملة الأجزاء مترابطة المعاني .

ولتسهيل الدراسة يمكن تقسيم النص إلى عدد من الصور التعبيرية وتدرس كل صورة عبر مستويات ثلاثة (2) .

أـ المستوى التركيبي النحوي

بـ المستوى الدلالي البلاغي .

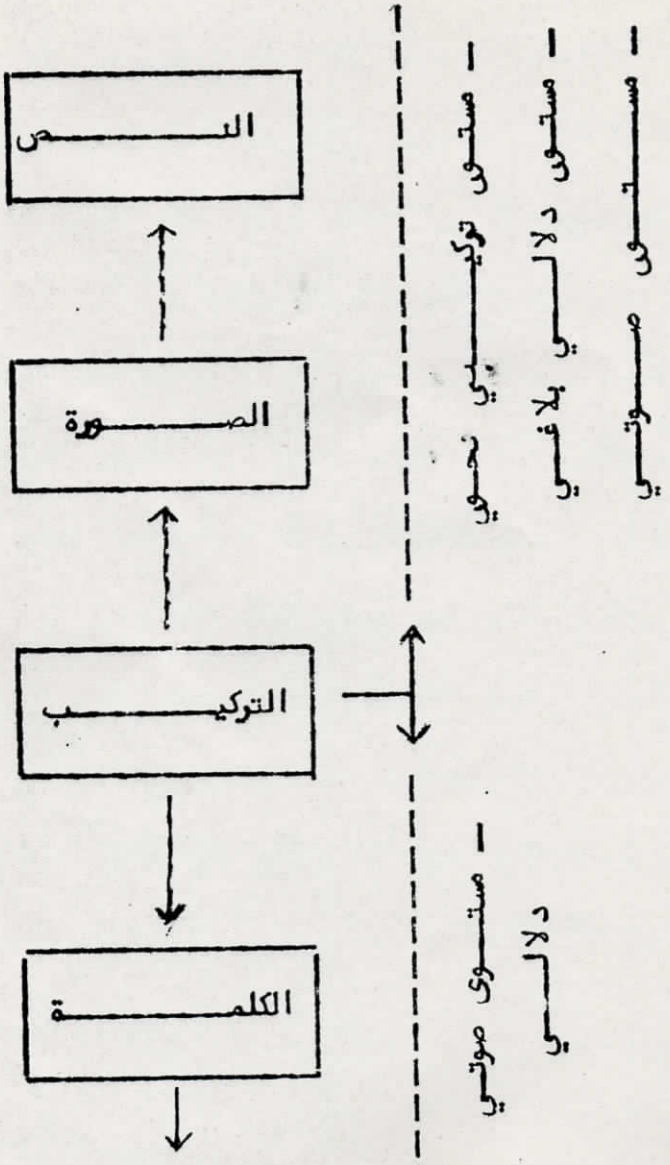
جـ المستوى الصوتي ( ينظر المخطط رقم :11) بالصفحة الموالية..

---

1ـ المقدمة ص : 413 .

2ـ وذلك حسب مشروع الدراسة الذي إقترحه د . مازن الوعر في كتابه (قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديثة) ص: 347 ، وعلى ضوئه حلل بعض الأساليب العربية في كتابه (نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الأساسية في اللغة العربية ط 1/1987 دار طلاس للدراسات دمشق .

## المُخطط رقم: ١١



وفيما يلي محاولة تحليل على ضوء الخطوات السّابقة :

قال تعالى: "والليل إذا يغشى و النهار إذا تجلى وما خلق الذّكر والأنثى إن سعيكم لشتى ، فَأَمّا من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تَرَدّى ،إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نَارًا تلظّى لا يَصْلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى وسيجنبها الأتْقَى الذي يُؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا إبتغاء وجه رَبّه الأعلى ولسوف يَرْضَى" (1) .

من الصّعب جدًا أن يفصل نص قرآني عن بقية النّصوص الاخرى إذ القرآن كله من حيث ترابط أجزائه وتكامل معانيه ، يقوم مقام النص الواحد ، ولكن لتسهيل الدراسة ، إخترت سورة منه وهي (والليل) وذلك للاعتبارات التالية :

1ـ افتتاحها بالقسم الّذي هو موضوع هذه الدراسة .

2ـ تصويرها أحوال النفس الإنسانية (إنّ سعيكم لشتى) ، ولفظ السعي يراد به العمل الّذي يهتم به صاحبه، ويجتهد فيه بحسب الإمكان، إن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع ، وإنْ كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك ، فلفظ السّعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار" (2) ،

---

1ـ سورة الليل .

2ـ التبيان في أقسام القرآن ص : 10 .

ومساعي النّاس أشتات مختلفة ، فهذه أحوال النفس البشرية لا تثبت على حال .

3 ـ جمعها لما ينبغي أن يتصف به المؤمن ، وهو الإيمان بالله واستشعار عظمة الخالق في النّفوس ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والتصديق على الفقراء ، وعدم الاعتداد بالمال والسلطان* ، وهذه في مجملها تصور أخلاق المؤمن .

لذلك يمكن عدّ هذه السّورة وحدة متكاملة الجوانب ، تتدرج تدرجًا عموديًا من الأعلى نحو الأسفل ، أي من العموم ، وهو اختلاف السّعي ، وتنوعه إلى التفصيل ، وهو ذكر نوعي هذا السعي وما يترتب عن كل نوع منه من جزاء ، وحسب هذا التدرج ، يمكن تقسيم السّورة إلى الصّور التعبيرية التالية :

1ـ الصورة الأولى : من أول السّورة إلى قوله تعالى "لشتى" وتتألف من الأسلوب القسمي بشقيه (المقسم به والمقسم عليه) ، وتعبر عن اختلاف السّعي وتعدده .

2ـ الصورة الثانية : من قوله تعالى (فأمّا من أعطى ...إلى ... إذا تردى) مكونة من ثلاثة تراكيب متعاطفة ؛ الأول والثاني شرطيين، والثالث نفي أو إستفهام، وتفصل نوعي السّعي وتبيّن النّتيجة الحتمية المترتبة عنهما.

3ـ الصورة الثالثة : من قوله تعالى : "إنّ علينا ...إلى ... والأولى" مكونة من تركيبين متعاطفين مؤكدين ، وتعبر عن أن الإرشاد إلى الحقّ واجب على الله وأن الأمر كله بيده ، ولا مفر منه .

4ـ الصورة الرابعة : من قوله تعالى : "فأنذرتكم إلى ... آخر السورة" مكونة من ثلاثة تراكيب متعاطفة ، وتعبر عن إنذار المكذبين بالبعث والجزاء ، وتوعدهم ، ووعد الأتقياء ومجازاتهم .

---

* ـ وقد ذكر السيوطي أسباب نزول هذه السورة في كتابه ( لباب النّقول في أسباب النزول ) ص : 229 ـ 230 .

تتصل هذه الصور الأربع ببعضها لترسم موضوعاً متكامل الجوانب، هو الجزاء بفرعيه و مستحقّيه ، كلّ صورة منها تعبر عن جزء يُعَدُّ امتدادًا لسابقة ، و توطئه للا حقة .

ـ فما هي الصّورة التي يمكن أن تكون هي المحور الذى تدور حوله بقية الصور ؟

نلاحظ أنه بعد التأكيد على حقيقة اختلاف السّعْي و تعدّده و تنوّعه ، ثم التأكيد على أنّ المتقي المؤمن جزاؤه الجَنّة ، و البخيل المتكبّر و المكذب جزاؤه النّار، جاء التأكيد على أن الإرشاد إلى الحق بموجب قضاء اللّه أو مقتضى حكمته ، و أنّ له ما في الدّارين (الدنيا و الآخرة ) يُعطي ما يشاء لمن يشاء من ثواب أو هداية ، و لا يضره أنْ يترك النّاس الاهتداء ، و تلي ذلك كلّه بالوعيد و الوعد كما سبق ، و هذا ما عبرت عنه ( الصّورة الثالثة) التي يمكن جعلها (محور النص) و ذلك لسببين :

1ـ إنها عبرت عن فكرة الألوهية ، و ملأت الوجدان خشوعا و رهبة ، إنّها القدرة الإلهية المسيطرة على كل شيء ، بحيث لا تترك للعنيد المكابر مَنْفَذًا إلّا سَدَّتْهُ و لا حُجّة إلا أبطلتها .

2ـ إنّها أكدت أهمّ ما ينبغي عليه الاعتقاد ، ألا و هو الإيمان بأنّ الله قادر على كل شيء و خالق كلّ شيء ، و إليه ترجع الأمور جميعا .

بعد أنْ رأينا التّصور الكامل لهذا الاتّجاه ، نقتصر الآن على دراسة صورة تعبيرية تحتوي على أسلوب قسمي باعتباره موضوع الدّراسة ، و ذلك حسب المستويات الثلاثة التي سبقت الإشارة إليها .

دراسة الصّورة التّعبيرية : و هي قوله تعالى : " و الليل إذا يغشى و النّهار إذا تَجَلّى و ما خلق الذّكر و الانثى إنّ سعيكم لشتّى " .

تحليل التركيب القسمي :

1ـ المستوى التركيبي النحوى : على ضوء منهج القواعد التّوليدية التحويلية المشار اليه في الجدول رقم : 10 ، ندرس التركيب القسمي السّابق ، مبتدئين بالمكون

التوليدي ثم المكون التحويلي ، هكـــذا :

أ ـ المكون التوليدي : من خصائص هذا المكون ، توليد عدد غير متناه من الجمل ( البسيطة و التامة و الصريحة و المعلومة و المثبتة ) ، شريطة أن تكون مقبولة لغويـــًا ونحويًا ، و بالنّسبة إلى أساليب القسم ، و مثلها أساليب الاستفهام و التّعجب و التّحذير و الإغراء ، يمكن أن تكون قد خُصِّصَتْ لها تراكيب لغوية في مرحلة نضج اللّغة و اكتمال أساليبها ، كما أنّ خصائص المكون التوليدي المذكورة قبل قليل، تنطبق على الأساليب الخبرية المضبوطة بالعلاقة الإسنادية البسيطة التّي هي الأصل لجميع التراكيب اللغوية و منها القسم ، و لقد سبق القول بأنّ تسمية شقي أسلوب القسم ( بالمقسم به و المقسم عليه ) من خصائص المرحلة الثالثة التي سبق ذكرها في الفصل الأوّل عند الحديـــث عن تطور صيغ القسم ، أي قبل اختفاء متعلّق الفعل (على و مجرورها) ، و انتقال الصّيغة من كونها خبرية إلى صيغة إنشائية تفيد القسم .

ـ فما دلالة كلّ من (الباء) و (على ) في تسمية شقي القسم ( بالمقسم به و المقسم عليه)؟ إنّ مضمون القسم هو ما أُقْسِمَ عليه ، قصد توكيده و تحقيقه، فَمُسْتَقَرّ الذّمة هو محتـــوى اليميـــن ،

فقولنا مثلا : "في ذمتي لأسافرن" يمكن تحليله على الشّكل التالي :

ـ المقسم عليه : هو السّفر الذي إنعقد عليه العزم و إستقر في الذمة و هو مضمـــون القســـم .

ـ المقسم به : هو من يستعين به المُقْسِمُ على توكيد ذلك المضمون ليحمل السامع على تصديقه و نفي الشّك عنه .

وكأن تقدير الكلام : في ذمتي (عهد أو يمين) أقسمت عليه بالله وهو (السفر)/ الّـــذي عليه جل النّحاة أنّ الباء الجارة المقسم به هي باء القسم ، غير أنّهم لم يُشيروا إلى الدلالة التي تؤدّيها في السياق القسمي .

هناك شبه كبير بين هذه الباء، والباء في البسملة ، وقد فسّروا باء البسملة على أنّها للاستعانة *، وباء الاستعانة هي الدّاخلة على الآلة الّتي يعمل بها الفعل : كتجرت بالقدوم وكتبت بالقلم ، ولا تخلو الاستعانة هنا من معنى التّسخير وَ أما في باء البسملة ، فالمستعان به أعلى وأعظم في نظر المستعين ، لذلك لجأ إليه للتبرك أو استمداد القوة منه على إنجاز ما يريد، وقريب من هذا المعنى (باء القسم ) ، الّتي تفيد : إمّا اللّجوء والاحتماء بقوة غيبية محلّ التّقديس والاحترام عند كلٍّ من المتكلم والسامع، قصد إعطاء الكلام توكيدًا وتحقيقًا يُبْعِدُانِهِ عن الطّعن فيه ... وأمّا أنّها تفيد أنّ مضمون اليمين المستقر في الذمة ، مستمد من عهد اللّه الذى هو دليل على الكمال ، وأن مخالفته تعرض المقسم إلى السوء عند الحنث فيه ، وإذا علمنا أن (الباء ومِنْ) يشتركان في معنى الاستعانة** وأن (من) من الحروف النّادرة في القسم ، أمكننا أن نقول: إنّ (الباء) تفيد الاستعانة المعنوية الصادرة من الأسفل إلى الأعلى .

أما (على) الداخلة على المقسم عليه ، فيمكن إعتبارها من قبيل (على) في قوله تعالى: "ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون" (1)، فهي للاستعلاء المعنوي (2) والاستعلاء يفيد أنّ الاسم المجرور (بعلى) قد وقع فوقه المعنى الّذى قبل (على) ، فكذلك (على) الدّاخلة على (المقسم عليه) تفيد أنّ هذا الأمر المقسم عليه قد وقع فوقه ما قبل (على) وهو المقسم به .

يمكننا أن نقرر أن المكون التوليدي الأساسي لأسلوب القسم ، يتألف من شقين هما: (المقسم به والمقسم عليه ) .

---

* ـ والاستعانة عندهم إما حقيقية كما في قولنا "كتبت بالقلم" ، وإمّا مجازية كما في البسملة وذلك للتأدّب مع اللّه ، ينظر في ذلك أوضح المسالك ج 3/ 35 .

** ـ المغني ج 1/ 356 والبرهان في علوم القرآن م 4/ 420 .

1 ـ سورة الشعراء / 14 .

2 ـ المغني ج 1/ 153 .

وانطلاقا من المكونات الأساسية للجملة العربية المتمثلة في العملية الإسنادية التي يمكن كتابتها على الشكل التالي :

ج ←ك— إس *

وقد يضاف إليها ركن آخر هو الأداة التي تمثل الاستفهام أو النفي أو الشرط فيصبح الشكل السابق كالتالي :

ج ←ك— أد + إس * *

نستطيع أن نقول : إن كلا من المقسم به والمقسم عليه ، جملة مستقلة عن الأخرى حسب طبيعة العملية الإسنادية التي تحكمها ، أما من حيث المعنى ، فإنهما جملتان متلازمتان ، بحيث لا تستطيع الجملة الأولى أن تكون أسلوبا قسميا بذاتها ، كما لا تستطيع الثانية أن تكون مؤكدة إلا بالأولى تأكيدًا قسميا ، تحقيقا (عند ذكر صدر القسم ) أو تقديرًا (عند حذفه) ، فإنهما إذن شبيهتان من جهة التلازم ، بجملتي الشرط والجزاء ، ولقد سبق أن عرفنا بأن الشرط يمين ، وعليه يمكن تسمية العلاقة الإسنادية التي تحكم أسلوب الشرط والقسم على السّواء ( بالعلاقة الإسنادية التلازمية) ، كما يمكن صياغة المكوّن التوليدي لها على الشكل التالي :

ج ←ك— أد + إس // ج ←ك— أد + إس * *

فإذا أردنا أن نولد تراكيب قسمية بناء على المكون التوليدي الأساسي السابق فإنه لا بد من اللّجوء إلى قواعد معجمية لتوليد المفردات والكلمات التالية :

---

- * ـ ج ←ك— : يشير إلى الجملة والكلام والمطابقة بينهما .

إس : يشير إلى الإسناد .

- * * ـ أد : يشير إلى الأداة .

* * * // = يشير إلى علاقة التلازم (على) المحذوفة من البنية السّطحية لأسلوب القسم ، أو (أداة الرّبط) في أسلوب الشرط ، مع العلم أنّه قد سبق بالفصل الأول تسمية العلاقة في القسم بالعلاقة التوكيدية ، وفي الشرط بالعلاقة التعليقية ، وذلك بالنظر إلى المعنى المستفاد من كلّ منهما ، أما العلاقة التلازمية هنا ، فبالنظر إلى تلازم عمليتي إسناد في كلّ منهما .

ـ (أقسم ـ حلف ـ خلق ...) من طائفة الأفعال .

ـ (الليل ، النهار ، الذكر ، الأنثى ، إختلاف السعي ...) من طائفة الأسماء

ـ ( الباء ، على ) من طائفة الحروف .

و أردنا أن نصوغ منها تراكيب قسمية ، فإنه لا بدّ من إجراء العمليات التالية :

أ ـ ترتيب المعاني في الذهن وفق درجة أهميتها .

ب ـ إتباع المعاني الألفاظ المناسبة لها، المعبرة عنها .

جـ ـ اعتماد المعاني النحوية وفق طبيعة التراكيب اللغوية .

إن هذه الخطوات الثلاث تدور حول فكرة أساسية هي فكرة القسم المنسوب إلى الله تعالى ، و أن هذه الفكرة قائمة في أذهاننا بحيث تشكل المعنى الجوهري الذي سيكون هو الأساس في توليد التراكيب التالية :

1 ـ أقسم الله تعالى بالليل على اختلاف سعي الانسان .

2 ـ أقسم الله تعالى بالنهار على إختلاف سعي الانسان .

3 ـ حلف الله تعالى بخلقه الذكر و الأنثى على تعدد أعمال الانسان .

يمكن توليد تراكيب عديدة يتحقق من خلالها النظام النحوي و الدلالي و الصوتي المقبول لغويا ، وعليه فإن مثل هذه التراكيب يمثل البنية العميقة أو المعنى الجوهري ، الذي سيحول فيما بعد إلى تركيب سطحي بوساطة المكون التحويلي :

ب ـ المكون التحويلي : إن عملية التحويل كما سبق تربط بين البنيتين العميقة و السطحية، بحيث يحول الجمل الأساسية الناتجة عن المكون التوليدي إلى جمل تحويلية كالجمل الاستفهامية و الشرطية و التعجبية و المنفية و القسمية إلخ ...

و التحويل عبارة عن سلسلة من العمليات الذهنية تقوم بنقل جملة إلى جملة مع إجراء التعديلات على التراكيب من أجل إبراز الجملة في شكلها الظاهري السّطحي، انطلاقا من معانيها الضّمنية أي بنيتها العميقة ، و التحويل في العربية يعتمد على عدّة قواعد منها : الحذف، و الإثبات، و التقديم، و التأخير، و الإظهار، و الإضمار، و العطف و غيرها ...

كل هذه العناصر من شأنها إبراز المضامين الخفية و العميقة للتركيب اللغوي و ذلك بتأثيرها على الدلالة و توجيهها .

و الذي يهمنا الآن هو : كيف تحول التركيب القسمي التالي إلى السطح و هو قوله تعالى : "و اللّيل إذا يغشى و النهار إذا تجلى و ما خلق الذكر و الانثى إن سعيكم لشتى" ؟

تحول إلى السّطح بوساطة عدة قواعد تحويلية يمكن أن تكون كالتالي :

1 ـ قاعدة الحذف : حذف فعل القسم و باء القسم و التعويض عنهما بالواو في (و الليل ...) .

2 ـ قاعدة الحال حين تكون ظرفًا :* في ( و الليل إذا يغشى ... ) .

3 ـ قاعدة إضمار المفعول به : عندما يتقدم في السّياق ما يُشير إليه، و ذلك في قوله تعالى "و الليل إذا يغشى"، إذا قدر المغشيّ هو الشمس بدليل قوله في سورة (الشمس) : (و الليل إذا يَغْشَاها) ، أو قدر النّهار بدليل قوله تعالى (يُغْشِي الليل النهار) ، أو حذف المفعول به لكونه مطلقا عامًا يشمل أشياء كثيرة ، إذا قدر المغشيّ كلّ شيء يواريه الليل بظلامه* .

4 ـ قاعدة العطف : و ذلك عند عطف مفرد على مفرد في (و النهار إذا تجلى و ما خلق ...) و ليست الواو من قبيل عطف جملة على جملة ، حتى لا تقتضي كل جملة قسمية جوابًا مستقلا عن الأخرى "و لو كان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاماً آخر فيكون كقولك : باللّه لأفعلنّ ، باللّه لأخرجنّ اليوم" (1) .

5 ـ قاعدة الاسم الموصول : إذا قدرت (ما) بمعنى الّذي في (و ما خلق الذّكر و الانثى) ، أو قاعدة البدل إذا قدر (الذكر و الانثى) بدلاً من (ما) الموصولة فالأول

---

* ـ تجيء إذا للحال بعد القسم ، المغني ج 1/ 100، أو أنها بدل عن الليل و مجردة عن الظرفية كما جردت عن الشرطية : البرهان في علوم القرآن م 4/ 193 ـ 194 .

* ـ الكشاف م 4/ 260 .

1 ـ الكتاب ج 3/ 501 .

يعضده قراءة ابن مسعود (والذى خلق الذكر والانثى) والثاني يعضده قراءة الكسائي (وما خَلَقَ الذَّكَرِ والانثى) بالجَرِّ على أنّ الذكر والانثى بدل من محل (ما خلق) والتقدير (وما خلقه الذّكرَ والانثى) وأضمر الفاعل أي لفظ الجلالة لانه معلوم ومختص بالخلق دون سواه (1).

6ـ قاعدة التوكيد: وذلك حين يجتمع في الجملة الاسمية مؤكدان كَإِنَّ واللاّم التي تزحلق من المبتدأ إلى الخبر في قوله تعالى (إنّ سعيكم لشتّى).

7ـ قاعدة تعويض الضمير بالاسم الظاهر: كما في (سعيكم ...) إذ الضمير (كم) للخطاب.

عملية التشجير: هي محاولة لتحليل عناصر التركيب للوصول إلى معانيها العميقة، كما أنها تُبَيِّنُ التّطورات والتّحولات التي مرت بها البنية العميقة كي تظهر على السطح في بنية سطحية، وعليه فإنّ "الهدف من البنية العميقة المشجرة هو رسم التركيب المستتر أو المخبأ للكلام العربي أو كما نعته المتقدمون بالبنية المقدرة التّي هي بنية تجريدية تقوم على أسس بيولوجية في الدّماغ البشري على حد تعبير تشومسكي" (2).

يمكن القول: إن عملية التشجير تعمل على صعيدين:

أ ـ صعيد المكون التوليدي: وذلك عن طريق إستبدال الألفاظ والكلمات بما يقابلها من عناصر التّراكيب الأساسية في اللغة العربية، هذه العناصر الأساسية التي تعود إلى البنية العميقة للكلام.

ب ـ صعيد المكون التحويلي: وذلك عن طريق إجراء سلسلة من العمليات هي عبارة عن تغييرات تطرأ على ترتيب المعاني والألفاظ في الذهن حسب ما يوافقها من تغييرات أخرى، تطرأ على عناصر التركيب، فتنقله من كونه تركيبًا أساسيا الى كونه إشتقاقيا وفق قواعد معينة ومحددة مقبولة لغويا ونحويا، وذلك من أجل إبراز التركيب

1ـ الكشاف م 4/ 260.

2ـ قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث مدخل ص: 126.

الجديد في شكله النهائي وظهوره على السطح" فالهدف الرئيسي من قاعدة إعادة الكتابة والعملية الاشتقاقية ثم البنية العميقة المشجرة هو تقديم معلومات مختلفة عن الكلام العربي الّذى هو أكبر في نوعيته من رموز إعتباطية تعسّفية" (1)

بناءً على ما سبق نحاول إجراء عملية التشجير على الجملة القسمية السّابقة، نقسمها إلى قسمين: القسم الأوّل هو صدر جملة القسم ونرمز إليه بالرمز (ص، ج، ق).

والقسم الثاني هو عجز جملة القسم ونرمز إليه بالرمز (ع. ج. ق) *

2ـ المستوى الدّلالي: إنّه المستوى الّذى يتم فيه شرح العلاقات الدلالية المكونة للجملة انطلاقا من الدّلالات النحوية والدلالات المعجمية.

فالمستوى الدلالي "هو مستوى تفسيري يعمل على البنية العميقة" (2)، ويساعد على تفسير مضامين التركيب القسمي السّابق من خلال عملية التشجير.

والذى نلاحظه، إنّ المكون التركيبي بقسميه: المكون الأساسي التوليدي، الذى حدد لنا العناصر الأساسية للجملة القسمية، والمكون التحويلي الّذى ساعد على إبراز البنية السّطحية للتركيب القسمي بوساطة عدة تحولات، كما هو مُبَيَّنٌ سابقا، قد أعطانا تركيبا قسميا متكامل الجوانب له سطح يتمثل في الألفاظ والكلمات والعلاقات النحوية التي تربط بينها، وله عمق يتمثل في الدلالات والمعاني التي تعبر عنها الألفاظ والكلمات مجتمعة، وتربطها بفكرة القسم المنسوبة إلى الله تعالى وهي قوله "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذّكر والانثى إن سعيكم لشتّى"، هكذا تتجلى لنا فكرة القسم الالهي الذي يختلف عن قسم المخلوق، حيث مظاهر العظمة ماثلة أمامنا في تلك المقسمات بها المتعاطفة وهي: اللّيل والنهار وما خلق الله من كائنات في هذه الدّنيا، كلّها من الآيات الكونية التي سبق الحديث عنها.

---

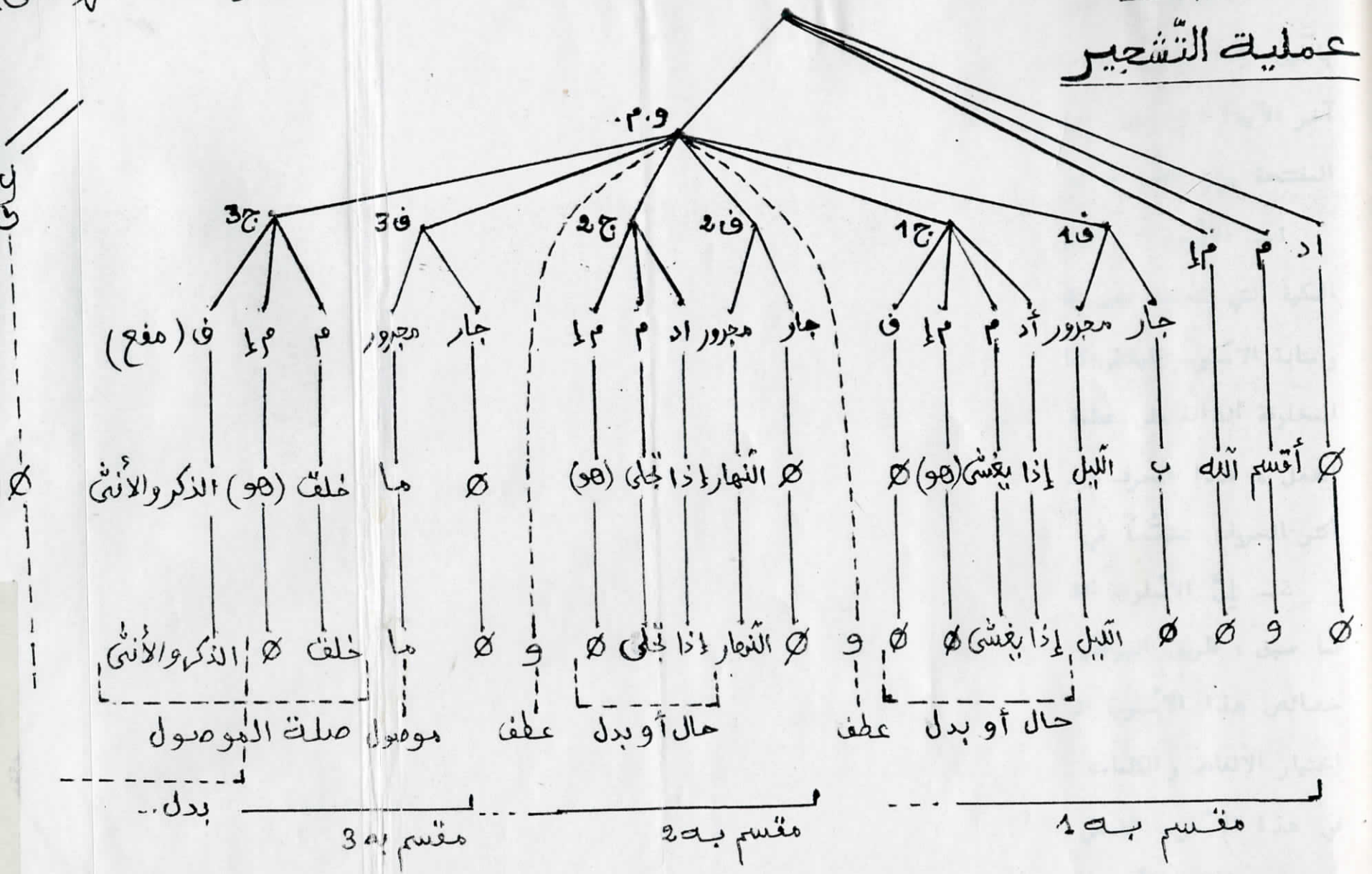
1ـ قضايا أساسية في علم اللّسانيات الحديث مدخل ص: 127.

* ـ ينظر إلى الصفحة الموالية..

2ـ نحو نظرية لسانية عربية حديثة ص: 56.

الجدول رقم : 12 — ص.ج.ف (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى وما خلق الذكر والأنثى)

## عملية التّشجير

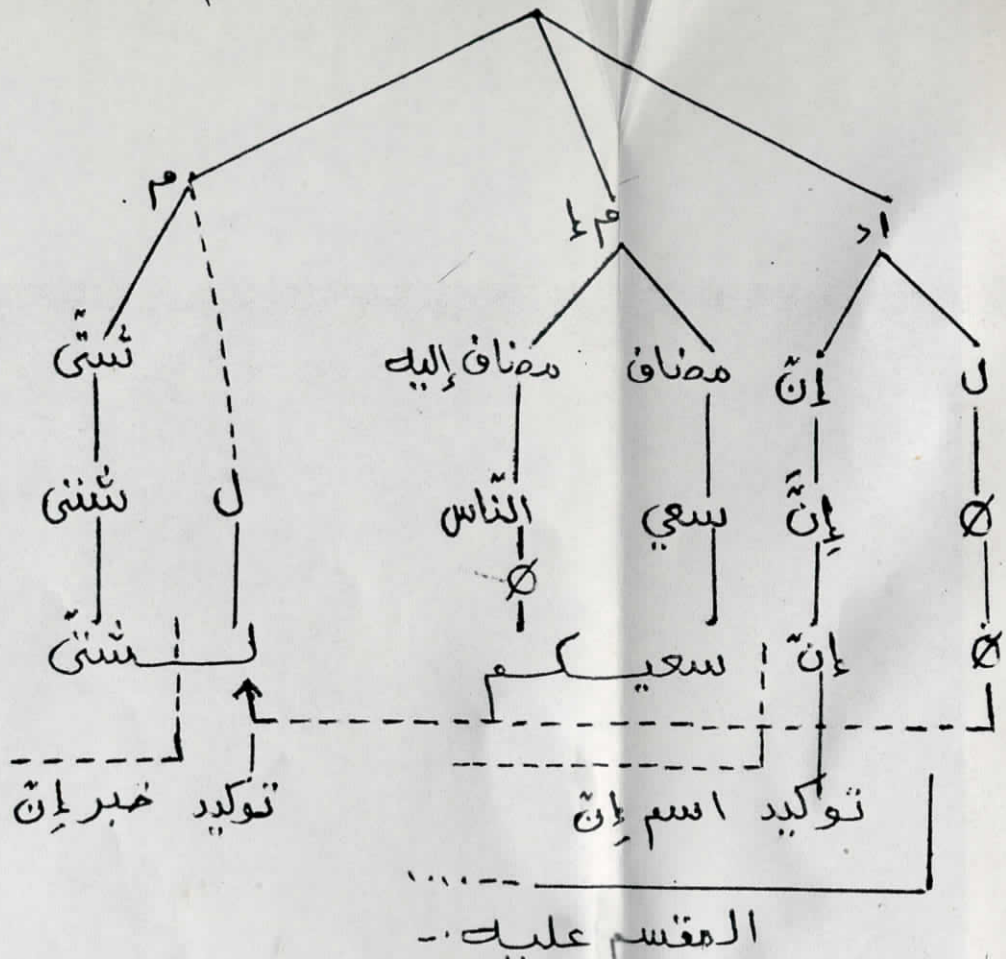



و.م : وحدة متمّمة : يقصد بها الفضلة عندما تتضمن عملية إسنادية فأكثر..

ف : الفضلة : أقل من عملية إسناديّة كالجار والمجرور مثلا..

Ø : إشارة إلى العنصر المحذوف أو المعوّض..

ع.ج.ف: (إن سعيكم لشتى)



يمكننا أن نطرح السؤال التالي : ما الفرق بين قولنا "أقسم الله تعالى بالليل إذا يغشى ... إلى آخر الآية" وبين قوله تعالى "والليل إذا يغشى ... الى آخر الآية" ؟ إن عدم التصريح بفعل القسم في هذه السورة وسائر السور الأخرى المفتتحة بواو القسم له عدة أسباب يمكن أن تكون كالتالي :

1ـ الأرجح أن السور المفتتحة بالقسم كانت في بداية الدعوة ، فهي من السور المكية التي تعتمد على قصر الفواصل وقوتها ، بحيث تتجلى فيها روعة البيان القرآني ومتانة الأسلوب البلاغي، كما أن الأمور المقسم بها في هذه السّور ، كانت من الأشياء المخلوقة الدالة على عظمة الخالق، وأن القسم بها كان بحرف (الواو) النّائب على الفعل ، هذا الحرف الذى أدّيت به أغلب الأقسام الصّريحة في القرآن ، لكونه أكثر الحروف تخصّصاً في القسم .

2ـ إنّ الأسلوب القرآني في معظمه أسلوب تصويريّ ، يحقق الإقناع عن طريقين كما سبق : طريق البراهين العقلية وطريق التأثيرات النفسية والوجدانية ، ومن خصائص هذا الأسلوب التصويري رسم الصورة التعبيرية في شكلها الفنّي وذلك بوساطة إختيار الألفاظ والكلمات الموحية المعبرة عن المعاني الرفيعة ، وهذا ما نلاحظه في هذا الأسلوب القسمي ،

فالكون كلّه بما فيه اللّيل و النهار وسائر المخلوقات في حركة دائبة لا تهدأ ، فاللّيل يغشى النّهار وكلّ شيء بظلامه فيستره، ويعقبه النهار فيجلي كلّ شيء ويكشفه، بما فيه من ضوء ووضوح ، والمخلوقات على إختلاف أصنافها ومنها الإنسان في سعي مستمر وحركة لا تتوقف ، فالعقل البشرى عندما يسمع هذا كله يقف أمامه حائراً متأملا ، إنّها أمور وأشياء كان يراها ويسمعها ويحسها ، ولكنه لم يفكر فيها ولم يتأملها تأملاً عقليا ، فهاهو ذا الأسلوب القرآني يدعوه إلى تأملها وتدبّرها ، ويقدمها له في صورة فنية تطفح بالحركة والإحساس ، تخاطب العقل والوجدان معا ، وتجعل فكرة الألوهية هي المسيطرة عليهما ، وحذف فعل القسم في مثل هذه المقامات وإحلال

الواو محلّه ، أبلغ دلالة وأقوى حجّة، خاصة عندما تتعدّد الأمور المقسم بها ، إذ إنّ واوي العطف في (والنهار) و (وما خلق) يناسبها (واو) القسم أكثر من الفعل ، كما أنّ إضمار الفعل و نيابة الواو عنه ، يجعل المقسمات بها تتتابع تتابعا مألوفاً في صورة فنية مكتملة الجوانب، حيث أقسم الله "بالليل إذا غطّى بظلمته الكون وستر بشبحه الوجود ... وأقسم بالنهار إذا تجلّى وانكشف وأنار العالم وأضاء الكون ... وأقسم بالقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمنَى ... للتنبيه على أنه الخالق المبدع الحكيم ، إذ لا يعقل أنّ هذا التخالف بين الذكر والأنثى يحصل بمحض الصّدفة من طبيعة بلهاء لا شعور لها"[1] ، ولو صرح بفعل القسم لَمَا أمكننا أن نلاحظ هذا الترابط الذي أفادته (الواو) ، ولا هذا الائتلاف والتناسق في الصورة الفنية، ولربّما جاء لكلّ مقسم به ، مقسم عليه خاص به ، فتفقد الصّورة الفنية بعض خصائصها البلاغية ، إذ القصد منها لفت العقول والأنظار إلى الآيات الكونية العظيمة ومنها اللّيل والنهار وسائر المخلوقات ، لإخراج الفكر الإنساني من دائرته الضيقة، للتفكير فيما حوله ، وربط الأسباب بالمسبّبات، وهذا ما تمثله معظم الأمور المقسم بها بحرف الواو الواردة في مفتتح السور المكية كما رأينا .

فما الفرق إذن بين هذه ، وبين ما صُرّح فيه بفعل القسم مَتْلُوّاً (بالواو)؟ وهل تفقد الصّورة الفنية خصائصها البلاغية مع هذا النوع الأخير؟

ممّا صرح فيه بفعل القسم متلوا بالواو قوله تعالى في سورة التكوير "فلا أقسم بالخُنّسِ الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس إنه لقول رسول كريم" .

---

1 ـ صفوة التفاسير ج 3/ 892 .

للنحاة آراء في العطف بالواو على فعل القسم ، منهم من رأى في ذلك قسمين مختلفين : أولهما بالفعل (فلا أقسم بالخنّس الجوار الكنس...) وثانيهما بالحرف (والليل إذا عسعس...) وذلك لامتناع العطف عندهم على عاملين وهما (الفعل والباء) ، وهذا يحتم جعل الواو الأولى (والليل) ابتداء قسم جديد ، وهذا لا يتعارض مع رأي سيبويه القائل بأنّ الواو المتعقبة للقسم ، عاطفة وليست ابتداء قسم جديد ، وهو يقصد القسم المبدوء بالواو ، وليس القسم المبدوء (بالفعل والباء) كما هو الشأن في الآية السابقة ، ولعلّ السبب في ذلك هو كون آلة القسم واحدة (الواو)، فإذا اختلفت الآلة ، كأنْ تأتي الواو وتليها الباء أو خولف بينهما فإنّ عاملة التكرار مأمونة فيتعيّنْ جعلها قسمين مختلفين ، ولم يقل الباء المتعقبة للقسم بالباء، ولا التاء المتعقبة للقسم بالتاء ، لأنّ هذه إذا لم يفصل بينها بواو العطف كان تكرارها لإفادة التّوكيد ، كما أنّها خاصّة بالقسم، وليست كالواو الّتي تفيد العطف أيضا .(1) .

ومما يمنع أيضا ، من أن الواو المتعقبة للقسم بالباء، تفيد العطف ، هو أنّ الباء عامل قوي في القسم ، خاصة إذا اتّصلت بالفعل كما في الآية السّابقة ، والواو عامل ضعيف فيه ، لعدم ارتباطها بالفعل في الغالب كالباء، ولعدم اختصاصها بالقسم وحده إذ تفيد العطف أيضًا .*

وعلى هذا الاعتبار ، فإنّ اشتراكهما في الآية السابقة في جواب واحد (إنّه لقول رسول كريم) ، ممّا يترجّح معه أنْ يكون هذا الجواب للعامل الضعيف (أي الواو) ، أما القسم الأول، الوارد بالفعل والباء، مع النّفي (بلا) زيادة في التّوكيد (فلا أقسم ...) فإنّ جوابه محذوف أغنى عنه الكلام السّابق ، خاصّة إذا علمنا أنّ السّور

---

1 ـ الكشاف م 4/ 223 ـ 224 ، والمغني ج 2/ 541 .

* ـ وهذا لا يتنافى مع مراحل تطور أسلوب القسم المذكورة بالفصل الأول، إذ المعتمد هنا ، هو باعتبار ما إستقرت عليه التراكيب اللّغوية وفق المعاني النحوية .

مفتتحة بأسلوب شرطي تتابعت فيه التراكيب الشرطية ، فهي نظيرة التراكيب القسمية من جهتين :

1ـ لإفادتها التوكيد .

2ـ لافتتاح عدّة سور مكية بها واقتراب مضمونها من مضمون أساليب القسم .

والأسلوب الشرطي المفتتح به هو قوله تعالى: " إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموءودة سئلت ، بأي ذنب قتلت، وإذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمت نفس ما أحضرت " (1) .

والملاحظ هنا هو أنّ جواب الشرط (علمت نفس ما أحضرت) قد جاء عقب ذكر مجموعة من الأحوال منها ما يعترى الكون قبيل قيام الساعة او منها ما يعقب ذلك، والمذكور في هذا السياق «اثنتا عشرة خصلة ، ستّ منها في مبادئ قيام السّاعة قبل فناء الدنيا ، وست بعده ، لأنّ المراد زمان متّسع شامل لها ولمجازاة النفوس على أعمالها» (2) .

وهنا شبه كبير بين ما ألفناه في الأساليب القسمية من التوكيد على البعث والجزاء ، وبين ما نراه هنا في الأساليب الشرطية ، ولمّا إستوفى أسلوب الشرط هذه المعاني المراد توكيدها، عقب عليها بأسلوب قسمي بالفعل الصّريح المتعدّي بالباء والمنفي باللام زيادة في التوكيد كما سبق ، وكأنّ المراد هنا هو أنّ ما ذكر كاف في الدلالة على ما سبق ، ممّا لا يحتاج معه إلى القسم ، لذلك جاز إعتبار جواب القسم محذوفاً كما سبق ، ثم استئنف قسم جديد (والليل) تأكيداً على تأكيد زيادة في الاعتبار ، بحيث أنّ ما ذكر سيقع وهو سهل ميسور على الله فعله ، مثلما هو سهل

---

1ـ سورة التكوير / 1ـ 14 .

2ـ تفسير البيضاوي ج 5 / 575 .

ميسور عليكم رؤية تعاقب الليل و النهار أي (الظلمة و النور) فكذلك أمر الوحي حقيقة لا مراء فيها (... و الليل إذا عسعس و الصّبح إذا تنفس ، إنّه لقول رسول كريم) ، و قد جاء بعد ظلام الجهل ، فالصّورة الفنية إذن لم تفقد خصائصها البلاغية لاختلاف أداة القسم ، بل إحتفظت بها ، بوساطة ما تقدم من أسلوب الشرط كما رأينا إذ هو الذي كان يشكل محور الصّورة التعبيرية ، و القسم جاء تاليا له ، أمّا الصورة الّتي كنّا بصدد تحليلها - و لنعد إليها الآن - فإنّها بما احتوت عليه من تلك الأمور المقسم بها ، تغمر عقل السامع و إحساسه و وجدانه ، و ذلك بما تضمنته من إقناع عقلي و تأثير نفسي ، و يَعلم أنه قسم لا بدّ له من جواب :

فيأتي الجواب "إنّ سعيكم لشتى" ، إنّه تركيب عربي فصيح، بمؤكدين طالما سمع مثله، غير أنّ دلالته على إختلاف سعي الإنسان و تنوّع أعماله و كثرتها شيء لم يُسمع ربّما من قبل ، و لنفترض أنه سُمع مثل هذا ، فما الجديد بالنسبة إليه ؟

إنّه السياق بمعناه العام : و هو ما يحيط بالموقف الكلامي : - أحوال النّاس يومئذ ، و أغلبهم لم يؤمن بما جاء به الإسلام ، - عنادهم و تماديهم في التّشنيع بأمر الرّسول (ص) و أصحابه ، - جريهم وراء الشهوات من جلب المال و اعتداد بالجاه و القوة ، و احتقارهم الضعفاء ...

و السياق بمعناه الخاص : و هو تتابع الألفاظ و الكلمات في السّلسلة الكلامية ، و ما تحمله من معانٍ ، كما لاحظنا ذلك في المقسم به ، كلّ ذلك يضفي على الكلمات زيادة على معانيها المعجمية المألوفة لديهم ، معاني سياقية جديدة بالنسبة إليهم ، و قد عبر الأسلوب القرآني هنا عن العمل بالسعي ، لأنّ السّعي يتضمن الحرص و الحث زيادة على العمل الّذي قد يكون مجردًا منهما ، فجواب القسم (إنّ سعيكم لشتى) يكشف خبايا النّفوس ، و يجعل المستمع يقتنع بأنّ الله يعرف ما في نفسه و مطلع عليه ، و هنا تدور بذهنه معانٍ كثيرة تتولد عن هذا المعنى الجوهري العميق (إختلاف

السعي) وفي لحظة معينة من الزمن وهو يسمع هذه الآية يستعرض جميع أعماله وأقواله الكبير منها والصغير، لأنه معنيٌّ بهذا الخطاب، فجواب القسم، إذن (إنّ سعيكم لشتى) هو محور الصّورة الأولى، وعليه مَدار الاهتمام، وقد سبقه المقسم به ممهّدًا ومؤكّدًا لـه.

3 ـ المستوى الصوتي :

لا شك في أن الدراسات الصوتية متعددة المناهج والاتجاهات، وأن علماء اللّغة لم يتفقوا بعد على منهاج واضح الخطوات والمصطلحات يمكن تطبيقه على النّصوص اللّغويّة المختلفة، سواء في ذلك قديما أو حديثًا، وأن معظم الّذين ألّفوا في هذا المجال إتّجهوا إلى تحديد الأصوات من حيث مواقعها من جهاز النّطق الانساني، أو إلى صفاتها كالجهر والهمس والشّدة والأطباق وما إلى ذلك، وقليل منهم من إتّجه إلى تأثيرات الأصوات بعضها في البعض عبر المجموعة الكلامية*، وكأن دراسة الأصوات اللغوية أصبحت بمعزل عن اللغة ذاتها، على أننا نجد من القدماء جماعة بقوا ملازمين النّص اللغويّ في دراستهم الأصوات، هم القراء، واخترعوا لذلك فنّا خاصّا هو (فنّ التّجويد أو فنّ القراءات) والتجويد عندهم «هو إعطاء الحروف حقوقها وترتيبها، ورد الحرف إلى مخرجه وأصله وتلطيف النّطق على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف»[1]، لذلك فهم زيادة على ما فعلوه على غرار بقية اللّغويين والنّحاة القدماء، من وصف الحروف وتحديد صفاتها، اعتنوا بجانب آخر هو تأثير الحروف في بعضها أثناء النّطق، فإشتقّوا لذلك مصطلحات كالترقيق والتّفخيم والإدغام والإمالة والهمز والتّخفيف وما إلى ذلك، والحاجة الآن ماسّة إلى بناء الدّراسات اللّغوية على منهج متكامل الجوانب من (نحو ودلالة وأصوات)،

---

* هي سلسلة من الأصوات اللغوية المتصلة في نَفَسٍ واحد واقعة بين سكتين وإذا تم بها المعنى تسمى مجموعة معنوية (مناهج البحث في اللغة ص : 202 .

1 ـ الإتقان في علوم القرآن ج 1/ 102 .

وفي محاولات الدارسين المحدثين ما يشير بأن الأنظار قد بدأت تتجه إلى هذا المجال ، من ذلك مثلا ، المنهج الذي إعتمده الدكتور تمام حسان في كتابه (مناهج البحث في اللغة) فهو ينطلق من أن اللغة متعددة الأنظمة ، «لها نظامها الأصواتي ونظامها التشكيلي ونظامها الصرفي ونظامها النحوي ، ولها بعد ذلك نظام للمقطع ونظام للنبر ونظام للتنغيم» (1) .

ثم يقسم دراسته الأصوات إلى منهجين :

أ ـ منهج الأصوات الخاص بدراستها من حيث المخارج والصفات .

ب ـ منهج التشكيل الصوتي وهو خاص بدراسة أصوات اللغة مرتبطة بالمجموعة الكلامية بصفة عامة ، وتحت هذا المنهج درس ظاهرة النبر ، والمقطع ، والموقعية ، والتنغيم ، والمجاورة في السياق (2) .

وهذا المنهج الأخير هو الذي نعتمد عليه في هذه الدراسة ، إذ الهدف هو إتصال الأصوات بعضها بالبعض في المجموعة الكلامية ، وما ينتج عن هذا الاتصال من تأثير على الأسلوب .

وفيما يلي محاولة لدراسة التركيب القسمي السابق عبر المستوى الصوتي .

1ـ تحديد المجموعات الكلامية : الهدف من قراءة القرآن هو تدبّر معانيه لذلك أمر بترتيله وتجويده ، وقد سبق تعريف التجويد بأنه إعطاء الأصوات و المقاطع حقها من الإبانة والوضوح ، وتحدّد المقسمات بها في هذا التركيب يقتضي إعطاء كل مقسم به نفسًا خاصًا به ، يجعل المستمع إليه يتدبّره ويفهمه ثم ينتقل منه إلى غيره وهكذا ... ولهذا يمكن تقسيمه إلى أربع مجموعات كلامية هي :

والليل إذا يغشى / والنهار إذا تجلى / وما خلق الذكر والأنثى / إنّ سعيكم لشتّى / .

---

1ـ منهاج البحث في اللغة ص: 66 .

2ـ المرجع نفسه ص: 67 و 139 .

2ـ تحديد المقاطع: * أ ـ المجموعة الكلامية الأولى :

والليل إذا يغشى : (ول ـ ليـ ـ ل ـ ا ـ ذا ـ يغـ ـ شى) = سبعة مقاطع .

ب ـ المجموعة الثانيـــة :

والنّهار إذا تجلى: (ون ـ ن ـ هاـ ـ ر ـ ا ـ ذ ا ـ ت ـ جل ـ لى) = تسعة مقاطـع .

جـ ـ المجموعة الثالثـــة :

وما خلق الذكر والانثى: (و ـ ما ـ خـ ـ ل ـ قذ ـ ذ ـ ك ـ ر ـ ول ـ أن ـ ثى) = أحد عشر مقطعـا .

د ـ المجموعة الرابعـة :

إن سعيكم لشتى: (ان ـ ن ـ سع ـ يِ ـ كم ـ ل ـ شت ـ تى) ثمانية مقاطـع .

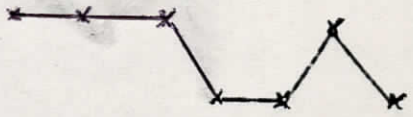
والملاحظ أنّ هذه المقاطع في المقسم به في تصاعد (سبعة ، تسعة ، أحد عشر) .

صفات المقاطع:

صامع صامع صامع صامع صامع صامع صامع صامع

أ ـ (ول ـ ليـ ـ ل ـ إ ـ ذا ـ يغـ ـ شى)

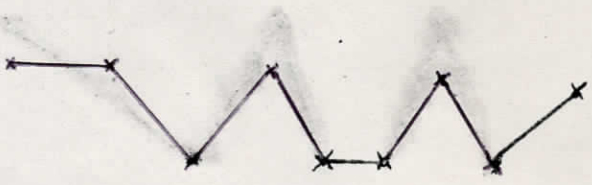
ـ طويـل
ـ متوسـط
ـ قصيـر



صامع صامع صامع صامع صامع صامع صامع صامع

ب ـ (ون ـ ن ـ هاـ ـ ر ـ إ ـ ذا ـ ت ـ جل ـ لى)

ـ طويـل
ـ متوسـط
ـ قصيـر



---

* ـ المقطع خفقة صدرية أو وحدة إيقاعية على غرار ما بنى عليه العروضيون مقاييسهم العروضية ( مناهج البحث في اللغة ص : 171 .

صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص
ج ـ (و ـ ما ـ خ ـ ل ـ قد ـ ذ ـ ك ـ ر ـ ول ـ أن ـ شى)

ـ طويل
ـ متوسط
ـ قصير

صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص صع ص
د ـ (إن ـ ن ـ سع ـ ي ـ كم ـ ل ـ شت ـ تى)

ـ طويل
ـ متوسط
ـ قصير

(1)

---

1- اعتمدت في تقسيم المقاطع وصفاتها على منهج الدكتور تمام حسّان، الّذي اعتمد في تقسيم المقاطع على النّظام الإيقاعيّ العروضي الخليليّ، ورمز إلى الصّحيح بالرّمز (ص) و العِلّة بالرّمز (ع)، كما قسّمها إلى ثلاثة أقسام: قصيرة من نوع (ع ص) و (ص ع)، ومتوسّطة من نوع (ص ع ص) و (ص ع ع)، وطويلة من نوع (ص ع ع ص) و (ص ع ص ص)، والنّبر عنده قسمان أيضا: - النّبر الصّرفيّ الّذي منه ما يقع على المقطع ما قبل الآخر إذا كان متوسّطًا والآخر متوسّطًا، أو يقع على المقطع الّذي يسبق ما قبل الآخر إذا كان الآخر يقع مع ما قبله في صورة (ص ع + ص ع ص)، سجّلت من الأول النّبرَ الواقع على المقاطع التّالية: (بغ) من (يغشى)، و (جَلْ) من (تجلّى)، و (أُنْ) من (أنثى)، و (شت) من (شتّى)، ومن الثّاني (سع) من (سعيكم)، كما هو مبيّن بالنقاط تحت المقاطع أعلاه.

- والنّبر الدّلالي، الّذي يكون من وظيفة المعنى العامّ، وقد يقع على أيّ مقطع في المجموعة الكلاميّة، وهو ما أشرت إليه بالنقاط الباقية تحت المقاطع أعلاه. (مناهج البحث في اللغة ص: 164 وما يليها)، قد يلتقي النّبر الدّلالي مع النّبر الصّرفيّ في بعض المقاطع كما سيأتي..

3ـ الموقعيـــة : * نتوقف هنا عند اتّساق ألفاظ هذا التركيب القسمي من حيث المواقع الّتي احتلتها في السّياق وهي كما يلي :

(الليل ، يغشى ، النهار ، تجلى) :

إنّ اللّغة العربية تقبل هذا النّسق من الألفاظ ولكن ما السّر فـــي وقوعها على هذا النحو من الترتيب ؟

يشير القرآن الكريم في الكثير من الآيات إلى أنّ نشأة الخليقة كلّهـــا من كون وإنسان وحيوان ونبات وجماد من عدم، وفي قوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أنّ السّموات والأرض كانتا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفـــلا يؤمنون" (1) إشارة إلى أنّ الكون مسبوق بعدم فدلالة الرتق "الضّم والالتحام" أي كانتـا شَيْئاً واحداً وحقيقة متّحدة" (2) .

ولا يخلو معنى الضّم والالتحام من الانغلاق الّذي ينطوي على ظلام ، ثم جاء الفتـــق الّذي يفيد الانفتاح والضوء ، فكانت الحياة ، وما يؤيد هذا المعنى هو قوله تعالى: "وهو الّذي خلق اللّيل والنهار والشمس والقمر كلّ في فلك يسبحون" (3) ، إذ ذكر اللّيل قبل النهار .

وقوله تعالى "فالقُ الإصباح وجاعلُ اللّيلَ سكناً" (4) وكأنّ الإصباح الذي هو النّـــور والضوء ، مشتق من اللّيل ، ومثله قوله تعالى "وآية لهم اللّيل نسلخ منه النّهار فإذا هم مظلمون" (5) "من سلخ جلد الشاة إذا كشطه وأزاله عنها، فاستعير لإزالة الضّوء وكشفه عن اللّيل" (6) .

---

* ـ وتعني البحث في قوانين تأليف الكلام ، وقواعد ترتيب الكلمات في الجملة والعبارة، من "دراسات في علم اللغة" ص: 141 .

1 ـ سورة الأنبيـاء/ 30 .
2 ـ تفسير البيضاوي ج 4/ 39 .
3 ـ الأنبيـــاء/ 33 .
4 ـ سورة الانعام/ 96 .
5ـ سورة يـــس/ 37 .
6ـ الكشاف م 3/ 322 .

ألا يفيد ذلك كلّه بأن الظلام هو الأصل وأنّ النهار طارئ ومشتق من الليـــل؟ ومثله " وجعلنا اللّيل والنّهار آيتين ، فمحونا آية اللّيل وجعلنا آية النّهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكـم " (1) .

وليس في قوله تعالى: " يُغشى اللّيلَ النهارَ يطلبه حثيثا " (2) .

وقوله : " واللّيل إذا يغشاهـا ... " (3) .

وقولـه : " ولا اللّيل سابق النّهار " (4) ، ما يبطل أسبقية الظلام .

إذ إنها محمولة على تعاقب أحوالهما ، وأن لكل منهما وقتا مخصوصًا لا يتعدّاهُ ولا يتجاوزه إلى غيره ، فهما من الدقة والضبط على ما يحفظ نظام الكون من الاختلال، لعلّ في الَّذِي ذكره، دلالات كافية على ذكر الليل قبل النهار .

ـ أما وصف الليل بالغشيان فلأنّ الجذر اللغوي (غشي) أهم دلالاته هي التغطيـة والإخفاء من جميع الجهات ، وهذه تناسب اللّيل الَّذِي يهجم على كلّ شيء بظلامـه ويغشاه ، ولم يقل (والليل إذا أظلم) لأنّ الظلام هو ذهاب النّور، وليس فيه اتساع مجازي كالذي في (الغشيان) إذ يفيد الحركة (المجيء ثم الحلول) .

ـ أما (النهار إذا تجلى) فلأنّ الجذر اللغوي ( جلى أو جلا) يجمع بين الظهـــور والانكشاف ، والتّجلي فيه زيادة التكلف في الجلاء ، وقد قال الثعالبي عن الوزن (تَفَعّل) " ويكون بمعنى التكلف " (5) ،

وكأن تجلي النهار قد حدث شيئا فشيئا " وهذا كلّه ليس عمل وقت واحد ولكنه عمـل شيء بعد شيء في مهلـة " (6) .

---

1ـ سورة الإسراء / 13 .

2ـ سورة الأعراف / 54 .

3ـ سورة الشمس / 4 .

4ـ سورة يس / 4 .

5ـ فقه اللغة وأسرار العربية للإمام منصور عبد الملك بن محمد إسماعيل الثعالبي دار مكتبة الحياة بيروت ص : 242 .

6ـ أدب الكتاب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط4/ 1963 دار السعادة مصر ص : 360 .

ـ والذي نلاحظه ، أنه بعد ذكر اللّيل الدّال على العدم كما سبق ، ثم ذكر النهار الدّال على الانفتاح ، و أنه وقت السعي و الحركة " وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم " ، عقب على ذلك بـ (و ما خلق الذكر و الأنثى) لما في ذلك من دلالة على الحركة و الحياة ، فيتناسب ذلك كلّه مع وضوح النّهار الذي هو وقت الحركة و السعي ، فبعد في الترتيب عن الليل الدال على السكون (و جاعل الليل سكنا) . كلّ ذلك تمهيد لمجيء جواب القسم الذي ذكر فيه السّعي صراحة (إنّ سعيكم لشتى) .

هكذا تتوالى ألفاظ هذا التركيب القسمي في ترتيب و إتساق عجيبين بحيث تفضي كلّ لفظة منها إلى الأخرى و تتناسب معها في السياق ليحدث الكلّ معانٍ سامية لا يمكن أن يجود بها أسلوب بشري مهما يحل و يرتق في درجات الفصاحة ، كما يمكن أن تؤدي دلالة اللّيل ، الظلام المعنوي الذي غشي البشرية قبل مجيء الرّسالة المحمدية الّتي هي بمثابة النهار الّذي يضيء طريق الهداية للناس ، و يبين طرق السّعي المشروعة و غير المشروعة ليتبعوا تلك و يجتنبوا هذه .

4ـ النبر :

و قد يسمى ارتكازا [1] ، و يمكن تقسيمه إلى قسمين : نبر دلالي و نبر صرفي ، فالنبر الصّرفي هو ما يُلاحظ في الصّيغ الصّرفية كالارتكاز على الفاء في صيغة (فاعل) مثلا ، و النبر الدلالي هو ما يقع في الجملة حسب الغرض المراد إبرازه منها ، و يسمى أيضا نبر السياق [2] ، و في التركيب القسمي السابق ، نجد من النوع الأول (النبر الصرفي) : الضغط على المقاطع التالية : (يغ) من (يغشى) و (جَلْ) من (تجلّى) و (أُنْ) من (أُنثى) و (شْتَ) من (شَتّى) و (سع) من (سعيكم) ، و من الثاني (النبر الدّلالي) ـ و هو لا يتقيّد بالصيغة الصّرفيّة للكلمة ، و يكون في الأسلوب التأكيدي أقوى و أعلى منه في الأسلوب التقريري ـ يمكننا أن نسجّل بالاضافة

---

1ـ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص : 189 .

2ـ مناهج البحث في اللغة ص : 197 .

إلى النَّوع الأوّل ؛ ما وقع على المقاطع التالية : (لي) من (الليل) ، و (يَغْ) من (يغشى) ، و (ها) من (النهار) ، و (جَلْ) من (تجلى) و (ما) ، و (ذ) من (الذكر) ، و (نْ) من (إنَّ) ، و (سع) من (سعيكم) ، و (شتى) من (شتى) .

يمكننا أن نقول : إنَّ النبر في المقاطع الواقعة في المقسم به ، أقل درجة وأخفض صَوْتًا من النَّبر الواقع على مقاطع المقسم عليه ، وذلك أنَّ المراد من الأسلوب القسميّ في الغالب ، توكيد المقسم عليه ، ووقوع النَّبر عليه بقوة يزيد من تأكيده .

والملاحظ أن عدد المقاطع المنبورة نبرًا صرفيًا أو دلاليًا في هذا التركيب القسمي بلغ عشرة مقاطع * ، وأنَّ المسافات بين مواقع النبر تكاد تتساوى ، بحيث أحدثت ما يسمى بالإيقاع الذي يعطي الأسلوب صبغة جمالية .

5 ـ التنغيم :

ويدل على امتداد الصوت في الكلام ، إما نحو الارتفاع وإما نحو الهبوط ؛ لذلك فهو "يدل على العنصر الموسيقي في الكلام" (1) والتنغيم غالبا ما يكون في نهاية المجموعة الكلامية أو المعنوية "ولا بدَّ للمجموعة المعنوية من أن تنتهي بنغمة هابطة في التقرير والطَّلب والاستفهام غير المبدوء بهل والهمزة ، وفي المجموعة الكلامية التي لم يتم بها المعنى ، فالنغمة النهائية صاعدة أو ثابتة أعلى مما قبلها" (2) .

يمكننا أن نقول : إن المجموعات الكلامية الثلاث ، التي يشكلها المقسم به تنتهي كلّ واحدة منها بنغمة ممتدة نحو الصُّعود ، وذلك لأن المعنى العام لم يتم بعد ، وأن امتداد الصَّوت صاعدًا دليل على ذلك ؛

أما النَّغمة النّهائية في المقسم عليه ، فإنها هابطة إذ تنبيء بانتهاء المعنى ،

"والليل إذا يغشى / والنهار إذا تجلى / وما خلق الذكر والأنثى / إن سعيكم لشتى // *" .

---

* ـ كما هو مبين بالنقاط الموضوعة تحت المقاطع بالصفحة 249 والصفحة 250 .

1 ـ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص : 192 .

2 ـ مناهج البحث في اللغة ص : 202 ـ 203 .

* ـ الخط العمودي يدل على السكتة عند انتهاء المجموعة الكلامية ، والخطّان العموديان يدلاّن على انتهاء المجموعة المعنوية .

وهذه النغمات المتتابعة-كما نرى- التي وقعت على المقاطع المنبورة المنتهية بألف مقصورة، قد شكلت لحنًا موسيقيًا انتظم التركيب كله، كما أن استمرار المقاطع في الزيادة من سبعة إلى تسعة الى أحد عشر، زاد من الصعود التدريجي للنغمات، وأنّ إنتهاء التركيب بجملة مثبتة مؤكدة موفية بالمعنى، كان بنغمة هابطة دالة على إنتهاء المعنى وبعدد أقل من المقاطع أي (ثمانية مقاطع).

هكذا، على ضوء الاتجاه المتبع، يمكننا دراسة جميع التراكيب اللغوية التي تتكون منها الصورة التعبيرية، ثم معرفة التركيب الذي يشكل محور الصورة، وهكذا بقية الصور إلى نهاية النص اللغوي.

إن الفائدة من هذا الاتجاه تكمن في نظري في الجوانب التالية:

-1- تقريب المسافة بين النحوي والبلاغي والأديب والناقد، إذ كلهم ينطلقون من النص اللغوي.

-2- المحافظة على اللغة وذلك بالنظر إلى تراكيبها ومدى مناسبة ألفاظها المعاني التي وضعت من أجلها، ودراسة موقعية الألفاظ في السياق الكلامي.

-3- مراعاة المقام والظروف التي يجري فيها الخطاب، وذلك لإدراك الغرض من النص اللغوي والوظيفة التي أنشئ من أجلها.

-4- الدقة في استعمال ألفاظ اللغة وانتقائها، وذلك وفق المعاني والأفكار المراد تبليغها المخاطب أو المتلقي - وهذا ما يتطلب الوقوف على النصوص الفصيحة واستقرائها.

-5- إن اللغة ليست ضربًا من العبث، يستعملها كل واحد حسبما أراد واتفق، وهذه ليست دعوة ضد التطور اللغوي، لأن التطور اللغوي يسير وفق سنن معينة، ولو أباح كل واحد لنفسه أن يطور اللغة كيفما أراد لما بقيت هناك لغة نتفاهم بها.

## الخاتمـــــــــة :

الهدف من هذا البحث، هو دراسة أسلوب القسم ، دراسة دلالية ، ولقد رأينا أن موضوع الدّلالة من المواضيع الّتي كانت تبحث قديما في إطار العلاقة بين اللّفظ والمعنى ، ولم تتجاوز في الغالب المعاني المعجمية المستفادة من الكلمات .

غير أنّ موضوع الدّلالة بالمفهوم الحديث ، قد أصبح علما قائما بذاته، متعدّد المناهج والاتجاهات ، ومتصلا ببقية فروع علم اللّغة الأخرى ، ولعلّ الدراسات اللسانية حديثا قد توسعت بحيث أصبحت تشمل جميع فروع علم اللّغة ، وذلك أن الحـــدث الكلامي أو الرسالة لا بُدَّ أن يقوم على الجوانب التالية :

1ـ الجانب الصّوتي وما له من أثر على المعنى كانسجام الحروف في الكلمات، وانسجام الكلمات في التّركيب اللّغوي ، وما يصحب عملية الكلام من نبر وتنغيم ...

2ـ الجانب النّحوي والصرفي: المتمثل في الوظائف النحوية داخل الجملة أو السياق، ولو تغيّرت الوظائف النّحويّة للكلمات داخل السّياق لرافقها تغيّر في المعنى، وكـــذا الجانب الصّرفي المتعلق بمعاني الصّيغ الصّرفية للكلمات ...

3ـ الجانب الدّلالي: المتمثل في المعاني المعجمية أو الأساسية للكلمات التـــي لا يمكن الاستغناء عنها ، والمتمثل أيضا في الدلالات السياقية لها ، التي تستفاد مـــن الكلمات مجتمعة في سياقات التراكيب ، بالإضافة إلى معانيها المعجمية السابقة .

فهذه الجوانب الثلاثة أصبحت من إهتمامات علم اللسانيات الحديث ، على أن المفهوم القديم للدلالة المتمثل أساسًا في المعاني الأساسية للألفاظ نتيجة الوضع والاصطلاح ، لا يمكن الاستغناء عنه لدى أيّ باحث في مجال الدّراسات اللّغوية ، فهو يتعلق بالبحث عن معاني الألفاظ وتطورها عبر الزمان، (الجانب التّاريخي) ، وهذا ما اعتمدته في الفصل الأوّل ، لدراسة أسلوب القسم ، من حيث ألفاظه وحروفه ، ثم تطور صيغ القسم ، وفي الفصل الثاني، حاولت أن أحصي أكبر عدد ممكن من أساليب القسم الواردة في السور المكية ، وأقف على الدّلالات المتعددة الّتي تهدف إليها ، سواء

في ذلك أفعال القسم أو المقسم به أو المقسم عليه .

أما الدلالة بمفهومها الحديث ، فقد اعتمدتها في الفصل الثالث ، مركزا على السياق العام الذي يشمل : حال المخاطبين ، والظروف التي يجرى فيها الخطاب وذلك اعتمادًا على جهود اللغويين والبلاغيين القدماء ، أمثال الجاحظ وابن جني وعبد القاهر الجرجاني ، ومشاهير المفسرين أمثال الزمخشري من جهة ، وعلى نتائج بعض الدارسين الغربيين أمثال جون فيرث في (نظرية السياق) عنده ، من جهة ثانية ، وعلى هذا الأساس حاولت ، أن أحلل العديد من الصور التعبيرية التي يكون محورها أسلوبا قسميًا مراعيا في ذلك ما يسبق وما يتلو أسلوب القسم في السياق الكلامي لتبيان أهميته في إحداث عملية الإقناع التي ينبني عليها الإيمان بما يقسم به وعليه القرآن الكريم .

وفي الفصل الرابع : حاولت أن أتصور خطة لتحليل النص اللغوي ، مستوحاة من جهود القدماء ، وخاصة عبد القاهر الجرجاني ، في ضوء الجهود اللسانية المعاصرة التي أصبحت تشمل الدلالة والنحو والصوت ، وخاصة (منهج القواعد التوليدية والتحويلية) المعاصر ، وذلك للجمع بين الأصالة اللغوية والحداثة المنهجية وهذه الخطة تتمثل في اعتبار النص اللغوي وحدة متكاملة الجوانب ، مؤلفة من مجموعة من الصور التعبيرية ، كل صورة تعبر عن فكرة من أفكار النص تكمل ما قبلها وتمهد لما بعدها ، لها عمق يتمثل في المعنى الذي تعبر عنه ، وسطح يتمثل في ألفاظها وتراكيبها ، واكتفيت بعد تبيان هذه الخطة ، بتحليل صورة تعبيرية محورها أسلوب قسمي ، عبر المستويات الثلاثة : (النحوي والدلالي والصوتي) وذلك تجنبا لطول الجانب التطبيقي من البحث ، وأخيرًا آمل أن تحظى الدراسات اللغوية العربية باهتمامات الدارسين ، وذلك من أجل تطوير جهود القدماء على ضوء المناهج الغربية الحديثة ، وبحثها بحثا منهجيًا واضح المعالم والاتجاه ، صالحًا ليُقتدى به .

# فهرس الآيات القرآنية

(مرتبة حسب تسلسل السور في المصحف)


| السورة | الآية | الصفحة |
|---|---|---|
| 1ـ البقرة | | |
| | 226 | 6 |
| | 226 | 70 |
| | 164 | 79 |
| | 26 | 86 |
| | 84 ـ83 | 126 |
| | 83 | 127 |
| | 85 ـ83 | 128 |
| | 85 | 129 |
| | 101 | 145 |
| 2ـ آل عمران | | |
| | 112 | 9 |
| | 152 | 40 |
| | 101 | 73 |
| | 187 | 126 |
| | 187 | 129 |
| 3ـ النساء | | |
| | 65 | 77 |
| 4ـ المائدة | | |
| | 73 | 51 |
| 5ـ الأنعام | | |
| | 121 | 48 |
| | 110 | 67 |
| | 78 | 83 |
| | 12 | 114 |
| | 10 | 115 |
| | 99 | 123 |
| | 96 | 251 |
| 6ـ الأعراف | | |
| | 23 | 51 |
| | 11 | 102 |
| | 10 ـ4 | 108 |
| | 54 | 252 |
| 7ـ التوبة | | |
| | 56 | 20 |
| | 42 | 68 |
| | 62،56 | 69 |
| | 97،75 | |
| 8ـ يونس | | |
| | 53 | 76 |
| | 53 | 90 |
| | 52 | 91 |
| | 67 | 123 |
| | 4 ،26 | 169 |
| | 1 | 170 |
| 9ـ هود | | |
| | 22 | 71 |
| | 25 | 111 |
| | 11 ـ9 | 112 |
| | 112 | 130 |
| 10ـ يوسف | | |
| | 85 | 37 |
| | 85 ،73 | 73 |
| | 95 ،91 | |
| | 34 | 113 |
| | 35 | 114 |
| | 66 | 129 |
| | 2 | 143 |

| الصفحة | السورة | الآية |
|---|---|---|
| | 11 ـ الرعد | |
| 123 | | 4 ـ 3 |
| | 12 ـ ابراهيم | |
| 142 | | 4 |
| 200 | | 45 ـ 44 |
| 201 | | 50 ـ 46 |
| | 13 ـ الحجر | |
| 77 | | 92 |
| 82 | | 72 |
| 88 | | 93 ـ 92 |
| 102 | | 26 |
| 105 | | 46 ـ 34،33 |
| | | 50 ـ 49 |
| 107 | | 25 ـ 23 |
| 123 | | 75 |
| | 14 ـ النّحل | |
| 67 | | 38 |
| 68 | | 38 |
| 71 | | 109،62،23 |
| 73 | | 63،56 |
| 102 | | 16 |
| 111 | | 36 |
| 118 | | 16 |
| 185 | | 16 |
| 190 | | 36 |
| 199 | | 13 ـ 11 |
| | 15 ـ الاسراء | |
| 110 | | 41 |
| 252 | | 13 |
| | 16 ـ الكهف | |
| 110 | | 54 |
| | 17 ـ مريم | |
| 76 | | 68 |
| 130 | | 71 |
| 132 | | 71 ـ 68 |
| 181 | | 2 ـ 1 |
| | 18 ـ طه | |
| 199 | | 54 ـ 53 |
| | 19 ـ الانبياء | |
| 11 | | 57 |
| 23 | | 57 |
| 73 | | 57 |
| 110 | | 105 |
| 251 | | 33،30 |
| | 20 ـ المؤمنون | |
| 102 | | 17،12 |
| 104 | | 14،8 ـ 11، |
| | | 19 ـ 18 |
| 108 | | 54 ـ 53،49 |
| 112 | | 37 ـ 34 |
| 198 | | 31،23 |
| | 21 ـ النور | |
| 67 | | 51 |
| 129 | | 50 |
| | 22 ـ الفرقان | |
| 109 | | 36 ـ 35 |
| | | 34 ـ 32 |
| | 23 ـ الشعراء | |
| 73 | | 97 |
| 75 | | 102،98،96 |
| 124 | | 104، ـ 103 |
| | | 121،105،102، |
| | | 124 ـ 120،122 |

| الصفحة | السورة | الآيـة |
|---|---|---|
| 125 | | 128،140_139 |
| | | 137،131_129_ |
| | | 158،142،138_ |
| | | 177_174 ،160 |
| | | 192،189،183، |
| | | .196 |
| 235 | | 14 |
| | 24_النمل | |
| 40 | | 21 |
| 111 | | 45 |
| 119 | | 21 |
| | 25_العنكبوت | |
| 51 | | 69،58،69، |
| 114 | | 61 |
| | 26_الروم | |
| 110 | | 57 |
| 111 | | 47 |
| | 27_لقمان | |
| 22 | | 13 |
| 73 | | 13 |
| 114 | | 25 |
| | 28_سبأ | |
| 77 | | 4_3 |
| 90 | | 3 |
| 91 | | 4_3 |
| 108 | | 10 |
| | 29_فاطر | |
| 67 | | 42 |

| الصفحة | السورة | الآيـة |
|---|---|---|
| | 30_يس | |
| 46 | | 71 |
| 82 | | 2_1 |
| 89 | | 3_1 |
| 130 | | 32 |
| 144 | | 16_13 |
| 251 | | 37 |
| 252 | | 4 |
| | 31_الصافات | |
| 76 | | 53،52،50،56 |
| | | .55 |
| 82 | | 3_1 |
| 83 | | 4_1 |
| 88 | | 4_1 |
| | 32_ص | |
| 95 | | 1 |
| 96 | | 4 ،2 |
| 180 | | 2_1 |
| | 33_الزمر | |
| 9 | | 67 |
| 110 | | 27 |
| 111 | | 65 |
| 114 | | 38 |
| | 34_غافر | |
| 71 | | 43 |
| | 35_فصلت | |
| 105 | | 45 |
| 112 | | 50 |
| 113 | | 27 |
| 114 | | 28 |

| الصفحة | السورة | الآية |
|---|---|---|
| | 36_الزخرف | |
| 88 | | 3_1 |
| 98 | | 3_1 |
| 111 | | 46 |
| 114 | | 8،9 |
| 130 | | 35 |
| | 37_الدخان | |
| 88 | | 3_1 |
| | 38_الجاثية | |
| 56 | | 22،12 |
| | 39_ق | |
| 95 | | 1 |
| 96 | | 4،3،6،1 |
| 99 | | 38 |
| 102 | | 16،38 |
| 105 | | 16 |
| 106 | | 18،17،15 |
| 180 | | 1_2. |
| | 40_الذاريات | |
| 53 | | 23 |
| 76 | | 23 |
| 85 | | 1_4 |
| 88 | | 23 |
| 89 | | 1_2،3،6 |
| 172 | | 1_6. |
| | 41_الطور | |
| 82 | | 1 |
| 90 | | 8،7 |
| | 42_النجم | |
| 89 | | 4،2،1 |
| 98 | | 1_4 |
| 184 | | 1_5 |

| الصفحة | السورة | الآية |
|---|---|---|
| | 43_القمر | |
| 110 | | 17 |
| | 44_الرحمن | |
| 16 | | 2،1 |
| | 45_الواقعة | |
| 6 | | 35 |
| 20 | | 78_80 |
| 65 | | 78_80 |
| 88 | | 75،77 |
| 197 | | 75،74 |
| | | 77_79 |
| | | 95_96 |
| | 46_الحشر | |
| 40 | | 12 |
| 118 | | 13 |
| | 47_المنافقون | |
| 59 | | 2،1 |
| 72 | | 1 |
| | 48_التغابن | |
| 76 | | 7 |
| 90 | | 7 |
| 91 | | 7 |
| | 49_القلم | |
| 89 | | 3،1 |
| 97 | | 3،1 |
| 118 | | 4 |
| 130 | | 39 |
| 181 | | 1_2 |
| | 50_الحاقة | |
| 65 | | 38_41 |
| 89 | | 38_41 |

| الصفحة | السورة | الآية |
|---|---|---|
| | 51_المعارج | |
| 65 | | 42_40 |
| | 52_نوح | |
| 56 | | 20_17 |
| | 53_القيامة | |
| 65 | | 3،1 |
| 189 | | 1 |
| 190 | | 2 |
| | 54_المرسلات | |
| 89 | | 7_1 |
| 172 | | 7_1 |
| | 55_النبأ | |
| 57 | | 17_6 |
| | 56_النّازعات | |
| 90 | | 7_6 |
| 95 | | 26،6،1 |
| 171 | | 1_9،15،17 |
| | | 26_25 |
| | 57_التكوير | |
| 65 | | 19_15 |
| 98 | | 19_15 |
| 193 | | 18_15 |
| 245 | | 14_1. |
| | 58_الانشقاق | |
| 65 | | 20_16 |
| 175 | | 16_19،6، |
| | | 9_7. |
| 176 | | 10_15،20_ |
| | | 25. |

| الصفحة | السورة | الآية |
|---|---|---|
| | 59_البروج | |
| 90 | | 6_4 |
| 181 | | 4_1 |
| 184 | | 11 |
| | 60_الطارق | |
| 99 | | 14_11 |
| 130 | | 4 |
| 132 | | 3_1 |
| | 61_الغاشية | |
| 86 | | 4_1 |
| | 62_الفجر | |
| 84 | | 4_1 |
| 96 | | 6_5 |
| 191 | | 6_1 |
| 193 | | 4 |
| | 63_البلد | |
| 65 | | 5_1 |
| 188 | | 17_4 |
| 189 | | 20 |
| 196 | | 4_1 |
| | 64_الشمس | |
| 82 | | 4_1 |
| 96 | | 9 |
| 186 | | 9_1 |
| 252 | | 4 |
| | 65_اللّيل | |
| 11 | | 1 |
| 92 | | 4_1 |
| 118 | | 12_11 |
| 196 | | 4_1 |
| 231 | | كلها |

| الصفحة | السورة | الآية |
|---|---|---|
| | 66_ الضحى | |
| 89 | | 3 |
| 118 | | 3 |
| 119 | | 5 |
| 191 | | 6_11 |
| 196 | | 1_4 |
| | 67_ التين | |
| 83 | | 1_4 |
| 93 | | كلها |
| | 68_ العلق | |
| 16 | | 1_5 |
| | 69_ العاديات | |
| 83 | | 1 |
| 92 | | 1_7 |
| 188 | | 6_8 |
| | 70_ العصر | |
| 92 | | كلها |

| الصفحة | السورة | الآية |
|---|---|---|

# فهرس الشواهد الشعرية

(ومرتب حسب حروف المعجم)

حرف الباء ـ

باللّه ربّك إنْ دخلت فقل له ... هذا ابن هرسة واقفًا بالباب

حرف التاء ـ

تليل ألا لا يَا حافظ ليمينه ... وإن سبقت منه الأليّة برّت

حرف الجيم ـ

لئن كنت محتاجًا إلى الحلم إنّني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

حرف الحاء ـ

لئن كانت الدّنيا عليّ كما أرى ... تباريحُ من ليلي فللموت أروحُ

ألا رُبَّ مِنْ قلبي له اللّه ناصِحٌ ... وَمَنْ قلبه لي في الظّباء السّوانح

حرف الدال ـ

ها إنّ تاعِذْرَةٌ إنْ لم تكن نفعتْ ... فإنّ صاحبها قد تاه في البلد

---

فإنْ شئتِ آليت بين المقا ... مِ والركن والحجر الأسود

نَسِيتُكِ مَا دام عقلي معي ... أُمَدِّدْ به أمد السّرمد

---

قد علموا والقدور تعلمه ... ومستهلّ الغِرار مُطّرِد

أن ليس عند اعتراز طارقها ... لديك إلاّ استلالها مَدَدُ

---

إنّ السماء وإن الريح شاهدةٌ ... والأرض تشهد والأيام والبلد

لقد جزيت بني بدر ببغيتها ... يوم الهباءة يومٌ ما له تَوَدُ

---

أَلِمْ بزينب إنّ البَيْنَ قد أفِدَا ... قَلَّ الثّواء لئن كان الرّحيل غَدَا

لئن كان ما حدثته اليوم صادقًا ... أَصُمْ في نهار القيظ للشمس بادِيَا

حرف الراء ـ

إنّ الذى أغناك يغنيني جَيْرِ ... واللّه نَفّاح اليدين بالخَيْرِ

حرف السين ـ

لِلّهِ يبقى على الأيّام ذو حِيَد ... بمشمخر به الظيان والآسُ
آليتَ حبَّ العراق الدّهرأطْعَمُه ... والحبّ يأكله في القرية السّوس

حرف القاف ـ

رَضيعَي لبانِ ثديَ أمٍّ تَحالفا ... بأسْحم داجٍ عَوْضُ لا نتفرّق
ووالله لولا تمره ما حَبَبْتُه ... ولا كان أدنى من عبيد ومشرَق

حرف الكاف ـ

تعلَّمَنْ ها لعمر الله ذا قسمًا ... فاقصد بذرعكَ وانظر أين تنسلك
لئن ساءني أن نلتني بمساءة ... لقد سَرَّني أنّي خطرت ببالك

حرف اللام ـ

حلفت لها باللّه حلفة فاجر ... لنامُوا فما إنْ من حديث ولا صالي
فقلت يمين اللّه أبرح قاعدًا ... ولو قطعوا رأسي لديك وأوْصالي
فقالت يمين اللّه ما لك حيلة ... وما إنْ أرى عنك الغواية تنجلي
وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليّ ... بأنواع الهموم ليبتلي
لئن مُنيتَ بنا عن غِبّ معركةٍ ... لا تُلْفِنَا عن دماءِ القوم ننتفل
أليس قليلاً نظرة إنْ نظرتها ... إليك ؟ وكلّا ليس منك قليل
إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنّما ... جُعِل اللّسان على الفؤاد دليلا
والخيل تعلم الفوارس أنني ... فرّقت جمعهم بضربة فيصل
قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدّخول فحومل
ألا نادت أُمامة باحتمال ... لتحزنني فلا بك ما أبالي

حرف الميم ـ

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ... فلم يَبْقَ إلاّ صورة اللّحم والدّم
تداركتما عبسًا وذبيان بعدما ... تَفانَوْا ودَقّوا بينهم عطر مَنْشَم

حرف النون ـ

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها ... والشر بالشّر عند اللّه مثلان
تحش فإنْ واقتني لا تَخُونُني ... نكن مثل من يا ذِئْبُ يصطحبانِ

## المصادر والمراجع


1_ آثار الشيخ محمد البشير الابراهيمي ط 1/ 78 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر

2_ الإتقان في علم القرآن للإمام جمال الدين السيوطي دار الفكر للطباعة والنشر بيروت

3_ أدب الكاتب أبو محمد عبد الله بن قتيبة تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد ط 4/ سنة 1963 مصر .

4_ الأدوات المفيدة للتنبيه في كلام العرب د . فتح الله صالح المصري ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر .

5_ أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تصحيح الإمام محمد عبده دار المطبوعات العربية .

6_ الأصول في النّحو لأبي بكر بن السراج تحقيق د . عبد الحسين الفتلي ط 1/ 1985 مؤسسة الرسالة بيروت .

7_ الإعجاز الفني في القرآن، لعمر سلامي ط/ 1980 مؤسسة عبد الكريم عبد الله تونس .

8_ الألسنية (علم اللّغة الحديث) المبادئ والأعلام د . ميشال زكريا ط 2/ 1983 المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت .

9_ الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين للإمام كمال الدّين أبي البركات الأنباري، تأليف محمد محي الدّين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى مصر

10_ أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لجمال الدّين بن هشام الأنصاري، تأليف محمد محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية بيروت .

11_ الإيضاح في علل النحو لأبي القاسم الزّجاجي تحقيق د . مازن المبارك ط 4/ 1982 دار النفائس بيروت .

12_ الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني شرح د . محمد عبد المنعم خفاجي ط 2 مكتبة الكليات الأزهرية _ القاهرة .

13_ البحث النّحوي عند الأصوليين د . مصطفى جمال الدين . ط 1980 دار الرّشيد للنّشر العراق .

14_ البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدّين محمد بن عبد الله الزّركشي، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ط 2 دار المعرفة بيروت .

15_ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري د . محمد أبو موسى ط4/1975 دار التضامن القاهـــرة .

16_ البيان و التبيين الجاحظ تحقيق عبد السّلام هارون ط4/1975 مكتبة الخانجي القاهـــرة .

17_ تاريخ النقد الأدبيّ عند العرب د . عبد العزيز عتيق ط/ 1980 دار النهضة العربية بيـــروت .

18_ التبيان في أقسام القرآن ابن قيم الجوزية مكتبة المتنبي القاهرة .

19_ التصوير الفنيّ في القرآن سيد قطب ط 8/ 1983 دار الشروق بيروت .

20_ التعبير الفني في القرآن د . بكري شيخ أمين ط4/80 دار الشروق بيروت .

21_ تفسير البيضاوي مؤسسة شعبان للنشر و التوزيع بيروت .

22_ تفسير التحرير و التّنوير الإمام محمد الطاهر بن عاشور ط/1971 الدّار التّونسيّة للنشـــر .

23_ الجملة العربية دراسة لغوية نحوية د . محمد إبراهيم عبادة منشأة المعارف بالأسكندريـــة .

24_ الحيوان، الجاحظ تحقيق المحامي فوزي عطوى ط1/ 1968 مكتبة محمد حسين النّوري دمشق _ سوريـــا .

25_ الخصائص ابن جني تحقيق محمد عليّ النّجار القاهرة دار الكتاب العربي بيروت ط/1971

26_ دراسات في علم اللّغة د . كمال محمد بشر ط2 / 71 دار المعارف بمصر .

27_ الدّراسات اللّهجية و الصوتية عند ابن جني د . حسام سعيد النّعيمي ط/ 1980 دار الرشيد للنشر العراق .

28_ دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني تصحيح محمد عبده ط1978 دار المعارف للطباعة و النشر بيروت .

29_ سنن النّسائي شرح جلال الدّين السّيوطي . دار الكتاب العربي بيروت .

30_ السّيوطي النّحويّ : د . عدنان محمد سلمان ط1/ 1976 د ار الرّسالة للطباعة بغـــداد .

31_ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب جمال الدّين ابن هشام الأنصاريّ تأليف محمد محي الدين عبد الحميـــد .

32 ـ شرح المعلقات السبع الزوزني ط 2/ دار الفكر بيروت .

33 ـ صحيح البخاري إدارة الطباعة المنيرية ، عالم الكتب بيروت .

34 ـ صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ط1/ 86 بيروت .

35 ـ ضياء السالك إلى أوضح المسالك تأليف محمد عبد العزيز النجار ط1/1979 مطبعة الفجالة الجديدة ـ القاهرة .

36 ـ علم البيان : دراسة تاريخية فنية في أصول البلاغة العربية د. بدوي طبانة ط/1981 دار الثقافة بيروت .

37 ـ علم الدلالة : د . أحمد مختار ط2/ 88 عالم الكتب القاهرة .

38 ـ علم الدلالة العربي : د . فايز الداية ديوان المطبوعات الجامعية .

39 ـ علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د . محمود السعران دار النهضة العربية بيروت

40 ـ غريب الحديث ابن قتيبة ، تحقيق ودراسة السنية د. رضا السويسي ط/1979 الدار التونسية للنشر .

41 ـ فقه اللغة وأسرار العربية أبو منصور الثعالبي منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .

42 ـ في تاريخ البلاغة العربية د . عبد العزيز عتيق دار النهضة العربية بيروت .

43 ـ في ظلال القرآن سيد قطب ط7/ 1978 دار الشروق القاهرة .

44 ـ القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع ط/ 1984 المؤسسة الوطنية للكتاب وحدة رغايـــة .

45 ـ قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث مدخل د . مازن الوعر ط1/1988 دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، سوريا .

46 ـ الكتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون ط3/ 1983 ، عالم الكتب ، بيروت لبنان .

47 ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل . أبو القاسم الزمخشري دار المعرفة للطباعة و النشر بيروت .

48 ـ كلام العرب من قضايا اللغة العربية د . حسن ظاظا ط/ 76 دار النهضة العربية بيروت .

49 ـ لباب النقول في أسباب النزول ، جلال الدين السيوطي ط4/ 83 دار إحياء العلوم بيـــروت .

50ـ لسان العرب المحيط إبن منظور، إعداد يوسف خياط، دار لسان العرب ببيروت

51ـ اللغة بين العقل والمغامرة د. مصطفى صفوان ط1974 مطبعة أطلس القاهرة

52ـ المجتمع الإنساني في القرآن الكريم د. محمد التومي ط1986 الدار التونسية للنشر تونس.

53ـ محاضرات في علم النفس اللغوي د. حنفي بن عيسى ط2/1980 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر.

54ـ المختار من تفسير القرآن الإمام محمد متولي الشعراوي دار الشهاب للطباعة والنشر الجزائر.

55ـ مختصر سيرة إبن هشام محمد عفيف الزعبي ط/ 1976 دار النهضة ببيروت

56ـ المدارس النحوية د. شوقي ضيف ط2/ 1968 دار المعارف مصر.

57ـ المسار الجديد في علم اللغة العام د. وليد محمد مراد ط1/ 1986 مطبعة الكواكب دمشق

58ـ المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث د. محمد أحمد أبو الفرج، ط1/ 1966 دار النهضة العربية للطباعة بيروت.

59ـ المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري د. زكي نجيب محمود ط3/ 1981 دار الشروق بيروت.

60ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب جمال الدين إبن هشام الانصاري تحقيق د. مازن المبارك ط2/ 1979 دار الفكر بيروت.

61ـ المفصل في علم العربية الزمخشري ط2، دار الجيل بيروت.

62ـ المقتضب المبرد تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ط/ 1965 القاهرة.

63ـ المقدمة إبن خلدون مطبعة عبد الرحمن محمد بمصر.

64ـ مناهج البحث في اللغة د. تمام حسان ط/ 1979 دار الثقافة المغرب.

65ـ من قضايا التراث العربي د. فتحي أحمد عامر ط/ 1985 منشأة المعارف الأسكندرية مصر.

66ـ النحو العربي دراسة نصية د. صابر بكر أبو السعود ط/1988 دار الثقافة القاهرة.

67ـ النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج) د. عبده الراجحي ط1979 دار النهضة بيروت.

68_ نحو نظرية لسانية عربية حديثة د. مازن الوعر ط1/ 1987 دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر بسوريا .

69_ النحو الوافي عباس حسن ط3/ 74 دار المعارف بمصر .

70_ نظرية النقد الأدبي وتطورها إلى عصرنا محي الدين صبحي ط 1984 الدار العربية للكتاب ليبيا-تونس .

71_ النظم الإسلامية في صدر الإسلام والعصر الأموي د. إبراهيم أحمد العدوي ط1/ 1971 مكتبة الأنجلو المصرية .

الدواويـــــن :

72_ ديوان الأعشى ط/ 1980 دار بيروت للطباعة والنشر .

73_ ديوان ذي الرمة ط/ 1919 كمبريج ، طبع ببيروت .

74_ ديوان عمر بن أبي ربيعة الشركة اللبنانية للكتاب ببيروت .

75_ ديوان الفرزدق ط/ 1984 دار بيروت للطباعة والنشر .

76_ ديوان أمرئ القيس ط/ 1958 دار بيروت للطباعة والنشر .

المراجـــع المعربـــة :

77_ سيكولوجية التعلم ، سيترارت هـ . هولس _ هوارد إجث ، ترجمة د. فؤاد أبو حطب ود. آمال صادق ط/ 1983 المكتبة الأكاديمية القاهرة .

78_ مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة : كاترين فوك_ بيارلي قوفيك ، تعريب د المنصف عاشور ط/ 1984 ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر .

79_ محاضرات في الألسنية العامة ، فردينان دي سوسير، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر ط/ 1986 المؤسسة الجزائرية للطباعة .

80_ نظرية الأنواع الأدبية م . لابي سي . فانسان، ترجمة د. حسن عون ط78 منشأة المعارف بالأسكندرية .

# فهرس المواضيع


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | |
| **الفصل الأول :** | |
| أسلوب القسم : دراسة لغوية نحوية | 04 – 63 |
| التعريف بأسلوب القسم عند النّحاة و البلاغيين | 05 – |
| أفعال القسم | 08 – |
| الجملة القسمية أو التّركيب القسمي | 11 – |
| صدر جملة القسم | 19 – |
| ضوابط صدر جملة القسم | 20 – |
| الحروف النّائبة عن الأفعال | 20 – |
| عجز جملة القسم | 35 – |
| ضوابط عجز جملة القسم | 37 – |
| علاقة الاستثناء المفرغ بالقسم | 38 – |
| ظاهرة الحذف في القسم | 39 – |
| علاقة الشرط بالقسم | 43 – |
| الفرق بين قسم الخالق و قسم المخلوق | 58 – |
| **الفصل الثاني :** | |
| القسم في السّور المكية : دراسة دلالية بلاغية | 64 – 134 |
| الأفعال الصّريحة في القسم | 65 – |
| الحروف النّائبة عن الأفعال | 73 – |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| دلالات المقسم به : | |
| - القسم بالخالق | 78-80 |
| - القسم بالمخلوق | 81- |
| دلالات المقسم عليه : 1- التوحيد | 88 - |
| 2- صدق القرآن | 88 - |
| 3- صدق النبوة | 89 - |
| 4- الجزاء و الوعد و الوعيد | 89 - |
| 5- خلق الإنسان | 92 - 100 |
| القسم غير الصريح : | |
| **الفصل الثالث :** | |
| أهمية القسم في عملية التبليغ و تحقيق الإقناع | 135 - 206 |
| وظيفة التعبير | 138 - |
| وظيفة التبليغ | 141 - |
| أهمية السياق في تحديد الدلالة | 143 - |
| طريقتا الإقناع : 1- البراهين | 162 - |
| 2- التأثيرات | 163 - |
| الصورة التعبيرية أساس الإقناع | 165 - |
| عناصر الصورة التعبيرية | 167 - |
| القسم محور الصورة التعبيرية | 168 - |
| الأبعاد الدلالية للصورة التعبيرية | 168 - |
| - البعد العقلي التأملي | 168 - |
| - البعد الاجتماعي النفسي | 181 - |
| **الفصل الرابع :** | |
| من أصالة الاتجاه اللغوي إلى حداثة المنهج | 207 - 255 |

| الموضـــــوع | الصفحـــة |
|---|---|
| جهود بعض المدارس اللّسانية المعاصرة | 208 |
| بعض الجهود اللّغوية العربية القديمة | 221 |
| إتّجاه لغويّ عربيّ حديث | 226 |
| الخطوات المتّبعة | 228 |
| دراسة الصّورة التعبيرية | 233 |
| ـ المستوى التركيبي النّحويّ | 233 |
| ـ المستوى الدّلالـيّ | 240 |
| ـ المستوى الصّوتيّ | 247 |
| الخاتمة : | 256 |
| فهرس الآيات القرآنية | 263 ـ 258 |
| فهرس الأبيات الشعرية | 265 ـ 264 |
| فهرس المراجع | 270 ـ 266 |
| فهرس المواضيع | 273 ـ 271 |